

تيسير الوصول

شرح

ثلاثة الأصول

تأليف

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

تيسير الوصول

شرح

ثلاثة الأصول

ⓗ عبد المحسن بن محمد القاسم ١٤٤١هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاسم، عبد المحسن بن محمد
تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول. / عبد المحسن بن محمد القاسم.
ط ٣.. ـ الرياض، ١٤٤١هـ.
٣١٢ ص ١٧ x ٢٤سم
ردمك: ٧-٤٧٠٨-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١ـ العقيدة الإسلامية. أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤١/١١٩٢٥

رقم الإيداع: ١٤٤١/١١٩٢٥
ردمك: ٧-٤٧٠٨-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة
١٤٤١ هـ ـ ٢٠٢٠م

تيسير الوصول

شرح

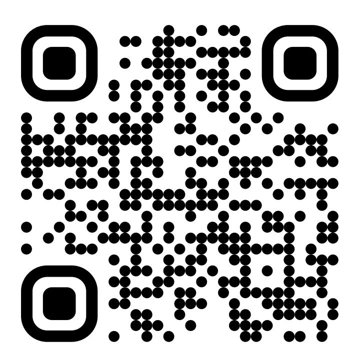
ثلاثة الأصول

تأليف

د. عبد المحسن بن محمد القاسم

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

إِذَا رَغِبَ إِمَامُ المَسْجِدِ قِرَاءَةَ هَذَا الكِتَابِ عَلَى جَمَاعَةِ المَسْجِدِ،
أَوْ رَغِبَ رَبُّ الأُسْرَةِ قِرَاءَتَهُ عَلَى أُسْرَتِهِ، أَوْ غَيْرُهُمَا،
فَقَدْ قُسِّمَ هَذَا الكِتَابِ إِلَى مَجَالِسَ،
كُلُّ مَجْلِسٍ يَنْتَهِي بِهَذِهِ العَلَامَةِ: ❊



https://a-alqasim.com/books/

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لِلَّه رَبِّ العَالَمِين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نَبيِّنا مُحمَّد، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

أمَّا بعد:

فإنَّ «**ثَلَاثَةَ الأُصُولِ**» للإمامِ المجدِّدِ الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ من أنفعِ المتونِ المؤلَّفةِ في أُصولِ الدِّين، وقد تَلَقَّاها طلبةُ العلم والعَامَّة بالحفظ والمُدَارَسَة؛ لكونِهَا قاعدة نافعة في العقيدة، وقد وَهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الإمامَ العلَّامةَ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ حُسنَ التَّصنيف، ودِقَّة التَّرتيب، وقوَّة الاستدلال مع جزالةِ اللَّفظ وجمالِ البيان، وقد جاءت «**ثَلَاثَةُ الأُصُولِ**» شاملةً لذلك كلِّه، قال عنها حفيدُ المصنِّفِ الشَّيخُ عبدُ الرَّحمن بنُ حسنٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فما أعظمَ نفعها على اختصارها لطالب الهدى»[(١)].

موضوع «ثلاثة الأصول»

ففيها الأصولُ الَّتي يجبُ على الإنسان معرفتُها، وهي: معرفةُ العبد ربَّه، وأنواعٌ من العبادة التي أمر اللَّهُ بها، ومعرفةُ العبد دينَه، ومراتبُ الدِّين، وأركانُ كلِّ مرتبة، ومعرفةُ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نبذةٍ من حياته، والحكمة من بعثته، والإيمانُ بالبعث والنُّشور، وركنا التَّوحيد - وهما: الكفرُ بالطَّاغوت، والإيمانُ باللَّه -.

(١) الدرر السَّنيَّة (٤/ ٣٣٨).

الشيخ محمد بن عبد الوهاب يلقِّن الطَّلبة والعَامَّة «ثلاثة الأصول»

ولكونِها قاعدة نافعة في العقيدة؛ فقد كان الإمامُ الشَّيخُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ يُلقِّنُها الطَّلبةَ والعامَّة، قال الشَّيخُ عبدُ العزيز ٱبنُ باز رَحِمَهُ اللهُ: «وقد كان الشَّيخُ محمَّدُ بنُ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ: يُلقِّنُ الطَّلَبةَ والعَامَّةَ هذه الأصول، ليدرسوها ويحفظوها، ولتستقرَّ في قلوبهم؛ لكونِهَا قاعدة في العقيدة»[١]. وكانت تُقْرَأُ على الشَّيخِ محمَّدِ بن إبراهيمَ آل الشَّيخ رَحِمَهُ اللهُ ويَشْرَحُهَا كلَّ يوم[٢].

رسائل صُدِّرت بها «ثلاثة الأصول»

وقد صُدِّرَت «**ثَلَاثَةُ الأُصُولِ**» بثلاثِ رسائلَ نافعةٍ عظيمةٍ للإمام الشَّيخِ مُحمَّدِ بنِ عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللهُ هي قواعد في الدِّين، وضَعَها هنا بعضُ تلامِذَتِهِ مقدمةً لثلاثةِ الأُصُول:

الأُولى منها: في وجوب العلم، والعمل به، والدَّعوةِ إليه، والصَّبرِ على الأذى فيه.

والثَّانية: في توحيدِ الرُّبوبيَّة، والإيمان بالرَّسول ﷺ وطاعته، وتوحيدِ الألوهيَّة، والولاء والبراء.

والثَّالثة: في بيان التَّوحيد وضدِّه.

وبذلك جاءت «**ثَلَاثَةُ الأُصُولِ**» مع الرَّسائل الثَّلاث عِقْداً مكتملاً في أصول الدِّين، ودُرَّةً مضيئةً للعابدين الموحِّدين، قال

(١) شرح ثلاثة الأصول للشَّيخ ٱبن باز (ص٢١).
(٢) فتاوى ورسائل سماحة الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ (١/ ١٢).

عنها الشَّيخُ عبدُ العزيز ٱبن باز ﵀: «هذه رسالة مهمَّة في العقيدة»(١).

الوُلاة يأمرون العَامَّة بتعلُّم «ثلاثة الأصول» وفهمِها

ولأهمِّيَّتِها، وغزيرِ نفعِها، وحاجةِ المسلم إليها؛ كان العلماء يحثُّون الوُلاة لإلزام النَّاس بتعلُّمها وفهمها، قال الشَّيخ عبد الرحمن بن حسن ﵀: «فيَلْزم الأمير أَنْ يَأْمُرَ جميع المُدرِّسين وأئمَّة المساجد بالحضور عند مَنْ يعلِّمُهم دينَهم، ويلزمهم القراءة فيما جَمَعَهُ شيخنا ﵀ في «كتاب التَّوحيد» من أدلَّة الكتاب والسُّنَّة التي فيها الفرقان بين الحق والباطل، فقد جمع على ٱختصاره خيراً كثيراً، وضمَّنه من أدلة التوحيد ما يكفي مَن وفقه اللَّه، وبيَّن فيه الأدلة في بيان الشرك الذي لا يغفره اللَّه، ويلزمهم سؤال العامَّة عن أصول الدين الثَّلاثة بأدلتها، وأربع القواعد»(٢).

واجب أئمَّة المساجد تعليم المُصلِّين «ثلاثة الأصول»

وَكَتَبَ سماحة الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ ﵀ لأئمَّة المساجد يأمرهم بتعليم جماعة المسجد «ثَلَاثَةَ الأُصُولِ»، وأَنْ يَعْقِدَ لهم مجلساً يوميّاً يسألهم عنها، قال ﵀: «وكذلك عليكم - أي: الأئمَّة - تعليم الجماعة أمر الدين وسؤالهم عنه، كما في «مختصر ثلاثة الأصول»، فيتعيَّن على كلِّ إمامِ مسجدٍ إبلاغ

(١) شرح ثلاثة الأصول للشيخ ٱبن باز (ص٢١).
(٢) الدرر السَّنِيَّة (٤/٣٣٨-٣٣٩).

جماعته بذلك، ويعقد لهم مجلساً يوميّاً يسألهم فيه عن أمور دينهم، ويعلِّمهم ما يخفى عليهم منها»[١].

سبب تأليف هذا الشَّرح

ولأهميةِ هذه الرِّسالة وعظيم نفعها وضعتُ عليها شرحاً سمَّيته: «**تَيْسِيرُ الوُصُولِ؛ شَرْحُ ثَلَاثَةِ الأُصُولِ**» مُوضِّحاً معانيها، ومُظْهِراً مبانيها، ومستشهِداً بأقوال الصَّحابة والتَّابعين وسلف الأُمَّة، ذاكراً لأقوال المحقِّقين من هذه الأمَّة - كشيخِ الإسلام ٱبن تيمية، وتلميذِه ٱبن القيِّم رحمهما الله -.

أسأل اللَّهَ عز وجل أن ينفعَ به، ويجعلَه ذخراً لنا في الآخرة.

وصلَّى اللَّه وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبِه أجمعين.



---

(١) فتاوى ورسائل سماحة الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ (٢/ ٢٧٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* ٱعْلَمْ ....

شرح البسملة

ٱسْتَفْتَحَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الرِّسالةَ الأولى من الرَّسائلِ الثَّلاث الَّتي صُدِّرَتْ بها «ثَلَاثَة الأُصُولِ»؛ مُسْتَعِيناً باللَّه، مُتبرِّكاً بٱسمه تعالى، قائلاً: أَبْدَأُ مُصنَّفي بـ(بِسْمِ اللَّهِ) مُقْتَدِياً في ذلك بكتاب اللَّه، ومُتَأسِّياً بالنَّبيِّ ﷺ في مُكاتَباته ومُرَاسَلاته.

ولفظ الجلالة (اللَّه) عَلَمٌ على الباري جَلَّ وَعَلَا، وهو الٱسم الذي تتبعه جميع الأسماء.

و(الرَّحْمَنِ) ٱسمٌ من الأسماء المختصَّة باللَّه لا تُطْلَق على غيره، والرَّحمن معناه: المتَّصف بالرَّحمة الواسعة.

و(الرَّحِيمِ) ٱسمٌ من أسمائه تعالى، ويُطْلَق عليه ويُطْلَق على غيره، ومعناه ذو الرَّحمة الواصلة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّحمنُ دالٌّ على الصِّفةِ القائمة به سبحانه، والرَّحيمُ دالٌّ على تعلُّقِها بالمرحوم»[١].

الرِّسالة الأولى: أربع مسائل واجب تعلُّمها

يقول المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (ٱعْلَمْ) ولا تَكُنْ جاهلاً بأمور الدِّين، وسَأَذْكُرُ لك مسائل مُهِمَّةً في أصول الدِّين، حقيقٌ أَنْ تَهْتَمَّ بها

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤).

- رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

الأُولَى: العِلْمُ، ....

غاية الاهتمام، وأَنْ تصغي إليها حقيقة الإصغاء، وأَنَا أَدْعُو لك بالرَّحمة قائلاً: (رَحِمَكَ اللَّهُ) أي: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ ينزِل عليك رحمتَه الَّتي تحصل بها على مطلوبك، وتَنْجُو بها من محذورك، وهذا دأبُ النَّاصح؛ يدعوك إلى الهداية، ويدعو لك بالخير، فيجمع بين التَّعليم والدُّعاء، وهذا من حُسنِ عنايةِ المصنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ بعباد اللَّه المؤمنين، ونُصْحِه وقصدِه الخير للمسلمين.

اعلم (أَنَّهُ يَجِبُ) وُجوباً عينيّاً (عَلَيْنَا) نحنُ المُكلَّفين، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً (تَعَلُّمُ) ومعرفةُ (أَرْبَعِ مَسَائِلَ) مُهمَّة في الدِّين، شاملة له.

المسألة الأولى: العلم

(الأُولَى) من تلك المسائل: (العِلْمُ) وهو معرفةُ الهدى بدليله، ويشمل: معرفة اللَّه، ومعرفة نبيِّه، ومعرفة دين الإسلام.

وخصَّ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأمور؛ لأنَّها هي أصول الإسلام الَّتي لا يقوم إلا عليها، وهي الَّتي يُسألُ العبدُ عنها في قبره، والعبد إذا عرف ربَّه، وعرف نبيَّه ﷺ، وعرف دينَ الإسلام بالأدلَّة؛ كمل له دينه.

العلم الواجب

وما كان واجباً على الإنسان - كأصول الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يجب اجتنابه من المحرَّمات، وما يحتاج إليه في

. . . .

المعاملات، ونحو ذلك ممَّا لا يتمُّ الواجب إلا به - فهو واجبٌ تعلُّمه؛ ليعبدَ العبد ربَّه على بصيرة، ويتقرَّب إليه على برهان، ويجبُ عليه أَنْ يسألَ أهلَ العلمِ عمَّا جَهِلَه من ذلك، قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجبُ أَنْ يطلبَ من العلم ما يقومُ به دينه، قيل له: مثلُ أيِّ شيء؟ قال: الَّذي لا يَسَعُه جهله: صلاته، وصيامه، ونحو ذلك»[(١)].

وأما القَدْرُ الزَّائد على ما يحتاج إليه المعيَّن من فروض الكفايات - كتعلُّم المواريث، وكيفيَّةِ تغسيلِ الميِّت -؛ فإنَّه إذا قام به مَنْ يكفي سقط الإثم عن الباقين. ❊

(١) الفروع لابن مفلح (١/ ٥٢٥).

وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ، ....

معرفة اللَّه

(وَ) العلمُ الواجبُ علينا تَعَلُّمه (هُوَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ)، وذلك بِأَنْ يعرفَ العبدُ ربَّه بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من أسمائه وصفاته وأفعاله.

ومعرفةُ اللَّه أحد مُهمَّات الدِّين، والجهلُ به سبحانه من التَّفريط في أمور الدِّين، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «وقد ذَمَّ اللَّه تعالى من لم يعظِّمْه حق عظمته، ولا عَرَفَه حقَّ معرفته، ولا وَصَفَهُ حقَّ صفته»[1].

والإنسانُ لا يكون على الدِّين الحقِّ إلا بالعلم بربِّه، ولهذا كان أساس دعوة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام معرفة اللَّه بأسمائه وصفاته وأفعاله، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «مفتاح الدَّعوة الإلهيَّة: معرفة الرَّبِّ تعالى»[2].

ثمرة معرفة اللَّه

ومَنْ سَلَكَ الطَّريقَ المُوصِلَ إليه تعالى؛ سَلَكَ طريق معرفته، وعلى قدر معرفة اللَّه يكون تعظيم الرَّبِّ في القلب، ومَنْ عرفَ اللَّه أَحبَّه، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ بأسمائه وصفاته وأفعاله، أَحبَّه لا محالة»[3].

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٩٥).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٥١).
(٣) مدارج السالكين (٣/ ١٧).

وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ.

ومعرفةُ اللَّه وإفرادُه بالعبادة هو سبب السَّعادة في الدَّارين، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اللَّذَّة، والفرحة، والسُّرور، وطيب الوقت، والنَّعيم الذي لا يمكن التَّعبير عنه، إنَّما هو في: معرفةِ اللَّه سبحانه وتعالى، وتوحيده، والإيمان به»(١).

معرفة النَّبيِّ ﷺ

(وَ) من العلم الواجب على المكلَّف تعلُّمه: (مَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ) محمَّدٍ ﷺ؛ فإنَّه الواسطة بيننا وبين اللَّه في تبليغ رسالة اللَّه، ومعرفته تستلزم قبول وٱمتثال ما جاء به من عند اللَّه، من الهدى ودين الحق.

معرفة دِين الإسلام

(وَ) من العلم الواجب على المكلَّف تعلُّمه: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ) من الكتاب والسُّنَّة؛ لأنه هو الدِّين الَّذي تعبَّد اللَّه به الخلق، ومعرفته والعمل به سبب لدخول الجنَّة، والجهل به وإضاعته سبب لدخول النَّار، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كمال الإنسان مَدَارُهُ على أصلين: معرفة الحقِّ من الباطل، وإيثار الحقِّ على الباطل، وما تفاوتت منازل الخلق عند اللَّه في الدُّنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣١).
(٢) الجواب الكافي (ص٩٩).

. . . .

أوَّل ما يُسْأَلُ عنه العبدُ في القبر

ومعرفةُ اللَّه، ومعرفةُ نبيِّه ﷺ، ومعرفةُ دين الإسلام، أوَّلُ ما يُسْأَلُ عنها العبدُ في القبر، كما في حديث البراء بن عَازِبٍ رضي الله عنهما مرفوعاً، وفيه: «فَيَأْتِيهِ - أي: المؤمن - مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رواه أحمد[١].

ومَنْ عَرَفَ هذه الأصولَ بأدلَّتها حريٌّ به أن يُثَبَّتَ عند سؤال المَلَكَيْن في قبره، وقد ثبت في الحديث الصَّحيح أنَّ بعضَ النَّاس يقول: «هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي» رواه أحمد[٢].

حكم توحيد اللَّه بدون معرفة الدَّليل

وإذا كان العَامِّيُّ يعتقدُ وحدانيَّة اللَّه، ويعتقدُ بطلان ما يُعبَد من دون اللَّه فهو مسلم، وإن لم يعلم الدَّليلَ بالتَّفصيل، قال الشَّيخُ عبدُ اللَّه بنُ عبد الرَّحمن أبا بطين رحمه الله: «فرض على كلِّ أحدٍ معرفة التَّوحيد وأركان الإسلام بالدَّليل، ولا يجوز التَّقليد في ذلك؛ لكن العَامِّيَّ الَّذي لا يعرف الأدلَّة إذا كان يعتقد وحدانيَّة الرَّبِّ سبحانه، ورسالة محمَّد ﷺ، ويؤمن بالبعث بعد الموت، والجنَّة والنَّار، ويعتقد أنَّ هذه الأمور الشِّركيَّة التي تُفعل

---

(١) رقم (١٨٨٣٢).

(٢) التخريج السابق.

. . . .

عند هذه المشاهد باطلة وضلال، فإذا كان يعتقد ذلك ٱعتقاداً جازماً لا شكَّ فيه فهو مسلم وإن لم يترجم بالدَّليل؛ لأنَّ عامَّةَ المسلمين ولو لُقِّنُوا الدَّليل فإنَّهم لا يفهمون المعنى غالباً»[(١)] . ❋

---

(١) الدرر السَّنِيَّة (٤/ ٣٣٩).

. . . .

فضل طلب العلم

والسَّعيُ في طلب العلم؛ لمعرفةِ اللَّه، ومعرفةِ نبيِّه، ومعرفةِ الدِّين، من أَجَلِّ العبادات، وهو أفضل من نوافلها، قال الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عُبِدَ اللَّهُ بشيء أفضل من العلم»[(١)]، وقال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طلبُ العلمِ أفضلُ الأعمالِ لِمَنْ صحَّتْ نيَّته»[(٢)]، والعلم هو الميراث النَّبويُّ، ونور القلوب، وأهله هم أهلُ اللَّه وحزبُه، وأولى النَّاس به وأقربهم إليه، وأخشاهم له وأرفعهم درجات.

وهو من أَجَلِّ الأعمال، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم لا يعدله شيء»[(٣)]، وقال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو - أي: العلم الشَّرعي - حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصُّدور، ورياض العقول، ولذَّة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوال والأعمال والأحوال، به يُعرف اللَّه ويُعبد، ويُذْكَر ويُوحَّد، ويُحمد ويُمجَّد، وبه ٱهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون، به تُعرف الشَّرائع والأحكام، ويتميَّز الحلال من الحرام، وبه تُوصَل الأرحام، وهو إمامٌ والعملُ

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٣/ ٣٦٥).

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي (١/ ٢٣٦).

(٣) الآداب الشرعية لٱبن مفلح (٢/ ٤٥).

. . . .

مأموم، وهو قائدٌ والعملُ تابع، وهو الصَّاحب في الغربة، والمُحدِّث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشُّبهة، والغنى الذي لا فقر على مَنْ ظفر بكنزه»[١].

حاجة النَّاس إلى العلم

وحاجة النَّاس إلى العلم أشدُّ من حاجتهم إلى المأكل والمشرب، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النَّاس إلى العلم أحوج منهم إلى الطَّعام والشَّراب؛ لأنَّ الرَّجل يحتاج إلى الطَّعام والشَّراب في اليوم مرَّةً أو مرَّتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه»[٢].

طلب العلم أفضل من الجهاد

وطلب العلم مُفضَّلٌ على الجهاد في سبيل اللَّه، قال ٱبن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «الغُدُوُّ وَالرَّوَاحُ فِي تَعَلُّمِ العِلْمِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٣]، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تعلُّم العلم وتَعليمُه أفضلُ من الجهاد وغيره»[٤].

وقال الإمام أبو حنيفة ومالك رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: «أفضلُ ما تُطُوِّعَ به: العلمُ وتعليمُه»[٥]، وقال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يَعْدِلُ مِداد العلماء: إلا دَم الشُّهداء»[٦]. ❋

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٩).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٧٠).
(٣) الفردوس بمأثور الخِطَاب (٣/ ١٠٩)، رقم (٤٣٠٣).
(٤) الإنصاف للمرداوي (٢/ ١٦٢).
(٥) منهاج السنة (٦/ ٧٥).
(٦) الفروسية لٱبن القيم (ص١٥٧).

. . . .

أفضل النَّوافل

والعلمُ أفضلُ ما عُمرت به الأوقات، وخيرُ ما أُنفقت فيه الأنفاس، وبُذلت فيه المُهَج، قال النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ٱتَّفق جماعات السَّلف على أنَّ الٱشتغالَ بالعلم، أفضل من الٱشتغال بنوافل الصَّلاة والصَّوم والتَّسبيح، ونحو ذلك من أعمال البدن»[(١)]، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فَعِشْ بِعِلْمٍ وَلَا تَبْغِي بِهِ بَدَلاً
فَالنَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ[(٢)]

بماذا يَنْصَحُ العلماء؟

ونصيحةُ العلماء هي: التَّزوُّدُ من العلم، قال ٱبن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أزال أُحرِّض النَّاسَ على العلم؛ لأنَّه النُّورُ الَّذي يُهتدى به»[(٣)]، والسَّعادةُ إنَّما هي في العلم، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّعادةُ كلُّها في العلم وما يقتضيه، واللَّه يوفِّق من يشاء، لا مانع لِمَا أعطى، ولا معطي لِمَا منع، وإنَّما رَغِبَ أكثرُ الخلق عن ٱكتساب هذه السَّعادة وتحصيلِها: لوُعُورَةِ طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا على جسر من التَّعب، فإنها لا تحصل إلا بالجِدِّ المَحْض»[(٤)].

---

(١) المجموع (٤/ ٦).
(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ١٥١).
(٣) أحكام النساء لٱبن الجوزي (ص٨).
(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١١١).

. . . .

وقد أَمَرَ اللَّه نبيَّه ﷺ بالتَّزوُّد من العلم، فقال ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، ومَنْ أراد اللَّه به خيراً فقَّهه في الدِّين، قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» متفق عليه[١].

ومَنْ علم أنَّ الدُّنيا دار سباق وتحصيل للفضائل، وأنَّه كلَّما عَلَتْ مرتبتُه في العلم والعمل زادتِ المرتبةُ في دار الجزاء؛ ٱنتهب الزمان، ولم يضيِّع منه لحظة، ولم يترك فضيلة تمكِّنه إلا حصَّلها، ومَنْ وُفِّق لهذا، فليبتكر زمانه بالعلم، وليصابر كل محنة وفقر إلى أن يحصل له ما يريد، فالرَّاحة لا تنال بالرَّاحة، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فَٱعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْتِ مُجْتَهِداً
فَإِنَّمَا الرِّبْحُ وَالخُسْرَانُ فِي العَمَلِ[٢]

وليكن مخلصاً في طلب العلم عاملاً به، حافظاً له، ومَنْ فاته الإخلاص فذلك تضييع زمان، وخسران جزاء، ومَنْ فاته العمل به؛ فذاك يقوِّي الحُجَّة عليه والعقاب له.

العلم الشَّرعي هو الممدوح في النُّصوص

والمراد من العلم: العلم الشَّرعيُّ الذي يفيد معرفته ما

---

(١) البخاري، كتاب العلم، بابٌ: من يرد اللَّه به خيراً يفقهه في الدِّين، رقم (٧١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧)، من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لٱبن عساكر (٤٨/ ٤٥١).

. . . .

يجب على المكلَّف من أمر دينه، الذي لا حياة له إلا به، إذ هو الجالب لخشية اللَّه، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا عُبِدَ اللَّهُ وحده وحُمد وأُثني عليه ومُجِّد إلا بالعلم، ولا عُرف فضل الإسلام على غيره إلا بالعلم، ولا عُرف الحلال من الحرام إلا بالعلم، ولا فُضِّلَ الإسلام على غيره إلا بالعلم»[1]، ولا دليل إلى اللَّه والجنة إلا الكتاب والسُّنَّة، ولا صلاح للعباد في معاشهم ومعادهم إلا بالعلم باللَّه.

الدَّليل إلى اللَّه وإلى الجنَّة

أضرار الجَهْل

وفي الجهل والغفلة عن العلم زوال النِّعَم وحلول النِّقم؛ قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فما خراب العالَم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو مَحِلَّة قلَّ الشَّرُّ في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشَّرُّ والفساد»[2].

فعلى العاقل أَلَّا يضيعَ أوقات عُمُرِه وساعات دهره إلَّا في طلب العلم النَّافع. ❊

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٤).

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢٥٧).

الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

المسألة الثَّانية: العمل بالعلم

المسألة (الثَّانِيَةُ) الواجب علينا تعلُّمها: (العَمَلُ بِهِ) أي: بالعلم، إذ العمل ثمرة العلم ومِنْ أسباب رُسوخه، قال بعضُ السَّلَف: «كنَّا نستعينُ على حفظ الحديث بالعمل به»[(١)].

ومَنْ عمل بما علم حَفِظَ اللَّهُ عليه عِلْمَه، وأَثَابَهُ عِلْماً آخر لا يَعْلَمُه، كما أنَّ العملَ به من أسباب زيادة الإيمان، قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾، قال الشَّوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «زادهم إيماناً وعلماً وبصيرة في الدين»[(٢)]، والسعيد من حقق العلم والعمل، قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحكمة: العلم المشتمل على المعرفة باللَّه، مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النَّفس، وتحقيق الحقِّ للعمل به، والكف عن ضدِّه، والحكيم من حاز ذلك»[(٣)].

العالِمُ مَنْ عَمِلَ بعلمه

فإذا عمل الإنسانُ بعلمه؛ بأَنْ حَافَظَ على فرائض اللَّه، ولَازَمَ النَّوافلَ - كالسُّنن الرَّواتب، والوتر، وتلاوة القرآن، والاستغفار بالأسحار -، وأَلْزَمَ نفسَه ساعةً يجلسها في المسجد للذِّكر - وأحسن ما يكون بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس -، واجْتَنَبَ مجالسَ اللَّغوِ والغفلة، وابْتَعَدَ عن مجالس أهل الغيبة

---

(١) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص٩٠).
(٢) فتح القدير (٥/ ٣٥).
(٣) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (٢/ ٣٣).

. . . .

وسَاقِطِ الكلام، وحَفِظَ لسانَه ممَّا لا يَعْنِيه؛ فقد تسبَّب للعمل بعلمه، ومَنْ لم يعمل بما عَلِم حُرِمَ لذَّة العلم والخشية، وأَوْشَكَ اللَّهُ أَنْ يَسْلِبَه ما عَلِم، وكان في عِدَادِ الجاهلين، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يزال العالم جاهلاً حتى يعمل بعلمه، فإذا عمل به كان عالماً»[(١)].

عدم العمل بما علم

ومَنْ لم يَعْمَلْ بِعِلْمِهِ فَعِلْمُه حَسْرةٌ عليه يوم الحساب، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ: عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ ٱكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ» رواه التِّرمذيُّ[(٢)].

والَّذي معه علمٌ ولا يَعْمَلُ به شرٌّ من الجاهل، وهو أحد الثَّلاثة الَّذين تُسَعَّر بهم النَّار يوم القيامة[(٣)]، وفي ذلك يقول ٱبن رسلان رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَعَالِمٌ بِعِلْمِهِ لَمْ يَعْمَلَنْ　　مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عُبَّادِ الوَثَنْ[(٤)]

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لٱبن عساكر (٤٨/ ٤٢٧).

(٢) أبواب صفة القيامة، باب في القيامة، رقم (٢٤١٧)، من حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣) وهم: المقاتل، ومتعلِّم العلم، والمنفق ماله، الذين لم يكن قصدهم وجه اللَّه، إنَّما قصدُهم ثناءُ النَّاس عليهم. أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرِّياء والسُّمعة ٱستحق النار، رقم (١٩٠٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) الزبد لٱبن رسلان (ص١).

. . . .

ومَنْ عَلِمَ مسألةً من المسائل قامت عليه الحجَّة فيها ولو لم يكن من العلماء، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» رواه مسلم(١).

العمل بلا علم

ومَنْ عَمِلَ بلا علمٍ فقد شَابَه النَّصارى، ومَنْ عَلِمَ ولم يعمل فقد شَابَه اليهود، والعالِم مَنْ عَمِلَ بعلمه وإن كان قليل العلم، ومقصودُ الشَّريعةِ في تحصيل العلم هو العمل به، ممَّا يَجْلِبُ خشيةَ اللَّه ويُقرِّب من الخالق. ❊

---

(١) كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

المسألة الثَّالثة: الدَّعوة إلى اللَّه

المسألةُ (الثَّالِثَةُ) الواجب علينا تعلُّمها، والعملُ بها: (الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ) ﷻ، وتعليمُ النَّاس، وإرشادُهم، ونصيحتُهم.

والدَّعوةُ إليه سبحانه من أَجَلِّ الأعمال، وهي طريقةُ الرُّسل، قال ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، قال ٱبن كثير رحمه الله: «يقول تعالى لرسولِه ﷺ إلى الثَّقلين - الإنس والجِنِّ -، آمِراً له أَنْ يُخْبِرَ النَّاس أَنَّ هذه سبيله، أي: طريقته ومسلكه وسنَّته، وهي الدَّعوة إلى شهادة أَلَّا إله إلا اللَّهُ وحده لا شريك له، يدعو إلى اللَّه بها على بصيرةٍ من ذلك ويقينٍ وبرهان، هو وكُلّ من ٱتَّبعَه يدعو إلى ما دعا إليه رسولُ اللَّه ﷺ على بصيرةٍ ويقينٍ وبرهانٍ عقليٍّ وشرعيٍّ»(١).

أحسنُ الأقوال

وقول الدَّاعية أحسنُ الأقوال وأزكاها عند اللَّه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، والمسلمُ إذا عرف معبودَه ونبيَّه ﷺ ودينَه، ومَنَّ اللَّهُ عليه بالتَّوفيق لذلك؛ فإنَّ عليه السَّعي إلى إنقاذ غيره بدعوته إلى اللَّه تعالى، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «مقصود الدَّعوة النَّبويَّة؛ بل المقصود بخلق الخلق، وإنزال

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٦٦).

. . . .

الكتب، وإرسال الرُّسل: أن يكون الدِّينُ كلُّه لِلَّه، وهو دعوة الخلائق إلى خالقهم»(١).

أعلى مراتب الدَّعوة

وأعلى مراتب الدَّعوةِ: الدَّعوةُ إلى التَّوحيد ونفي الشِّرك، فإنه ما من نبيٍّ بُعث إلى قومه إلا ودعاهم إلى طاعة اللَّه وإفراده بالعبادة، ونهاهم عن الشِّرك ووسائله وذرائعه، ثم يبدأ الدَّاعية بعد ذلك بالأهم فالأهم من شرائع الإسلام، مصطحباً الحكمة معه في كلِّ قولٍ وعملٍ، ممتثلاً قولَ اللَّه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾.

أتباع الرُّسُل حقّاً

ومَنْ قام بالدَّعوة إلى اللَّه - مخلصاً للَّه، متبعاً هدي النَّبيِّ ﷺ -؛ كان من أتباع الرُّسل حقّاً، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ورثة الرُّسل وخلفاء الأنبياء هم الَّذين قاموا بالدِّين علماً وعملاً ودعوةً إلى اللَّه والرَّسول، فهؤلاء أَتْبَاعُ الرَّسول حقّاً، وهم بمنزلة الطَّائفة الطَّيِّبة من الأرض التي زَكَتْ فقَبِلَت الماء، فأنبتت الكَلأَ والعُشْب الكثير؛ فزَكَت في نفسها، وزكى النَّاس بها»(٢).

أجر الدَّاعي إلى اللَّه

وأجورُ الدَّاعي إلى اللَّه متواصلة عبر الدُّهور، قال

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٦٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٩٢).

. . . .

النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» رواه مسلم[(١)].

والسَّعيُ إلى هداية الخلق خيرٌ من زخرف الحياة، قال النَّبيُّ ﷺ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» متفق عليه[(٢)].

حاجة النَّاس إلى الدَّعوة

ومقصودُ الأنبياء إرشادُ النَّاس إلى معرفة اللَّه تعالى وعبادَتِه المُوصِلَتَيْن إلى السَّعادة الأُخْرَويَّة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «فالعلماء ورثة الأنبياء، عليهم بيان ما جاء به الرَّسول ﷺ ورَدُّ ما يُخالفُه»[(٣)].

وحاجة الخلق إلى الدَّعوة والبصيرة في الدِّين أشدّ من حاجتهم إلى الطَّعام والشَّراب، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله:

---

(١) كتاب العلم، باب من سَنَّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدًى أو ضلالة، رقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه، رقم (٣٧٠١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، بابٌ: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٦)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣١٦).

. . . .

«فالنُّفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به ﷺ واتِّباعه منها إلى الطَّعام والشَّراب، فإنَّ هذا إذا فات حصل الموت في الدُّنيا، وذاك إذا فات حصل العذاب»[١].

مجالات الدَّعوة

والدَّعوةُ ذاتُ مَجَالَات واسعة؛ فالتَّعليم، وإرشادُ العَاصي، وتنبيهُ الغافل، والنَّصيحة، والتَّوجيه والإرشادُ للخير، كلُّ ذلك من الدَّعوة إلى اللَّه، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» رواه مسلم[٢].

وعيدُ من تَرَك الدَّعوة إلى اللَّه

ومَنْ أعرضَ عن تعليمِ الآخرين وإرشادِهم وتعليمِهم أمرَ دينِهم؛ فقد عرَّض نفسه للوعيد، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، قال ٱبن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ بَخِلَ بالعلم؛ ٱبْتُلِي بثلاثٍ: إمَّا يَمُوتُ فَيَذْهَبُ عِلْمُه، أو يَنْسَى، أو يَتَّبِعُ السُّلْطانَ - أي: إذا دعا إلى باطل -»[٣].

فواجبٌ على كلِّ مسلمٍ الدَّعوة إلى اللَّه، ونصح المقصِّر، والسَّعي إلى إصلاح المجتمعِ، كلٌّ بحسبه. ❊

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥).

(٢) كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل اللَّه، رقم (١٨٩٣)، من حديث أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي، رقم (٥٨٦).

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

المسألة الرَّابعة: الصَّبر على أذيَّة النَّاس في الدَّعوة

المسألةُ **(الرَّابِعَةُ)** من المسائل الواجب علينا معرفتها والعمل بها: **(الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ)** أي: في جنب اللَّه ﷻ.

فإنَّ ميدان الدَّاعية: صدور الرِّجال، وهي متباينة ومختلفة كٱختلاف صورهم وأشكالهم، ومَنْ قامَ بدين الإسلام، ودعا النَّاسَ إليه؛ فقد تحمَّل أمراً عظيماً، وقام مقام الرُّسل في الدَّعوة إلى اللَّه، والدَّاعي يَحُولُ بين النَّاس وبين شهواتِهم وأهوائِهم وٱعتقاداتِهم الباطلة، وقد يُؤْذُونَه، فعليه أَنْ يصبرَ ويحتسب، قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَغْبِطُوا أحداً لم يصبْهُ في هذا الأمر بلاءٌ»(١).

تعريف الصَّبر، وحقيقتُه

والصَّبرُ ثبات القلب عند موارد الٱضطراب، والدِّينُ كلُّه يحتاج إلى صبر.

وأصلُ هذه الكلمة هو: المنع والحبس، فالصَّبر: حبس النَّفس عن الجَزَع، واللِّسانِ عن التَّشكِّي، والجوارحِ عن لَطْمِ الخُدود وشقِّ الثِّياب ونحوها.

وأما حقيقتُه فهو خُلُقٌ فاضل يمنع من فعل ما لا يَحْسُن ولا يَجْمُل، وهو قوَّة من قوى النَّفس التي بها صلاح شأنها وقِوَامُ

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٥٠).

. . . .

أمرِها، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُنَالُ الهدى إلَّا بالعلم، ولا يُنَالُ الرَّشاد إلا بالصَّبر»(١).

كيف تُنالُ الإمامة في الدِّين؟

وبالصَّبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدِّين، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمَنْ أُعْطِيَ الصَّبر واليقين؛ جعله اللَّه إماماً في الدِّين»(٢).

أذيَّة الدَّاعي إلى الخير مِن سُنَنِ اللَّه

فكُنْ سائراً في الدَّعوة إلى دين اللَّه بالحكمة وإنْ أُوذيتَ؛ فأذيَّة الدَّاعي إلى الخير من سُنَن اللَّه الكونيَّة، قال اللَّهُ لِنبيِّه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾.

والرُّسلُ أُوذوا بالقول والفعل، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، بل إنَّ منهم مَنْ تَعرَّض للقتل، قال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

ومَنْ قام بما قام به الرُّسل نَالَهُ ما نَالَهُم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وبالصَّبر مع التَّقوى لا يَضُرُّ كيد

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٥).

. . . .

العدو، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

ولا مَنَاصَ من ٱبتلاء الدَّاعي إلى اللَّه، «سأل رجلٌ الشَّافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: يا أبا عبد اللَّه! أيُّهما أفضلُ للرَّجُل: أَنْ يُمكَّن أو يُبْتَلى؟ فقال الشَّافعي: لا يُمَكَّن حتى يُبْتَلى، فإنَّ اللَّهَ ٱبتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّداً - صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين -، فلمَّا صَبَرُوا مكَّنهم، فلا يَظُنَّ أحدٌ أَنْ يَخْلُصَ من الأَلَم البَتَّة»[١].

ومَنِ ٱعتادَ الصَّبر هَابَه عدوُّه، ومَنْ عزَّ عليه الصَّبر طَمِعَ فيه عدوُّه؛ فَلْيوَطِّن المسلمُ نفسَه على الصَّبر، وليثق بالثَّواب من اللَّه، فإنَّه مَنْ وثق بالثَّواب لم يضرَّه مسُّ الأذى.

والمؤمنُ همَّتُه فعل المأمور، وترك المحظور، والصَّبر على المقدور؛ والإنسانُ إذا لم يصبر وقع فيما حرَّم اللَّه عليه، أو ترك ما أوجب اللَّه عليه. *

(١) الفوائد لٱبن القيم (ص٤٠٧).

. . . .

عاقبة الصَّبر

والصَّبرُ من أهم المهمَّات لمن علم فعمل فدعا، فإن لم يصبر، ٱستخفَّه الذين لا يوقنون، قال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، وقد أَمَرَ اللَّه الرُّسل بالتَّحلي بالصَّبر، قال ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

ومن الصَّبر: ٱحتمالُ الأذى، وكَظْمُ الغَيْظ، والعَفْوُ عن النَّاس، ومِنْ أسبابِ الفلاح: الصَّبرُ على تعليم الآخرين، وبذلُ المجهود في الإخلاص لنفعهم، وإذا ٱشتدَّت الأذيَّة قَرُبَ النَّصر، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ» رواه أحمد[1]، قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «الصَّبرُ مَطِيَّة لا تَكْبُو، والقناعةُ سَيْفٌ لا يَنْبُو»[2].

وليس النَّصرُ مختصّاً بأَنْ ينتصرَ الإنسانُ في حياته ويَرَى أثرَ دعوتِه قد تحقَّقَت؛ بل النَّصرُ يكون ولو بعد موتِه بأَنْ يجعلَ اللَّهُ في قلوب الخلق قَبُولاً لِمَا دعا إليه، وأخذاً وتمسُّكاً به.

معيَّةُ الله للصَّابر

والصَّابرُ ظافرٌ بعزِّ الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّه نالَ من اللَّه معيَّتَه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «يَثْقُلُ

---

(١) رقم (٢٨٤٩) من حديث ٱبن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصبهاني (٢/ ٥٢٤).

. . . .

الميزانُ بٱتِّباع الحقِّ، والصَّبرِ عليه، وبَذْلِه إذا سُئِل، وأخذِه إذا بُذِل»[(١)].

والفلاحُ مُعلَّقٌ بالصَّبر والتَّقوى، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

بشارةُ الله للصَّابرين

وقد بشَّر اللَّهُ الصَّابرين بثلاث، كلٌّ منها خيرٌ ممَّا يتنافس عليه أهل الدُّنيا، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، والفوزُ بالجنَّة لا يَحْظَى به إلا الصَّابرون، قال ﷻ: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

مراتب جهاد النَّفس

وتحقيقُ هذه المسائل الأربع - العلم، والعمل به، والدَّعوة إليه، والصَّبر - من أعظمِ مجاهدة النَّفس لإصلاحها وصلاحِ غيرها، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جهادُ النَّفس أربع مراتب:

إحداها: أَنْ يُجَاهِدَها على تعلُّم الهُدى ودينِ الحقِّ، الَّذي لا فلاحَ لها ولا سعادةَ في معاشِها ومعادِها إلَّا به، ومتى فاتَها عِلمُه شَقِيَت في الدَّارين.

الثَّانية: أَنْ يُجَاهِدَها على العملِ به بعد عِلْمِه، وإلَّا فمُجَرَّد العلم بلا عَمَلٍ إن لم يضرَّها لم ينفعها.

---

(١) ٱجتماع الجيوش الإسلامية (ص٧٨).

. . . .

الثَّالثة: أَنْ يُجَاهِدَها على الدَّعوة إليه، وتعليمِه مَنْ لا يعلمه، وإلا كان مِن الَّذين يَكْتُمُون ما أنزل اللَّهُ مِن الهدى والبيِّنات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجيه من عذاب اللَّه.

الرَّابعة: أَنْ يُجَاهِدَها على الصَّبر على مشاقِّ الدَّعوة إلى اللَّه وأَذَى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله للَّه.

فإذا ٱستكملَ هذه المراتب الأربع صار من الرَّبَّانيِّين»[١]. ❊

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٠).

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ . . . .

دليل المسائل الأربع

(**وَالدَّلِيلُ**) على أنَّه يجب علينا تعلُّم الأربع مسائل - وهي: العلمُ، والعملُ به، والدَّعوة إليه، والصَّبر على الأذى فيه -:

(**قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**) أتى بالبسملة مُسْتَفْتِحاً بها السُّورة.

(﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾) أَقْسَم تعالى بالعَصْر، وهو الدَّهر الَّذي هو زَمَنُ تحصيلِ الأرباح والأعمال الصَّالحة للمؤمنين، وزَمَنُ الشَّقاء للمُعْرِضين، لأنَّه وعاءٌ يُودِع فيه العباد أعمالَهم، ولِمَا فيه من العِبَر والعجائب، واللَّهُ سبحانه وتعالى له أَنْ يُقْسِمَ بما شاء من خلقه، وهو سبحانه الصَّادق وإن لم يُقْسِم، ولكنَّه أَقْسَم لتأكيد المقام.

(﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾) أي: جنس الإنسان في هذه الحياة (﴿لَفِي خُسۡرٍ﴾) أي: في خسران وهلاك ونقصان، والخاسر: ضد الرَّابح، والخسرانُ مراتب متعدِّدة متفاوتة، فقد يكونُ خَساراً مطلقاً، كحالِ مَنْ خَسِرَ الدُّنيا والآخرة، وفاتَه النَّعيم، وٱستحقَّ الجحيم، وقد يكونُ خَساراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمَّم اللَّه الخسران لكلِّ إنسان.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

(﴿إِلَّا﴾) مَنِ ٱسْتثنى اللَّهُ في هذه السُّورة مِمَّنِ ٱتَّصف بأربعِ صفات، وهي:

دلالة الإيمان على العلم

الإيمانُ باللَّه، حيث قال سبحانه: (﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾) فوَقَرَ الإيمان في قلوبهم، ولا يكونُ الإيمان بدون العلم، فهو فَرْعٌ منه لا يتمُّ إلا به.

(﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) بجوارحهم، مُكْثِرين منها، مُصْطَحِبِينَ فيها الإخلاص، مُقْتَفِينَ هَدْيَ النَّبيِّ ﷺ، وهذا شاملٌ لأفعالِ الخير كلِّها الظَّاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق اللَّه وحقوق عباده، الواجبة والمستحبَّة.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾) أي: أَمَرَ ووَصَّى وحضَّ بعضهم بعضاً (﴿بِٱلْحَقِّ﴾) الذي هو الإيمانُ والعملُ الصَّالح، أي: يُوصِي بعضهم بعضاً بذلك، ويَحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه.

(﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾) أي: ذكَّر بعضهم بعضاً (﴿بِٱلصَّبْرِ﴾) على المصائب، والأقدار، وأذى مَنْ يؤذي مِمَّنْ يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر؛ فصبروا على ما نالهم من أذى، وصبروا على طاعة اللَّه، وصبروا عن معصية اللَّه.

ومَنْ قام بهذه الخصال فقد جَانَبَ الخسران، وكان من عباد اللَّه المفلحين، فبالأمرين الأولين - وهما: الإيمان، والعمل

. . . .

الصَّالح - يُكمِّل العبدُ نفسَه، وبالأمرينِ الأَخِيرين - وهما: التَّواصي بالحق، والصَّبر - يُكمِّل غيرَه، وبتكميلِ الأمور الأربعة يكونُ العبدُ قد سَلِمَ من الخسران، وفاز بالرِّبح العظيم.

الدِّين: إيمان وعِلم وعمل وصبر

والدِّينُ كلُّه إيمانٌ، وعملٌ، ودعوةٌ، وصبرٌ، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السَّلفُ مُجمِعُون على أنَّ العالِمَ لا يستحقُّ أَنْ يُسمَّى رَبَّانيّاً حتى يعرفَ الحق، ويعملَ به، ويعلِّمَه؛ فمَنْ عَلِمَ وعَمِلَ وعَلَّم: فذاك يُدْعَى عظيماً في ملكوت السَّموات»[1]. ❋

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ١٠).

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ، لَكَفَتْهُمْ».

منزلة سورة العصر

فسورةُ العَصْر تَنبيهٌ على أنَّ جنسَ الإنسان خاسر؛ إلَّا مَنِ ٱستثنى اللَّه، وهو مَنْ كَمَّل قوَّته العِلْميَّة بالإيمان باللَّه، وقوَّتَه العَمَلِيَّة بالطَّاعات، فهذا كمالُه في نفسه، ثم كمَّلَ غيرَه بوصيَّتِه له بذلك وأَمْرِه به، ومِلاكُ ذلك الصَّبر، وهذا غايةُ الكمال، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالت العقلاء قاطبة: النَّعيمُ لا يُدْرَكُ بالنَّعيم، والرَّاحةُ لا تُنَالُ بالرَّاحة، وأنَّ مَن آثَرَ اللَّذَّات؛ فَاتَتْهُ اللَّذَّات»[١].

والعاقلُ البصير إذا سَمِعَ هذه السُّورة أو قَرَأَها فلا بدَّ أَنْ يَسْعَى إلى تَخْلِيص نفسِه من الخسران، وذلك بٱتِّصافه بهذه الصِّفات الأربع، فهي سورةٌ عظيمةٌ جَمَعَتْ أربع قواعد يَسيرُ عليها المسلم في حياته.

مراتب الكمال الإنساني

(قَالَ) الإمامُ أبو عبدِ اللَّه، محمَّدُ بنُ إدريسَ (الشَّافِعِيُّ)[٢] - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -) عن هذه السُّورة: (لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) من القرآن (حُجَّةً) وإعْذاراً وإنْذَاراً وبرهاناً (عَلَى خَلْقِهِ) المُكلَّفين، (إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ) العظيمةَ الجامعة؛ (لَكَفَتْهُمْ)[٣] في إِلْزَامِهِم

---

(١) شفاء العليل (ص٢٥٠).

(٢) المتوفَّى: سنة أربع ومئتين (٢٠٤هـ).

(٣) ذكر ٱبن كثير في تفسيره (١/ ٦٣) عن الشَّافعيِّ نحوه، بلفظ: «لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ؛ لَكَفَتْهُمْ»، وذكره ٱبن القيِّم في التبيان في أقسام القرآن (ص٥٣)، وفي مفتاح دار السعادة (١/ ٥٨)، وفي الاستقامة (٢/ ٢٥٩)، وفي عدة الصابرين =

بالتَّمسُّكِ بالدِّين، والعملِ الصالح، والدَّعوةِ إلى اللَّه، والصَّبرِ على ذلك؛ فتضمَّنت جميع مراتب الكمال الإنساني، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكمالُ: أَنْ يكونَ الشَّخصُ كاملاً في نفسِه، مُكمِّلاً لغيره، فهذه السُّورة على ٱختصارها هي من أَجْمَعِ سُوَرِ القرآن للخير بحذافيره»[1].

فهذه السُّورة من المُبشِّرات المنذرات للعبد، فَلْيَقِفِ العبدُ عندها، ولْيَزِنْ بها نفسَه، قال ٱبن رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه السُّورةُ مِيزَانٌ للأعمال، يَزِنُ المؤمنُ بها نفسَه، فيَبِينُ له بها ربحه من خسرانه»[2]، فهي سورةٌ حقيقة بأَنْ يُقالَ فيها ما قاله الأئمة عنها؛ لعظيمِ شأنِها.

مرتبة العلم قبل القول والعمل

(وَ) لأهمِّيَّةِ طلبِ العلم قبل العمل؛ لئلَّا يَعْبُدَ الإنسانُ ربَّه على ضلالة، (قَالَ) الإمامُ أبو عبدِ اللَّه، مُحمَّدُ بنُ إسماعيلَ (البُخَارِيُّ[3] - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -) في صحيحه[4]: («بَابٌ: العِلْمُ

= (ص٦٠) عن الشَّافعيِّ - أيضاً - بلفظ: «لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ لَكَفَتْهُمْ».

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٨).

(٢) لطائف المعارف (ص٣١٣).

(٣) المتوفَّى: سنة ست وخمسين ومئتين (٢٥٦هـ).

(٤) يُنظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، بابٌ: العلم قبل القول والعمل، (١/ ٢٤).

قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، فَبَدَأَ «بِالعِلْمِ» قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

أي: الشَّرعيُّ وطَلَبُه **(قَبْلَ القَوْلِ)** دعوةً إليه، **(وَ)** قبلَ **(العَمَلِ)** به.

(وَالدَّلِيلُ) على وجوب العلم قبلَ غيره؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَٱعْلَمْ﴾**)** أيُّها الرَّسولُ (﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾) معبودَ بحقٍّ (﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾) وحده لا شريك له، (﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾) بسؤال المغفرة وفعل أسبابها.

قال البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: **(فَـ)**في هذه الآية **(بَدَأَ)** اللَّهُ **(بِالعِلْمِ»)**، قال المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: وذلكَ **(قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ)**، فإذا عَلِمَ عَمِلَ على بصيرة وهدى، وكلُّ عَمَلٍ لا يَقُودُه العلمُ فهو ضررٌ على صاحبه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلمُ إمامُ العمل وقائدٌ له، والعملُ تابعٌ له ومؤتَمٌّ به، فكلُّ عَمَلٍ لا يكونُ خَلْفَ العلم مُقْتَدِياً به فهو غيرُ نافعٍ لصاحبه، بل مَضَرَّةٌ عليه، كما قال بعضُ السَّلَف: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بغيرِ عِلْم، كان ما يُفْسِدُ أكثر ممَّا يُصْلِح»[1].

فمرتبةُ العلم مُقدَّمَةٌ على مرتبة العمل، والعلمُ شرطٌ في صحَّة القول والعمل فلا يعتدُّ بهما إلَّا به، فهو مُقَدَّمٌ عليهما؛ لأنَّه مُصحِّحُ النِّيَّةَ المُصحِّحةَ للعمل. ❊

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٨٥).

*** ٱعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ، وَالعَمَلُ بِهِنَّ:**

يذكُرُ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في الرِّسالةِ الثَّانية من الرَّسائلِ الثَّلاثِ التي صُدِّرت بها «**ثَلَاثَة الأُصُولِ**»؛ ثلاث مسائل يَجبُ علينا تعلُّمها والعملُ بها، فقال:

الرِّسالة الثَّانية: وجوب تعلُّم ثلاث مسائل، والعمل بهنَّ

(ٱعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ -) أي: أَدْعُو لكَ بأَنْ يَرْحَمَك اللَّهُ ويُنْزِلَ عليك من فضله، وأَطْلُبُ منك أَنْ تَعْلَمَ يقيناً:

(أَنَّهُ يَجِبُ) وُجوباً عَيْنيّاً **(عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ)** مُكلَّفٍ، **(وَ)** على كلِّ **(مُسْلِمَةٍ)** مُكلَّفة **(تَعَلُّمُ)** وٱعتقاد **(ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ)**:

الأولى: في توحيد الرُّبوبيَّة، والإيمانِ بالرَّسولِ ﷺ وطاعتِه.

والثَّانية: في توحيد الألوهيَّة.

والثَّالثة: في الولاءِ والبراءِ، قال عنها المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا هو حقيقةُ دين الإسلام، ولكن قِفْ عند هذه الألفاظ، وٱطْلُبْ ما تضمَّنت مِنَ العلم والعمل، ولا يُمْكِنُ في العلم إلَّا أنَّك تَقِفُ على كلِّ مسمًّى منها»(١).

(وَالعَمَلُ بِهِنَّ) وبما دَلَلْنَ عليه؛ لأنَّهن قاعدة الدِّين وأساسُ الٱعتقاد.

(١) الدرر السَّنِيَّة (١/ ١١٧).

الأُولَى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، ....

المسألة الأولى: في توحيد الرُّبوبيَّة

المسألةُ (الأُولَى) في توحيد الرُّبوبيَّة، والإيمانِ بالرَّسول ﷺ وطاعتِه، وهي من المسائلِ الثَّلاثِ الواجب علينا تعلُّمها، وهي: (أَنَّ اللَّهَ) ﷻ (خَلَقَنَا) من عَدَم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، ثمَّ صوَّرَنا أحسنَ صورة كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

(وَرَزَقَنَا) النِّعم، فلَمْ يَتْرُكْنا سبحانه عُرَاةً أو جِياعاً، بل رَزَقَ كلَّ مخلوقٍ وتكفَّل بذلك، قال ﷻ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، فسبحانه أَوْجَدَنا من العَدَم ورزقنا النِّعم لِنَعْبُدَه وحده، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

(وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلاً) سُدًى مُهْمَلِين، لا نُؤْمَر ولا نُنْهى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ولم يَتْرُكْنا سبحانه حَيَارَى؛ لا نَعْلَمُ ما هو الحقُّ، ولا أين هو؟ وكيف نَصِلُ إليه؟ وكيف نَتحصَّل عليه؟ (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً) معه الحقُّ سهلاً مُيَسَّراً يَهْدِي إليه؛ لنستقيم على ما فيه من الهدى، ونعمل بما فيه من الأوامر.

فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

ثواب مَن أطاع الرَّسُول ﷺ

(فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ)؛ لأنَّ طاعة الرَّسول طاعة لِلَّه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وأفضلُ الخلق وأعلاهم وأقربُهم إلى اللَّه أتمُّهم لِلَّهِ عبوديَّة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالكمالُ في كمال طاعة اللَّهِ ورسولِه ﷺ باطناً وظاهراً»[(١)]، فالغايةُ من إرسال الرُّسل طاعتهم وٱتِّباعهم فيما جاؤُوا به من عند اللَّه تعالى.

عقوبة مَنْ عصى الرَّسُول ﷺ

(وَ) شَقَاءُ المَخلوق في عِصيان الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ (مَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» رواه البخاريُّ[(٢)].

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٤٦).

(٢) كتاب الٱعتصام بالكتاب والسنة، باب الٱقتداء بسُنن رسولِ اللَّه ﷺ رقم (٧٢٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۞ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

دليل رسالة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ لنا

(**وَالدَّلِيلُ**) على إرسال الرَّسول وعلى وجوب طاعته والتَّحذير من عصيانه؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾**) يا أُمَّة محمَّدٍ (**﴿رَسُولًا﴾**) وهو خاتَمُ المرسلين محمَّدٌ ﷺ (**﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾**) بأعمالكم، (**﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾**) موسى عليه السلام - كليم الرَّحمن - (**﴿إِلَىٰ﴾**) الطَّاغية (**﴿فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾**) من أفضل الرُّسُل، (**﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾**) الذي أُرسل إليه وإلى قومه وهو موسى عليه السلام (**﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾**) أي: فرعون (**﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾**) أي: شديداً، وذلك بإغراقه وجنوده في البحر فلم يُفْلِتْ منهم أحد، ثم بعد ذلك في عذاب القبر إلى يوم القيامة، ثم عذاب النَّار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: في القبر، يُعَذَّبُون بها ﴿غُدُوًّا﴾، أي: أوَّلَ النَّهار، ﴿وَعَشِيًّا﴾ أي: آخره ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فهذه عاقبةُ العاصين للرُّسل، وجزاءُ المخالفين لأمرهم.

الحذر مِنْ تكذيب الرَّسُول ﷺ

فَلْتَحْذَرْ أُمَّة محمَّدٍ ﷺ من تكذيب رسولِها، فيصيبها ما أصاب فرعون، حيث أخذه اللَّهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، قال ٱبن كثير رحمه الله: «وأنتم أَوْلَى بالهلاك والدَّمَار إنْ كَذَّبتم رسولَكم؛ لأنَّ رسولَكم أشرفُ وأعظمُ من موسى بن عمران»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٩٥).

. . . .

فالخيرُ في طاعة الرَّسول ﷺ، والبُؤْسُ في معصيته، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمانُ باللَّه ورسولِه هو جِمَاعُ السَّعادةِ وأصلُها»[1]. ❊

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٩٣).

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ . . . .

المسألة الثَّانية: في توحيد الألوهيَّة

ولكون المسألة الأولى في توحيد الرُّبوبيَّة وطاعةِ النَّبيِّ ﷺ، ولأنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّة دالٌّ على توحيد الألوهيَّة ومُسْتَلْزِمٌ له، ذَكَرَ تحقيقَ ذلك في قوله: **(الثَّانِيَةُ)** وهي في توحيد الألوهيَّة، وهي من المسائل الثَّلاثِ الواجب علينا تعلُّمها ومعرفتُها وٱعتقادُها، فكما أنَّه الخالقُ الرَّازقُ الَّذي خلقك وأعطاك النِّعم فٱعلم: **(أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى)** بل يَمْقُتُ أشدَّ المَقْت، **(أَنْ يُشْرَكَ)** ويُسَاوَى **(مَعَهُ أَحَدٌ)** به **(فِي عِبَادَتِهِ)** وطاعتِه.

العبادة حق اللَّه وحده

(لَا مَلَكٌ) من الملائكة **(مُقَرَّبٌ)** عند اللَّه، **(وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)** أرسله اللَّه، فضلاً عن غيرهم من سائر المخلوقات؛ لأنَّهم لا يَسْتَحِقُّون العبادة، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثاً، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثاً؛ فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ المَالِ» رواه مسلم[1]، وأخبر تعالى أنَّه لا يَرْضَى لعبادِه الكفر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾،

---

(١) كتاب الأقضية، باب النَّهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، رقم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

وأخبر أنَّه يَرْضَى لعبادِه الإسلام، وهو عبادةُ اللَّهِ مخلصاً له الدِّين، قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

فإذا لم يَرْضَ سبحانه بعبادةِ مَنْ كان قريباً منه - كالملائكة، أو الأنبياء والمرسلين؛ وهم أفضلُ الخلق -، فغيرُهم بطريق الأولى؛ لأنَّ العبادةَ لا تَصْلُحُ إلَّا لِلَّهِ وحده، فكمَا أنَّه المتفرِّد بالخلق والرِّزق والتَّدبير، فهو المستحِقُّ للعبادة وحده دونَ من سواه.

فالمسلمُ يجمعُ بين أمرين؛ يؤمنُ بأنَّ اللَّهَ هو الخالقُ الرَّازقُ المُدبِّر، ويؤمنُ بأنَّه سبحانه هو المستحِقُّ وحده للعبادة؛ مِنْ ذَبْحٍ وصلاةٍ ونذرٍ وحَلِفٍ وغيرِها، وأنَّ عبادةَ مَنْ سوى اللَّه باطلة.

دليل وجوب التَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك

(**وَالدَّلِيلُ**) على أنَّ اللَّه لا يرضى أن يُشْرَكَ معه أحدٌ في عبادته كائناً من كان؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾) أي: أماكن الصَّلوات، أو أعضاء السُّجود (﴿لِلَّهِ﴾) لا لأحدٍ سواه.

(﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾) لا تسجدُوا فيها ولا بها لغيره، (﴿أَحَدًا﴾) لا مَلَكاً من الملائكة، ولا نبيّاً، ولا وليّاً، ولا غيرَهم، لا دعاءَ عبادة ولا دعاءَ مسألة؛ فدعاؤُهم من دون اللَّه

. . . .

هو الشِّركُ الأكبر، والذَّنبُ الَّذي لا يُغفَرُ إلَّا بالتَّوبة منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فهو سبحانه المُتفرِّد بالوَحْدَانيَّة، وهو القاهرُ فوق عباده القويُّ المَتِين، لا يَرْضَى أَنْ تُصْرَفَ العبادةُ لغيرِه، أو أَنْ يُجْعَلَ المخلوقُ الضَّعيف شريكاً له في العبادة. ❊

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ، لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

المسألة الثَّالثة: في الولاء والبراء

المسألةُ **(الثَّالِثَةُ)** في الوَلاءِ والبَرَاء، وهي من المسائل الَّتي يجب على المُكَلَّف معرفتُها، وٱعتقادُها، والعملُ بها، وذلك **(أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ)** فيما أَمَرَ به، وٱجْتَنَب ما نَهَى عنه، **(وَوَحَّدَ اللَّهَ)** في عبادته؛ لا يوالي من حادَّ اللَّه، وهذا فيه شَحْذُ الهِمَم للعمل بهذه المسألة وفق النُّصوص الشَّرعيَّة، فكأنَّه يقولُ لك: أَنْتَ وحَّدْتَ ربَّك، وعبدْتَه دونَ سواه، وأَطَعْتَ رسولَه ﷺ؛ فٱعمل بهذه المسألة العظيمة، وهي أنَّه: **(لَا يَجُوزُ لَهُ)** أي: للموحِّد المطيعِ للرَّسولِ ﷺ **(مُوَالَاةُ)** ومحبَّةُ **(مَنْ حَادَّ)** وعادى **(اللَّهَ وَرَسُولَهُ)**، بل يجبُ عليه أَنْ يُقَاطِعَهم ويُعَادِيَهم **(وَلَوْ كَانَ)** مَنْ حادَّ اللَّهَ ورسولَه **(أَقْرَبَ قَرِيبٍ)** سواء كان أباك أو ٱبنك أو أخاك، فإنَّ اللَّهَ قطع التَّواصل والتَّوادَّ؛ والقُرْبُ حقيقةً: إنَّما هو قُرْبُ الدِّين، لا قُرْبُ النَّسب، فالمسلمُ ولو كان بعيد الدَّار فهو أخوك في اللَّه، والكافرُ ولو كان أخاك في النَّسب فهو عدوُّك في الدِّين.

دليل الولاء والبراء

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّه لا تجوز موالاة من حَادَّ اللَّهَ ورسولَه؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجِدُ﴾)** أيُّها المؤمنُ **(﴿قَوْمًا﴾)** أي: طائفةً، والحُكْمُ أيضاً يَسْرِي على الأفراد **(﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾)** إيماناً حقيقيّاً

وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ ....

(﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾) وبما أَعَدَّ اللَّهُ فيه من الثَّوابِ والعقاب.

(﴿يُوَآدُّونَ﴾) يُوالُون ويُحِبُّون (﴿مَنْ حَآدَّ﴾) أي: عَادَى (﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾) بالكفر والعصيان، أي: لا يَجْتَمِعُ هذا وهذا؛ فلا يكون العبد مؤمناً باللَّه واليوم الآخر حقيقةً إلَّا إذا كان عاملاً بمقتضى إيمانِه ولوازمِه، ومِنْ ذلك محبَّةُ مَنْ قَامَ بالإيمانِ وموالاتِه، وبُغْضُ مَنْ لَمْ يَقُمْ به ومعاداته.

(﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ﴾) أي: هؤلاء المحادِّين لِلَّه ورسولِه (﴿ءَابَآءَهُمْ﴾) الذين أخرجهم اللَّه من أصلابهم، (﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾) الذين هم هِبَةٌ من اللَّه لآبائهم، (﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾) في النَّسب، (﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾) الأقربين منهم.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾) الذين حقَّقوا الوَلَاءَ والبَرَاء.

(﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾) أي: أَوْجَدَ في قلوبهم الإيمان وثبَّته؛ فلا يَتَزَلْزَل، ولا تُؤَثِّر فيه الشُّبَه والشُّكوك، فهي مُوقِنَة مُخْلِصَة.

(﴿وَأَيَّدَهُم﴾) اللَّهُ وقوَّاهم (﴿بِرُوحٖ مِّنْهُۖ﴾) أي: بِوَحْيِهِ ومَدَدِهِ الإلهيِّ، وإحسانه الرَّبَّانيِّ، وكتب لهم السَّعادة، وزيَّن

وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الإيمان في بصائرهم؛ وسمَّى اللَّهُ نصرَه إيَّاهم روحاً، لأنَّ به حياتهم.

(﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾) في دار القرار، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر، (﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾) زيادة في نعيمهم (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾) مُنعَّمِين أبد الآباد.

وزادهم بأَنْ (﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾) فأحلَّ عليهم رضوانه (﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾) وأَحبُّوه وشَكَرُوا إنعامَه وأفضالَه، فإنَّهم لمَّا أَسْخَطُوا الأقارب والعشائر في اللَّه، عَوَّضَهُم اللَّهُ بالرِّضا عنهم، وأَرْضَاهُم عنه بما أعطاهم من النَّعيم المقيم، والفوز العظيم.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾) أي: عبادُ اللَّه وأهلُ كرامته، وأولياؤُه المُقرَّبُون، وأنصارُه في أرضه.

(﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾) الفائزون بالظَّفر والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

جزاء مَنْ حقَّق الولاء والبراء

فمَنْ حقَّق الوَلَاء والبَرَاء؛ فقد أخبر اللَّهُ أنه يجازيه بأمور:

١ - جَمْعُ الإيمان في قلبه وثباتُه فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

. . . .

---

٢ - تَأْيِيدُ اللَّهِ له بالنُّور والهدى ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾، وسمَّاه رُوحاً؛ لأنَّه سببُ الحياة الطَّيِّبة - وهذا الأمرُ مع الَّذي قبله من الثَّوابِ في الدُّنيا -.

٣ - دخولُ الجنَّة ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾.

٤ - رضا الرَّبِّ سبحانه عنه ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وهذا من الزِّيادةِ في النَّعيم كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾.

٥ - رضا العبد في الآخرة بدخوله الجنَّة وما فيها من الكرامة ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

٦ - إكرامُ اللَّه لهم، بأَنْ جعلَهم من خاصَّته وحزبِه المفلحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قال في تيسير الكريم الرَّحمن: «وأمَّا مَنْ يَزْعُمُ أنَّه يؤمنُ باللَّه واليوم الآخر وهو مع ذلك مُوَادٌّ لأعداءِ اللَّه، مُحِبٌّ لِمَنْ نَبَذَ الإيمانَ وراءَ ظهره، فإنَّ هذا الإيمان زَعْمِيٌّ لا حقيقةَ له، فإنَّ كلَّ أَمْرٍ لا بدَّ له من برهان يُصَدِّقُهُ، فمجرَّدُ الدَّعوى لا تفيد شيئاً ولا يُصَدَّقُ صاحبُها»[١]. ❊

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ للسعدي (ص٧٨٧).

. . . .

الولاءُ والبراءُ أصلٌ مِن أصول الدِّين

والوَلَاءُ والبَرَاءُ أصلٌ عظيم من أصولِ الدِّين، قال الشَّيخ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يستقيم للإنسان إسلامٌ ولو وَحَّدَ اللَّهَ وتَرَكَ الشِّركَ إلا بعداوة المشركين، والتَّصريح لهم بالعداوة والبغضاء»(١).

وهو معنى كلمةِ التَّوحيد، وهو من الإسلام الَّذي هو الٱستسلام لِلَّهِ بالتَّوحيد، والٱنقيادُ له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرك وأهلِه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والبراءةُ ضدُّ الوَلاية، وأصلُ البراءةِ: البُغْض، وأصلُ الوَلاية: الحُبُّ، وهذا لأنَّ حقيقةَ التَّوحيد: ألَّا يُحبَّ إلَّا اللَّه، ويحبَّ ما يحبُّه اللَّه ولِلَّهِ، فلا يحبَّ إلا لِلَّه، ولا يبغض إلا لِلَّه»(٢).

الكافر عدوٌّ للَّه وللمؤمنين

والمسلمُ يُحبُّ مَنْ يحبُّه اللَّهُ، ويُعادِي مَنْ عاداه اللَّه؛ واللَّهُ يُبْغضُ الكافر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، والكافر عدوٌّ لِلَّه وللمؤمنين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، والوَلاءُ والبَرَاءُ من تمامِ محبَّة اللَّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنْ تمامِ محبَّة اللَّه ورسولِه: بُغضُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورسولَه، والجهادُ في سبيلِه»(٣).

---

(١) الدرر السَّنِيَّة (٨/ ٣٣١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦١).

. . . .

وإذا قَوِيَ الإيمانُ في القلب؛ قَوِيَ جانب الوَلَاء للمؤمنين والبَرَاء من الكافرين، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا قَوِيَ ما في القلب من التَّصديق والمعرفة والمحبَّة لِلَّهِ ورسولِه؛ أَوْجَبَ بُغضَ أعداءِ اللَّه»(١)، وإذا أَخَلَّ العبدُ بجانب الوَلَاء والبَرَاء ٱستحقَّ العقاب، قال سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: أصدقاء وأحباباً ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالمُوَادَّةُ من أعمال القلوب، فإنَّ الإيمانَ باللَّه يَسْتَلْزِمُ مودَّته ومودَّةَ رسوله، وذلك يُناقضُ مُوَادَّةَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورسولَه، وما ناقض الإيمان فإنَّه يَسْتَلْزِمُ الذَّمَّ والعقاب، لأجل عدم الإيمان»(٢).

حال المؤمنين مع الكفَّار

والإعراضُ عن المشركين بالجسد لا يكفي في البَرَاء، بل يجب مع ذلك البغض بالقلب، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بَراءةُ الخليلِ من قومه المشركين ومَعْبُودِيهم لَيْسَتْ تَرْكاً مَحْضاً، بل صادراً عن بُغْضٍ وَعَدَاوَةٍ»(٣).

ومع بُغْضِهِم وعداوتِهم والبراءةِ منهم ومن مَعْبُودِيهم، فإنَّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٣).
(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٢٤).

. . . .

الإسلامَ حرَّم قتلَ الكافر المعصوم - وهو: الذِّمِّيُّ، وَالمُعَاهَدُ، وَالمُسْتَأْمَنُ[١] -، وحرَّم سلبَ ماله، أو ظلمه، أو الاعتداء عليه، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَداً لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً» رواه البخاري[٢].

بل يجبُ مع بُغضِه دعوتُه إلى اللَّه بالحكمة والبصيرة، كما فعل النَّبيُّ ﷺ مع المشركين.

وجوب العدل في الولاء والبراء

ودينُ الإسلام وَسَطٌ في مُعْتَقَدِ الوَلَاء والبَرَاء؛ لا إفراطَ فيه بقتلِ الكفَّار المعصومين، ولا تفريطَ فيه بالموالاة المُحرَّمة أو التَّولِّي المُخْرِج من المِلَّة.

ويجبُ على المسلم أَنْ يكون عَدْلاً في أداء تلك العبادة العظيمة بين الإفراط والتَّفريط، وأَنْ يكونَ عملُه بها مبنيّاً على علمٍ بأحكام الشَّريعة. ❊

---

(١) الذِّمِّيُّ هو: الكافر الذي أُقِرَّ في دار الإسلام على كفره بالتزام الجِزْيَة ونفوذ أحكام الإسلام فيه.
وَالمُعَاهَدُ هو: الكافر المقيم في بلده، وبيننا وبينه عهد أنَّه لا يُحَارِبُنا ولا نُحَارِبُه.
وَالمُسْتَأْمَنُ هو: الكافر يدخلُ ديار المسلمين بأَمَان.
يُنظر: مجمع الأنهر (١/ ٦٥٥)، رد المحتار (١/ ١٦٦)، نيل الأوطار (٧/ ١٨)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/ ٢٣٨).

(٢) كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، رقم (٣١٦٦)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

. . . .

محبَّةُ المشركين تنقسمُ إلى: التَّولِّي والمُوالَاة

وٱعلم أنَّ الوَلَاءَ والبَرَاءَ مع المشركين ينقسمُ إلى قسمين:

- **التَّولِّي**، ومعناه: محبَّةُ الشِّرك وأهلِه، أو نصرةُ الكفَّارِ على المؤمنين، أو الفرح بذلك، أو مظاهرتهم ومعونتهم على المسلمين، وهذا كفرٌ أكبر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إيمانُ المؤمنِ يَفْسدُ بِمُوَادَّةِ الكفَّار»[(١)].

وقد ذكر الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ هذا من نواقض الإسلام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الثَّامِنُ - أي: مِنْ نواقضِ الإسلام -: مُظَاهَرَةُ المُشْرِكِينَ وَمُعَاوَنَتُهُمْ عَلَى المُسْلِمِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[(٢)].

- **المُوالَاة**، وهي: المُوَادَّةُ والصَّداقة، ضد المُعاداة والمحادَّة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ الوَلايةَ ضدُّ العداوة، والوَلاية تتضمَّن المحبَّة والموافقة، والعداوة تتضمَّن البغض والمخالفة»[(٣)]، وضابطُها: أن تكون محبَّة أهل الشِّرك لأجل الدُّنيا، ولا تكون معه نصرة، وهذه كبيرةٌ من الكبائر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

---

(١) تفسير البغوي (٤/ ٣١٢).
(٢) متون طالب العلم، نواقض الإسلام، (ص ٢١).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٠).

. . . .

بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تحصل للرَّجُل مُوَادَّتُهُمْ لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً؛ كما حصل من حَاطِبِ بن أبي بَلْتَعَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[1].

الفرقُ بين التَّولِّي والمُوالَاة

والفرقُ بين التَّولِّي والمُوَالاة: أنَّ التَّولِّيَ كفرٌ أكبر يُخْرِج من المِلَّة، والمُوالاةَ كبيرةٌ من كبائر الذُّنوب، وقد سئل الشَّيخ عبد اللَّه بن عبد اللَّطيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] عن الفرقِ بين المُوَالاة والتَّولِّي، فأجاب: «التَّولِّي كفرٌ يُخْرِجُ من المِلَّة، وهو كالذَّبِّ عنهم وإعانتِهم بالمال والبدن والرَّأي، والمُوَالاةُ كبيرةٌ من كبائر الذُّنوب، كَبَلِّ الدَّواة[3]، أو بَرْيِ القَلَم، أو التَّبشُّش لهم، أو رفعِ السَّوْط لهم»[4]. ❊

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٣).

(٢) مفتي الدِّيار في زمانه، وهو عمُّ سماحة الشَّيخ محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

(٣) الدَّوَاة هي: المِحْبَرة.

(٤) الدرر السَّنِيَّة (٨/ ٤٢٢).

. . . .

صورٌ من مُوالَاة وتولِّي المشركين

ولِلمُوَالَاة والتَّولِّي صورٌ عديدةٌ ذكرها الشَّيخُ سليمانُ بن عبد اللَّه بن محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «قد نَهَى اللَّهُ سبحانه عن موالاة الكفَّار، وشدَّدَ في ذلك، وأخبر أَنَّ مَنْ تولَّاهم فهو منهم، وكذلك جاءت الأحاديثُ عن النَّبيِّ ﷺ، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ: «مَنْ أَحَبَّ قَوْماً حُشِرَ مَعَهُمْ» رواه الحاكم.

ويُفْهَمُ ممَّا ذَكَرْنَا من الكتابِ والسُّنَّة والآثار عن السَّلف[١] أمورٌ مَنْ فَعَلَهَا دَخَلَ في تلك الآيات، وتَعرَّضَ للوعيد بِمَسِيسِ النَّار - نعوذ باللَّه من موجباتِ غضبه وأليمِ عقابه -:

أحدُها: التَّولِّي العام.

الثَّاني: المودَّة والمحبَّة الخاصَّة.

الثَّالث: الرُّكونُ القليل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾، فإذا كان هذا الخطاب لأَشرف مخلوقٍ - صلواتُ اللَّهِ وسلامه عليه - فكيفَ بغيره؟!

الرَّابع: مداهنتُهم ومداراتُهم، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

---

(١) ذكر ذلك مفصَّلاً في أوَّل رسالته هذه.

. . . .

الخامس: طاعتُهم فيما يتولَّون وفيما يشيرون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

السَّادس: تَقْرِيبُهم في الجلوس، والدُّخول على أمراء الإسلام.

السَّابع: مشاورتُهم في الأمور.

الثَّامن: ٱستعمالُهم في أمرٍ من أمور المسلمين، أيَّ أمرٍ كان - إمارة أو عَمَالَة أو كتابة، أو غير ذلك -.

التَّاسع: ٱتِّخاذُهم بِطانَة من دون المؤمنين.

العاشر: مُجَالستُهم ومُزَاوَرَتُهُم والدُّخولُ عليهم.

الحادي عشر: البشاشة لهم والطَّلاقة.

الثَّاني عشر: الإكرام العام.

الثَّالث عشر: ٱستئمانُهم وقد خونهم اللَّه.

الرَّابع عشر: معاونتُهم في أمورهم ولو بشيء قليل - كَبَرْيِ القلم، وتقريبِ الدَّوَاة، ليكتبوا ظلمهم -.

الخامس عشر: مناصحتُهم[1].

---

(١) أي: أَنْ يَطْلُبَ منهم أَنْ يَنْصَحُوهُ بالباطل.

. . . .

السَّادس عشر: ٱتِّباعُ أهوائِهم.

السَّابع عشر: مصاحبتُهم ومعاشرتُهم.

الثَّامن عشر: الرِّضا بأعمالهم، والتَّشبُّه بهم والتَّزيِّي بزيِّهم.

التَّاسع عشر: ذكرُ ما فيه تعظيم لهم كتَسْمِيَتِهم سَاداتٍ وحُكَمَاء، كما يُقالُ للطَّواغيت: السَّيِّدُ فلان، أو يُقالُ لِمَنْ يَدَّعِي علمَ الطِّبِّ «الحَكيمُ»، ونحو ذلك.

العشرون: السُّكنى معهم في ديارهم، كما قال ﷺ: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ؛ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ» رواه أبو داود.

إذا تبيَّن هذا، فلا فَرْقَ في هذه الأمور بين أَنْ يفعلَها مع أقربائه منهم، أو مع غيرهم، كما في آية المجادلة»[(١)].

المُشابَهةُ في الظَّاهر

والتَّشبُّه بهم في الظَّاهر يُورِثُ مودَّتَهم ومحبَّتَهم في الباطن، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المُشابَهةُ في الظَّاهر؛ تُورِثُ نَوْعَ مَوَدَّةٍ ومحبَّةٍ ومُوالاةٍ في الباطن، كما أنَّ المحبَّة في الباطن؛ تُورِثُ المُشابَهةَ في الظَّاهر، وهذا أمرٌ يَشْهَد به الحِسُّ والتَّجربة»[(٢)].

---

(١) الدرر السَّنيَّة (٨/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) ٱقتضاء الصِّراط المستقيم (ص٢٢١).

. . . .

والكافرُ يعامَل معاملةً ظاهرةً دونَ ميلٍ ومحبَّةٍ في القلب أو تشبُّهٍ في الظَّاهر، فالإيمانُ الواجبُ يُوجِب مُعاداةَ مَنْ حادَّ اللَّهَ ورسولَه، كما أنَّه يَسْتَلْزِمُ محبَّةَ مَنْ يُحِبُّ اللَّه ورسولَه وموالاتِه، فمَنْ وَالَى الكافرين فقد تَرَكَ واجباً من واجبات الإيمان، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بُدَّ في الإيمان مِنْ محبَّةِ القلبِ لِلَّهِ ولرسولِه، ومِنْ بُغض مَنْ يُحَادّ اللَّهَ ورسولَه»(١).

الولاءُ والبراءُ مع أهل الفسق

وكما أَنَّ الكفَّارَ يَجِبُ بغضُهم؛ فكذلك الفاسق يُبغَضُ لفسقِه، ولكن يُعطَى مِنَ المُوالاة بِقَدْر إيمانه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والواجبُ مُوالاةُ أولياءِ اللَّهِ المُتَّقينَ مِنْ جميع الأصناف، وبغضُ الكفَّار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسقُ المِلِّيُّ يُعطَى من المُوَالاة بِقَدْرِ إيمانِه، ويُعطَى من المُعادَاة بِقَدْرِ فِسْقِه»(٢).

فالواجبُ على المؤمن مُعادَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورسولَه وبُغْضُه؛ ولكن هذا لا يمنع نصيحتَه ودعوتَه إلى الحقِّ، فالمؤمنُ يُحبُّ أولياءَ اللَّه ويتعاونُ معهم على الخير، ويَكْرَهُ أعداءَ اللَّهِ ويبغضهم ويعاديهم في اللَّه حتى وهو يدعوهم إلى اللَّه.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٥٧٨).

• •

عاقبةُ مَنْ حقَّق البراء

ومَنْ عَادَى مَنْ يُبْغِضُه اللَّه؛ عوَّضَه اللَّهُ مَودَّةً عظيمةً لغيره، فإبراهيمُ عليه السلام لَمَّا ٱعْتَزَل أباه وقومَه لكفرِهم؛ أَقَرَّ اللَّهُ عينَه بإسماعيلَ ثمَّ إسحاق، فلم يُوجَدْ نَبِيٌّ بعد إبراهيم عليه السلام إلَّا من سُلَالَتِه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾. *

* ٱعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ -: أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ . . .

الرِّسالة الثَّالثة: بيان الحنيفيَّة

قال المُصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرِّسالة الثَّالثة من الرَّسائل الثَّلاث الَّتي صُدِّرَت بها «**ثَلَاثَة الأُصُولِ**» في بيانِ الحَنِيفِيَّةِ: **(ٱعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللَّهُ)** وهداك ووفَّقك **(لِطَاعَتِهِ -)**، والدُّعاءُ بالرَّشادِ إلى الطَّاعة هو مِنْ خيرِ الأدعية وأجمَعِها، وقد قال النَّبيُّ ﷺ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يَا عَلِيُّ! قُلِ: اللَّهُمَّ ٱهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَٱذْكُرْ بِالهُدَى: هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ: سَدَادَ السَّهْمِ» رواه مسلم[1]، وإذا نَالَ العبدُ طاعةَ اللَّهِ فقد نَالَ الخيرَ كلَّه.

معنى الحنيفيَّة، والحنيف

ولكي تَظْفَرَ بالخير: ٱعلم **(أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ)** وهي: إفرادُ اللَّه بالعبادة - بأَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وحدَه مُخْلِصاً له الدِّين، فلا تَصْرِفْ أيَّ نَوْعٍ من أنواع العبادة إلَّا لِلَّهِ وحده -، فمَنْ فَعَلَ ذلك فهو المسلمُ الحنيفُ المُقْتَفِي أثرَ المرسلين.

والحنيفُ: مشتقٌّ من الحَنَفِ، وهو المَيْل، فالحنيفُ: هو المَائلُ عن الشِّركِ قصداً إلى التَّوحيد، المستقيمُ المُسْتَمْسكُ بالإسلام، المُقبِلُ على اللَّه، المُعرِضُ عن كلِّ ما سواه، وكلُّ مَنْ كانَ على دينِ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهو حَنِيف، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالدِّينُ الحَنِيفُ هو: الإقبالُ على اللَّهِ وحده،

(١) كتاب الذِّكر والدُّعاء، باب التَّعوُّذ من شرِّ ما عمل ومن شرِّ ما لم يعمل، رقم (٢٧٢٥)، من حديث عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

- مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ -: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ،

والإعراضُ عمَّا سواه»(١).

مِلَّة جميع المرسلين

(مِلَّةَ) إمام الحُنَفَاء **(إِبْرَاهِيمَ)** عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهي أيضاً مِلَّة ودين جميع المرسلين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولَم يَأْتِ نَبيٌّ بعدَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلَّا من نَسْلِه، لذا قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ فهو أبُو الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ودينُ جميعِ الأنبياء هو الإسلام، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾، وكلُّ دينٍ سوى الإسلام فهو باطل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

حقيقةُ دِين الحُنَفاء

والحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هي: **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ)** وتُوَحِّدَه **(وَحْدَهُ)** دون ما سواه **(مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)** أي: مُفْرِداً له العبادة، ومُتَبَرِّءاً من عبادة مَنْ سِواه ومُعْتَقِداً بطلانها، وبذلك أَمَرَ الأنبياء، قال اللَّهُ لِنَبيِّنا محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وأَمَرَ به جميعَ النَّاس، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٩).

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وَمَعْنَى «يَعْبُدُونِ»: يُوَحِّدُونِ.

صلاح النَّفس بالتَّوحيد

ولَا صلاحَ لِلنَّفسِ في دنياها وآخرتها إلَّا بالتَّوحيد والإخلاص، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولَا أنفع للقلب من التَّوحيد وإخلاص الدِّين للَّه، ولا أضرَّ عليه من الإشراك»[(١)].

(وَبِذَلِكَ) أي: بالعبادة الخالصة لِلَّه **(أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ)** من ذكرٍ وأنثى **(وَخَلَقَهُمْ لَهَا)** أي: للحنيفيَّة ملَّةِ إبراهيم، وهي الأمر بإخلاص العبادة للَّه وحده، **(كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾)** أي: إنما خلقتُهم لآمُرَهم بعبادتي، لَا لٱحتياجي إليهم، **(وَمَعْنَى «يَعْبُدُونِ»)** أي: **(يُوَحِّدُونِ)** بأَنْ يُوَحِّدوا اللَّهَ ويُفرِدُوه في جميع العبادات وفي قصدِ القلب بها.

صلاح القلب في الإخلاص للَّه

والقلبُ لا يصلح ولا يفلح ولا يطيب ولا يطمئنُّ إلا بالإخلاص في عبادةِ اللَّه، ولو حصل له كلُّ ما تتلذَّذ به المخلوقات، وإذا قَوِيَ إخلاصُ دينِ العبد لِلَّه كَملت عبوديَّتُه وٱستغناؤُه عن الخلق، وعبادتُه سبحانه تكون بطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَنْ تدبَّر أحوالَ العالَم، وجدَ كلَّ صلاحٍ في الأرض فسببُه توحيدُ اللَّه وعبادتُه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٥٢).

. . . .

وطاعةُ رسوله ﷺ، وكلَّ شرٍّ في العالَم وفتنةٍ وبلاءٍ وقَحْطٍ وتَسْليطِ عدوٍّ وغير ذلك فسببُه مُخالَفةُ الرَّسول ﷺ والدَّعوةُ إلى غير اللَّه، ومَنْ تدبَّر هذا حقَّ التَّدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصَّة نفسِه، وفي غيره عموماً وخصوصاً»[1]، ولن يستغنيَ القلبُ عن الخلق إلَّا بأَنْ يكونَ اللَّهُ هو مولاه، فلا يَعْبُدُ إلا إيَّاه، ولا يَسْتَعِينُ إلَّا به، ولا يَتَوَكَّلُ إلَّا عليه. ❋

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٥).

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ، ....

التَّوحيد أعظم الفروض علماً وعملاً

(وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ) في كتابه، وأعظمُ ما أَمَرَتْ به الرُّسلُ أُمَمَهم هو: (التَّوْحِيدُ) بإفرادِ اللَّهِ وحدَه بالعبادة مخلصاً له الدِّين، وهو أعظمُ فريضةٍ فَرَضَها اللَّهُ على العباد، علماً وعملاً، ولِأجلِه أُرْسِلَت الرُّسل، وأُنْزِلَت الكتب، وبه تُكفَّر الذُّنوب، ولأَجلِه خُلِقتِ الجنَّة، وبه النَّجاة من النَّار، ومَنْ لم يَمْتَثلْ لهذا الأمرِ العظيم فجميعُ أعماله لا تُقْبَلُ عند اللَّه، قال سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾.

أهمِّيَّة التَّوحيد

ولأهمِّيَّةِ التَّوحيد جاء القرآنُ كلُّه مُتضمِّناً له، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «غالبُ سُوَرِ القرآن، بل كلُّ سُورَةٍ في القرآن، فهي مُتضمِّنةٌ لِنَوْعَي التَّوحيد، بل نَقُولُ قولاً كُليّاً: إنَّ كلَّ آيةٍ في القرآن فهي مُتضمِّنةٌ للتَّوحيدِ شاهدةٌ به، داعيةٌ إليه.

القرآنُ كلُّه في التَّوحيد

فإنَّ القرآنَ إمَّا خبرٌ عن اللَّهِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعاله؛ فهو التَّوحيدُ العِلْميُّ الخَبَرِيُّ.

وإمَّا دعوةٌ إلى عبادتِه وحده لا شريك له وخلع كلِّ ما يعبد من دونه؛ فهو التَّوحيدُ الإِراديُّ الطَّلَبيُّ.

وإمَّا أمرٌ ونَهْيٌ وإلزامٌ بطاعتِه في نهيِه وأَمرِه؛ فهي حُقوقُ التَّوحيد ومكملاته.

وإمَّا خبرٌ عن كرامةِ اللَّه لأهلِ توحيده وطاعته، وما فعل

. . . .

بهم في الدُّنيا، وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاءُ توحيدِه.

وإمَّا خبرٌ عن أهل الشِّرك، وما فَعلَ بهم في الدُّنيا من النَّكال، وما يَحِلُّ بهم في العُقْبَى من العذاب؛ فهو خبرٌ عمَّن خَرَجَ عن حُكْمِ التَّوحيد.

فالقرآنُ كلُّه في التَّوحيدِ وحقوقِه وجزائِه، وفي شأنِ الشِّركِ وأهلِه وجزائِهم، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ توحيد، ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد»[١].

والتَّوحيدُ هو الأصل الَّذي يُبْنَى عليه الدِّينُ كلُّه، وهو أعظمُ سبب لٱنشراح الصَّدر، وهو مَلْجَأ الطَّالبين، ومفزع الهاربين، ونَجَاةُ المكروبين، وغياث المَلْهُوفِين، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا دُفِعَتْ شدائدُ الدُّنيا بِمِثْلِ التَّوحيد، ولذلك كان دعاءُ الكرب بالتَّوحيد، ودعوةُ ذِي النُّون الَّتي مَا دَعَا بها مَكْرُوبٌ إلا فَرَّج اللَّهُ كربه بالتَّوحيد، فلا يُلْقِي في الكُرَبِ العِظَام إلَّا الشِّرك، ولا يُنْجِي منها إلَّا التَّوحيد، فهو مفزعُ الخليقة ومَلْجَؤُها وحِصْنُها وغياثُها»[٢].

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٤٩).

(٢) الفوائد (ص٩٥).

وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالعِبَادَةِ.

الخصومة في توحيد الألوهيَّة

والتَّوحيدُ الذي وَقعَ فيه النِّزاعُ بين الرُّسل وأقوامهم هو: توحيدُ الألوهيَّة، (وَ) تعريفُه: (هُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالعِبَادَةِ) كالدُّعاءِ والذَّبحِ والنَّذر؛ فلا يُصرَف أيَّ نوعٍ من أنواعها لغير اللَّه.

أقسام التَّوحيد

والتَّوحيدُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - توحيد الرُّبوبيَّة؛ وهو إفرادُ اللَّه بأفعاله.

٢ - توحيد الألوهيَّة؛ وهو إفرادُ اللَّه بأفعال العباد.

٣ - توحيد الأسماء والصِّفات؛ وهو أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بما وصف به نفسَه في كتابه، وبما وَصَفَهُ به رسولُه ﷺ، من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ.

ومَنْ حقَّق التَّوحيدَ بأقسامه الثَّلاثة؛ فهو الموحِّدُ حقّاً. ❋

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ، ....

أعظمُ ذنبٍ في الأرض

(وَ) على العبدِ أَنْ يعلمَ أَشدَّ ما نهى اللَّهُ عنه؛ فنبَّه المُصنِّف ﵀ على ذلك بقوله: (أَعْظَمُ مَا نَهَى) اللَّهُ (عَنْهُ) في كتابه، وأعظمُ ما نَهَتْ عنه الرُّسلُ هو: (الشِّرْكُ) وهو صَرْفُ شيءٍ من أنواع العبادة لغير اللَّه.

والشِّركُ باللَّه أعظمُ من قتلِ النَّفس ومن قطعِ الطَّريق والسَّرقة، وهو أعظمُ الفساد في الأرض، ولا نجاةَ للعباد إلا بتوحيدِ اللَّه وإفرادِه بالعبادة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية ﵀: «وبالجملة: فالشِّركُ والدَّعوةُ إلى غير اللَّه، وإقامةُ معبودٍ غيره، أو مُطاعٍ مُتَّبَعٍ غير الرَّسولِ ﷺ؛ هو أعظمُ الفساد في الأرض، ولا صلاحَ لها ولأهلِها إلا أَنْ يكونَ اللَّهُ وحده هو المعبود، والدَّعوةُ له لا لغيره، والطَّاعةُ والاتِّباعُ لرسولِ اللَّهِ ﷺ»[1].

وأعظمُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّه به: الشِّرك، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وسُئِلَ النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ» متفق عليه[2]، وقال

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٤).

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، رقم (٦٠٠١)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشِّرك أقبح الذُّنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﵁.

وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ.

النَّبيُّ ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ» متفق عليه[1].

قبائح الشِّرك

والشِّركُ هَضْمٌ للرُّبوبيّة، وتَنَقُّصٌ للألوهيَّة، وسُوءُ ظنٍّ بربِّ العالَمين، وهو أقبحُ المعاصي؛ لأنَّه تَسْوِيةٌ للمخلوق النَّاقص بالخالق الكامل في صفاته جَلَّ وَعَلَا.

ومَنْ أَشركَ في توحيد الألوهيَّة فهو مُشْرِكٌ وإِنْ أقرَّ بتوحيد الرُّبوبيَّة، فلَوْ فُرِضَ أنَّ رجلاً يُقِرُّ إقراراً كاملاً بتوحيد الرُّبوبيَّة؛ ولكنَّه يذهبُ إلى القبر فيدعو صاحبَه من دون اللَّه، أو ينذر له قرباناً يتقرَّب به إليه؛ فإنَّ هذا قد وقع في الشِّرك الأكبر.

تعريف الشِّرك

(وَ) تعريفُ الشِّرك (هُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ)، أي: دعوةُ غيرِ اللَّه معه سبحانه، بأَنْ يطلبَ مع اللَّه غيره، أو يَسْألَ مع اللَّه آخَر، أو يجعلَ أَحداً واسطةً بينه وبين اللَّه - مِنْ قبرٍ أو وَلِيٍّ - بالدُّعاءِ أو الاستعانة والتَّوجُّه إليه، وغير ذلك من أنواع العبادة، وإنْ شِئْتَ قلتَ: الشِّركُ: هو مُسَاوَاةُ غيرِ اللَّهِ بِاللَّه فيما هو مِنْ خصائصِ اللَّه.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم (٥٩٧٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (٨٧)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

عاقبة الشِّرك

ومَنْ مات على الشِّرك؛ ٱستحقَّ دخول النَّار، وحُرِمَ دخول الجنَّة، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدّاً؛ دَخَلَ النَّارَ» رواه البخاري[1].

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ أعظمَ ما أمرَ اللَّهُ به التَّوحيد، وأنَّ أعظمَ ما نَهَى اللَّهُ عنه هو الشِّرك؛ **(قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾)** أي: أَفْرِدُوهُ ﷻ بالعبادة، **(﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾)** فلا تَجْعلوا معه أنداداً ولا نُظَراء ولا أشباه لا في قليل الشِّرك ولا في كثيره، وٱحذروا الشِّركَ وغَوَائِلَه وأسبابه.

أوجب الواجبات، وأعظم المحرمات

فعلى العبد أَنْ يُحقِّقَ الإيمانَ به سبحانه، وأَنْ يَكْفُرَ بضدِّه من الأنداد والشُّركاء، فأوَّلُ أَمرٍ أُمِر به العباد: الأمرُ بعبادته وتوحيدُه، وأوَّلُ نهيٍ هو: النَّهيُ عن ضدِّه، ثم أَعْقَبَ تعالى ببقيَّة الواجبات فقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٤٩٧)، من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

وتصديرُ الآية بالتَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك؛ يدلُّ على عظمة التَّوحيد وقُبحِ الشِّرك. *

* **فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟**

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ،

الأصول الثَّلاثة الواجب معرفتها، والعمل بها

يجبُ على كلِّ مُكَلَّفٍ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثى، أَنْ يَعْرِفَ ثلاثةَ أصولٍ عظيمة، هي أوَّلُ ما يُسْأَلُ عنها العبدُ في قبره، فإِنْ ثَبَتَ عند السُّؤال؛ كان من النَّاجين، وإِنْ ضَلَّ عن جوابِ تلكَ الأصول؛ كان من الهالكين.

(فَإِذَا)[1] سُئِلْتَ عنها و(قِيلَ لَكَ: مَا) هيَ (الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ) المُكَلَّفِ (مَعْرِفَتُهَا) والعملُ بمقتضاها؟

أهمِّيَة معرفة اللَّه

(فَقُلْ) له: **الأصلُ الأوَّلُ**: (مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ) وهذا أصلُ الأصول، لِتَعْبُدَه على بصيرة ويقين، فتعرفه سبحانه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، من وحدانيَّته وأفعاله وأسمائه وصفاته.

أهمِّيَة معرفة الدِّين

(وَ) قُلْ له: **الأصلُ الثَّاني**: معرفةُ العبد (دِينَهُ) الَّذي تُعُبِّدْنَا به، وهو: ما أَمَرَنَا اللَّهُ به وما نَهَانَا عنه.

(١) هذه بداية رسالة «ثَلَاثَةِ الأُصُولِ»، وما سبقها هي رسائلُ مُتفرِّقة للشَّيخ محمَّدِ بن عبد الوهَّاب ﵀، وَضَعَهَا بعضُ تَلامِذَتِه قبلَ «ثَلَاثَةِ الأُصُولِ» كَالتَّقْدِمَة لها، كما حدَّثني بذلك الوالدُ والشَّيخُ صالح ٱبن غصون ﵄.

وَنَبِيِّهُ مُحَمَّداً ﷺ.

أهمِّيَّة معرفة النَّبيِّ ﷺ

(وَ) قُلْ له: **الأصلُ الثَّالثُ** الواجبُ علينا معرفتُه هو: معرفةُ العبد (نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ)، فإنَّه الواسطةُ بيننا وبين اللَّه في تبليغ الرِّسالة، ولا طريقَ لنا إلى ما تَعَبَّدَنَا به سبحانه إلَّا بما جاء به النَّبيُّ ﷺ.

فائدة إجمال الأصول الثَّلاثة

وذكر المُصنِّف رحمه الله هذه الأصول الثَّلاثة مُجْمَلَة، ثم ذكرها بَعْدُ مفصَّلَةً أصلاً أصلاً، تتميماً للفائدة، وتنشيطاً للقارئ، فإنَّه إذا عَرَفَها مجملة وعرف ألفاظها وأتقنها؛ بقي متشوِّفاً إلى معرفة معانيها.

أهمِّيَّة الأصول الثَّلاثة

وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ تَجْمَعُ الدِّين كلَّه؛ مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ ومَنْ هو نَبِيُّك؟ وهي الَّتي يُسأل عنها العبدُ في قبره، ومعرفتها فقط دون اعتقادها والعمل بما دلَّت عليه لا تنجي العبد من العذاب، وإنما ينجيه معرفتها واعتقادها مع العمل بما دلَّت عليه، ولا يثبت الإنسان عند السؤال في قبره إلا بذلك.

وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ وَرَدَ ذِكْرُهَا مُجْتَمِعَةً في حديث العبَّاس بن عبد المطَّلب رضي الله عنه أنَّه سَمِعَ الرَّسولَ ﷺ يقول: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِالإِسْلَامِ دِيناً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً» رواه مسلم(١).

(١) كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي باللَّه رَبّاً، رقم (٣٤).

. . . .

ومن رضي بهذه الأصولِ الثَّلاثةِ وقَالَهَا عن يقينٍ بعد قولِ المؤذن: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ»؛ غُفِرَ له ما تَقَدَّم مِنْ ذنبِه، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبّاً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلَامِ دِيناً؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ» رواه مسلم[١].

قال الشَّيخُ عبد اللَّطيف[٢] بن عبد الرَّحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرِّضا بهذه الأصولِ الثَّلاثة قُطْبُ رَحَى الدِّين، وعليه تَدُورُ حقائق العلم واليقين»[٣]. ❊

(١) كتاب الصَّلاة، بابُ القولِ مثل قولِ المُؤذِّنِ لمَنْ سمعَهُ، ثمَّ يصلي على النَّبيِّ ﷺ ثمَّ يسأل له الوسيلة، رقم (٣٨٦)، من حديث سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) هو جَدُّ سماحة الشَّيخ مُحمَّد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

(٣) الدرر السَّنِيَّة (٨/ ٣٥٥).

[الأَصْلُ الأَوَّلُ]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، . . . .

الأصل الأول: معرفةُ العبد ربَّه

ثمَّ شَرَعَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفصيلِ هذه الأُصولِ الثَّلاثةِ أصلاً أصلاً، الأَصْلُ الأَوَّلُ: معرفةُ العبد ربَّه، فقال لك:

(فَإِذَا) سُئِلْتَ و(قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟)، أي: مَنْ معبُودُك وخالقُك ورازقُك الَّذي ليس لك معبود سواه؟

(فَقُلْ) له: (رَبِّي) ومعبودي هو (اللَّهُ) لا أَعْبُدُ إلا إيَّاه، ولا أَصْرِفُ شيئاً من أنواع العبادة لغيره، فلَا أَرْكَعُ، ولا أَنْحَرُ، ولا أَنْذرُ، ولا أَطُوفُ؛ إلا لِلَّه.

كيف أَكْفرُ به وأَعْبُدُ غيرَه؟! وهو (الَّذِي) أَوْجَدَنِي من العَدَم، و(رَبَّانِي) بالنِّعَم الظَّاهرة والباطنة، وفرَّج كُرُوبي، وأَغْدَقَ علَيَّ النِّعم، وأَسْبَغَ علَيَّ الخيرات، قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

بل (وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ)، وأَغْدَقَ عليهم جزيل آلائِه، قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرَّبُّ هو: المُرَبِّي الخالقُ

وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. . . . .

الرَّازقُ النَّاصرُ الهادي، وهذا الاسمُ أحقُّ باسمِ الاستِعانة والمَسْألة»[1].

وقد مضى على الإنسان زمنٌ طويلٌ من العصور والدُّهور لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: موجوداً، بل كان معدوماً غير موجود، ثمَّ أَوْجَدَهُ اللَّهُ من العَدَم، ورَزَقَه النِّعَم؛ لِيَعْبُدَه وحده.

(وَهُوَ مَعْبُودِي) الَّذي أَصْرِفُ إليه جميع أنواعِ العبادة، و(لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ) أَتذلَّلُ له أو أَصْرِفُ له شيئاً من العبادات، فَكَفَى بربِّي معبوداً فهو المستحقُّ للعبادة.

دليل الأصل الأوَّل

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ اللَّهَ هو الرَّبُّ المُنْعِمُ وحده؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى) في أوَّلِ آيةٍ في كتابِه العظيم: (﴿ٱلْحَمْدُ﴾) وهو الثَّناءُ على المَحْمُودِ مع حُبِّه وإجلالِه وتعظيمِه، والألفُ واللَّامُ في ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ لِلاسْتِغْرَاق؛ أي: جميعُ المَحَامِدِ (﴿لِلَّهِ﴾) المَأْلُوهِ المَعبودِ بحقٍّ، فجميعُ المَحَامِدِ له لا لغيرِه، (﴿رَبِّ﴾) وخالقِ ورازقِ ومالكِ ومُدَبِّرِ جميعِ (﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾) من إنسٍ وجنٍّ وملائكةٍ وغيرِهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٣).

وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ.

(**وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ**) ممَّا فِي الكونِ - من الجنِّ والإنس، والجبال، والأشجار -، فهو (**عَالَمٌ**)، واللَّهُ هو الخالق، وسُمِّيَ العالَم عالَماً؛ لأنَّه علامةٌ على خالقِه ومُوجِدِه ومالكِه.

(**وَأَنَا**) وأنتَ وجميعُ الخلق (**وَاحِدٌ مِنْ**) جُمْلةِ (**ذَلِكَ العَالَمِ**) وتلك المخلوقات العظيمة، وكلُّنا مُحْتَاجُون إلى اللَّهِ في قضاءِ حَاجَاتِنَا وتفريجِ كُرُبَاتِنا، فهو المُتَفرِّد بالخلقِ والرِّزقِ والتَّدبير، وهو المستحقُّ بأن يُعبَدَ وحدَه دون من سواه، وهذا مدلول كلمة الإخلاص. *

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟
فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

دلائل معرفة اللَّه: الآيات، والمخلوقات

(فَإِذَا) سُئِلْتَ و(قِيلَ لَكَ: بِمَ) أي: بأيِّ شيءٍ (عَرَفْتَ) به (رَبَّكَ؟) وخَالِقَكَ الَّذي تَعْبُدُه؟

(فَقُلْ) له: عَرَفْتُهُ (بِآيَاتِهِ) أي: علاماتِه ودلائلِه الَّتي نَصَبَهَا دلالةً على وحدانيَّتِه وتَفَرُّدِه بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة.

دلالة الآيات والمخلوقات على وحدانيَّة اللَّه تعالى

(وَ) عَرَفْتُهُ بـ(مَخْلُوقَاتِهِ) الباهرة التي أَوْجَدَهَا بَعْدَ العَدَم، وجعلَها دالَّةً عليه؛ فكلُّ شيءٍ في الكون - وإِنْ دَقَّ - فهو دالٌّ على وحدانيَّته:

تَـأَمَّـلْ سُـطُـورَ الـكَـائِـنَـاتِ فَـإِنَّـهَـا
مِـنَ الـمَـلِـكِ الأَعْـلَـى إِلَـيْـكَ رَسَـائِـلُ
وَقَـدْ خَـطَّ فِـيـهَـا لَـوْ تَـأَمَّـلْـتَ خَـطَّـهَـا
أَلَا كُـلُّ شَـيْءٍ مَـا خَـلَا الـلَّـهَ بَـاطِـلُ[(١)]

والتَّفكُّر في الكون يزيدُ الإيمان ويعلِّقُ القلبَ باللَّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأحسنُ ما أُنْفِقَتْ فيه الأنفاس: التَّفكُّرُ في آيات اللَّهِ وعجائبِ صُنْعِه، والٱنتقالُ منها إلى تَعلُّق القلب والهِمَّة به دون شيءٍ من مخلوقاته»[(٢)].

(١) يُنظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٥٦).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٢١).

وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالقَمَرُ.

من أعظم آيات اللَّه الكونيَّة المشاهَدَة بالأبصار

(وَمِنْ) أعظمِ **(آيَاتِهِ)** المشاهَدَةِ بالأبصارِ الدَّالةِ على وحدانيَّتِه: **(اللَّيْلُ)** إذا أقْبلَ، **(وَالنَّهَارُ)** إذا أدْبَر، وعدمُ اجتماعهما في زمنٍ واحد؛ بل كلٌّ منهما يطلب الآخر طلباً سريعاً لا يَفْصِلُ بينهما شيء، هذا يُقْبِل وذاك يُدْبِر، وهما يتعاقبان علينا تسخيراً لنا.

(وَ) مِنَ الآياتِ الباهراتِ الدَّالةِ على وحدانيَّة اللَّهِ وتَدْبِيره: **(الشَّمْسُ)** المُشْرِقة، وهي سراج الكون، **(وَالقَمَرُ)** المُضِيء في الدَّهماء، آيتان تجريان على مَسَارٍ دَقيقٍ لم يَرَ الخلق له نظير، هذه تشرق وذاك يغرب، ووقفوا أمام سيرهما مُنْدَهِشِينَ، جَرْيٌ مُنَظَّم، وسَيْرٌ مُتْقَن، لا يَتَقَدَّم ولا يَتَأَخَّر، ولا يُدْرِكُ أحدهما الآخر، قال اللَّهُ سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ولا يَتَغَيَّرُ مَسَارُ أحدِهما إلى غيرِ ما قدَّرَ اللَّه ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وهذه الشَّمسُ على كِبَرِ حَجْمِها إذا غَرَبَتْ تَسْجُدُ تحت العرش، قال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟! قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحتَ العَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ،

لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾» رواه البخاريُّ[١]، وتَسْتَأْذِنُ ربَّها في الإشراق مرَّةً أخرى، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «دَخَلْتُ المَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ! هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ؟! قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ تَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا: ٱرْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا» رواه البخاريُّ[٢].

وفي الآخرةِ تُكَوَّرُ وتُجَمَّعُ، قال ٱبن جرير الطَّبريُّ رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ -: «أي: جُمِعَ بعضُها إلى بعض، ثمَّ لُفَّتْ فَرُمِيَ بها، وإذا فُعِلَ بها ذلك ذَهَبَ ضَوْؤُها»[٣].

من أعظم مخلوقات الله تعالى

(وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ) العظيمة: (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) الواسعة المرتفعة، (وَمَنْ فِيهِنَّ) من الكواكب الزَّاهرات، والآياتِ الباهرات.

---

(١) كتاب تفسير القرآن، بَابُ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، رقم (٤٨٠٢).

(٢) كتاب التوحيد، بَابُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، رقم (٧٤٢٤)، من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(٣) تفسير الطبري (٣٠/ ٦٥).

وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

(وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ) وٱمتدادُها، وسَعَة أرجائِهَا، وتقدير أقواتها.

(وَمَنْ فِيهِنَّ) من الجبال والبحار، وأصناف المخلوقات من الحيوانات والنَّباتات، وسائر الموجودات.

(وَمَا بَيْنَهُمَا) أي: ما بين السَّموات والأرض من الهواء وغيره، وما بَدَا لهم من سيرهم من مَوْطِنٍ إلى مَوْطِنٍ في جوِّ السَّماء، وما ظَهَرَ لهم من منافع من نقل ما يتحدَّثون به وهم في بلدٍ وغيرهم في بلدٍ آخر، فسبحان اللَّهِ ربِّ العرش العظيم.

فحريٌّ بكلِّ مسلمٍ التَّفكُّر في آياتِ اللَّهِ ومخلوقاتِه، قال ٱبن جُزَيٍّ المالكيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّفكُّر هو يَنْبُوعُ كلِّ حالٍ ومقام، فمَنْ تَفكَّر في عظمة اللَّه ٱكْتَسَبَ التَّعظيم، ومَنْ تفكَّر في قدرتِه ٱسْتَفَادَ التَّوكُّل، ومَنْ تفكَّر في عذابِه ٱسْتَفَادَ الخوف، ومَنْ تفكَّر في رحمتِه ٱسْتَفَادَ الرجاء، ومَنْ تفكَّر في الموت وما بعده ٱسْتَفَادَ قصر الأمل، ومَنْ تفكَّر في ذنوبِه ٱشْتَدَّ خوفه وصغرت عنده نفسه»[١]. *

---

(١) القوانين الفقهية (ص٢٨٤).

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الدَّليل على بعض آيات اللَّه تعالى

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقمرَ من آيات اللَّه؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾) الدَّالةِ على كمال قدرته، ووحدانيَّته، ونُفُوذِ مشيئته، وسعةِ سلطانه، ورحمتِه بعباده: (﴿ٱلَّيْلُ﴾) بمنفعة ظلمته، وسُكُونِ الخَلْق فيه، (﴿وَٱلنَّهَارُ﴾) بمنفعة ضيائه، وتصرُّف العباد فيه، (﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾) اللَّذان لا تستقيم معايش العباد إلا بهما.

(﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾) فإنَّهما مُدَبَّران مُسَخَّران مخلوقان، لا يستحقَّان السُّجود لهما.

(﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾) لا لغيره، ووَحِّدُوه، فهو (﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾)، فإنهما وإنْ كَبُرَ حَجمُهما فإنَّ ذلك ليس منهما، وإنَّما هو مِنْ خالقِهما.

(﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾) وحده ﷻ (﴿تَعْبُدُونَ﴾) فخصُّوه بالعبادة وإخلاصِ الدِّين.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ . . . . .

دليل المخلوقات

(وَ) الدَّليل على أنَّ السَّمواتِ السَّبع، والأرضينَ السَّبع، من مخلوقات اللَّه الدَّالة عليه ﷻ؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾) ومَنْ فيهنَّ، وأَتْقَنَ خلْقَهُما، وأَحْكَمَ بنيانَهُما (﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾) أوَّلُها يوم الأحد، وآخِرُها يوم الجمعة، (﴿ثُمَّ﴾) لمَّا قضاها وأَوْدَعَ فيها مِنْ أمرِه ما أَوْدَع (﴿ٱسْتَوَىٰ﴾) ﷻ (﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾) العظيم الذي وَسِعَ السَّموات والأرض وما فيهما وما بينهما، ٱستواءً يليق بجلاله وعظمته.

وهو سبحانه (﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ﴾) أي: يجعل اللَّيلَ المُظْلِمَ يُغَطِّي (﴿ٱلنَّهَارَ﴾) المضيء، فيَعُمُّ الظَّلامُ وجه الأرض ويبقى كلُّ مَنْ عليها في ظلام، ويسكنُ الآدميُّون، وتَأْوِي المخلوقات إلى مساكنها.

(﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾) أي: سريعاً، كلَّما جاء اللَّيل ذَهَبَ النَّهار، وكلَّما جاء النَّهار ذَهَبَ اللَّيل، طلباً لا فُتُورَ فيه ولا تأخير، حتى يَطْوِيَ اللَّهُ هذا العالَم ويَنْتَقِلَ العبادُ إلى دار القرار.

(﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾) الثَّابتة والسَّائرة (﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾) وتدبيره، وعلمه وحكمته.

أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

تفرُّد اللَّه بالخلق والأمر

(﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾)؟ بلى، إنَّ له الخلق الَّذي صدرت عنه جميع المخلوقات، ويتضمَّنُ أحكامَه الكونيَّة القَدَرِيَّة.

(﴿وَ﴾) أَلَا لهُ (﴿ٱلْأَمْرُۗ﴾)؟ بلى، إنَّ له الأمرَ المُتضمِّنَ للشَّرائع والنُّبوَّات، وهذا يتضمَّن جميع أحكامِه الدِّينيَّة الشَّرعيَّة.

(﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾) أي: بَلَغَ في البركة النِّهاية، وهي صيغةٌ لا تَصْلُحُ إلا لِلَّه، فهو سبحانه عَظُم وتَعَالَى وكَثُرَ خيرُه، فتبارك في نفسه؛ لِعَظَمَةِ أوصافِه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل، والبر الكثير، وهو سبحانه (﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾) المُنعِم عليهم بخيراته، وسَابغ فضله. *

وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ....

الرَّبُّ هو المعبود

(وَالرَّبُّ) الخالقُ لتلك المخلوقات العظيمة - من السَّموات السَّبع، ومَنْ فيهن وما بينهما - هو المالكُ المُتصرِّف، المُتَّصفُ بصفات الكمال، و(هُوَ المَعْبُودُ) المُستحقُّ للعبادة وحده دون من سواه، وما سواه مخلوقٌ مَربوبٌ ضعيفٌ لا يَمْلِكُ لنفسه نفعاً ولا ضرّاً.

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ الرَّبَّ هو المعبودُ وحده؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) من ذكرٍ وأنثى (﴿ٱعْبُدُوا۟﴾) ووحِّدُوا (﴿رَبَّكُمُ﴾) فهو المُنْعِم عليكم بالنِّعم الظَّاهرة والباطنة، وهو (﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾) وأَوْجَدَكُمْ من العَدَم، (﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾) كذلك خلقهم اللَّهُ بعد أنْ لم يكونوا شيئاً، وذكَّرَكُمُ اللَّهُ بهذه النِّعمة العظيمة (﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾) خالقَكُم، وتَأْتَمِرُونَ بأوامره، وتَجْتَنِبون نواهيه.

من أفعال الرَّبِّ تعالى

فهو (﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾) بِساطاً مُمَهَّداً لكم تَسْتَقِرُّونَ عليها، وتَقْضُونَ عليها معايشكم.

(﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾) جَعَلَها (﴿بِنَآءً﴾) لكم، وقُبَّةً مَضْرُوبَةً عليكم، وسَقْفاً محفوظاً مُزَيَّناً بالمَصَابيح والعلامات الَّتي تَهْتَدُون بها في

وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ظلمات البَرِّ والبحر، أرضٌ تُقِلُّكُمْ، وسماءٌ تُظِلُّكم، لا غنى لكم عن إحداهما.

(﴿وَأَنزَلَ مِنَ﴾) (﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾) السَّحابِ الَّذي في عَذْباً مباركاً، (﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾) المتنوِّعة من نخيلٍ وفواكهَ وزروعٍ وغيرها (﴿رِزْقًا﴾) طيِّباً (﴿لَّكُمْۖ﴾) لِتَسْتَمْتِعُوا بالطَّيِّبات، وتَسْتَعِينُوا بها على طاعة اللَّه.

ومَنْ كانت هذه نِعَمُه فهو المستحقُّ أن يُعْبَدَ وحده، فاشكُرُوا نِعَمَه، ومِن شُكْرِهَا: (﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾) وشركاءَ ونظائرَ معه في العبادة.

(﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾) بطلان ذلك وأنَّها لا تستحقُّ العبادة، فكيف تعبدون مع اللَّهِ آلهةً أخرى مع عِلْمِكُم ببطلانِ ذلك؟! وهذا أوضحُ دليلٍ عَقْلِيٍّ على وحدانيَّة اللَّه وبطلان الشِّرك.

تقرير الألوهيَّة بالرُّبوبيَّة، والاحتجاج بما أقرُّوا على ما أنكرُوا

وهذه الآيةُ جَمَعَتْ بين الأمر بعبادة اللَّه وحده، والنَّهي عن عبادة ما سواه، وقد احتجَّ عليهم تعالى في هذه الآية بما أَقَرُّوا به وعَلِمُوه من توحيد الرُّبوبيَّة، على ما جَحَدُوه وأَنْكَرُوه من توحيد الألوهيَّة، فإنَّه تعالى كثيراً ما يُقَرِّرُ في كتابه توحيد ألوهيَّته بتوحيد ربوبيَّته، فإنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّة هو الدَّليلُ الأوضح والبرهان الأعظم على توحيد الألوهيَّة.

قَالَ ٱبْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ، هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

مَنْ عَبَدَ مع اللَّه غيره فليس بعابد للَّه

وفِعْلُ العبادة من غير توحيدٍ ليست بعبادة، فمَنْ عَبَدَ اللَّهَ تارةً وأَشْرَكَ معه غيره فليس بِعَابِدٍ للَّه، يدل لذلك أَنَّ اللَّهَ سَمَّى الَّذين يُخْلِصُونَ له العبادة في الشَّدائد، وعند ركوب البحار وتَلَاطُم الأمواج يفزعون ويلجؤون إليه وحده، ويعرفون في كربتهم أَنَّ تلكَ الآلهة ليست شيئاً وأنَّها لا تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كلِّه سمَّاهم اللَّهُ مشركين، بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلِّيَّة، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

فالتَّوحيدُ لا يُسمَّى توحيداً إلا بإفراد اللَّهِ بجميع أنواع العبادات، فمَنْ أطاعَه في جميع ما أَمَرَهُ به منها، ولم يَصْرِفْ أيَّ شيء منها لغيره؛ فقد وحَّدَه، وإلا فلا.

مدلول تفرُّد اللَّه بالخلق

(قَالَ) الإمامُ أبو الفِدَاء، إسماعيلُ بنُ عمرَ (ٱبْنُ كَثِيرٍ)[١] - صاحبُ التَّفسير - (رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى) وأَسْكَنَهُ جنَّاته: («الخَالِقُ) المُوجِدُ (لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ) من العَدَم، من خلق الإنسان والأرض والسَّماء، وما فيهما من الخيرات والثِّمار (هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ»)[٢]، وغيره مخلوقٌ ضعيفٌ لا يستحقها، قال سبحانه:

(١) المتوفَّى: سنة أربع وسبعين وسبع مئة (٧٧٤هـ).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٨٨) ونصُّه: «ومضمونُه: أنَّه الخالقُ الرَّازقُ مالك الدَّار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يَسْتَحقُّ أَنْ يُعبَد وحده، ولا يُشْرَك به غيره».

. . . .

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ مَنْ يَمْلِكُ الضُّرَّ والنَّفعَ فإنَّه هو المعبودُ حقّاً، والمَعْبُودُ لا بدَّ وأَنْ يكونَ مالكاً للنَّفعِ والضُّرِّ، ولهذا أَنْكَر اللَّهُ تعالى على مَنْ عَبَدَ مِنْ دونه ما لا يملك ضرّاً ولا نفعاً»[1]. ❊

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١).

. . . .

فضل تنوُّع العبادات

ومِنْ فضلِ اللَّهِ على عباده أَنْ شَرَعَ لهم أنواعاً عديدة من العبادات يتقرَّبون بها إليه، والمرء لا يعلم بأيِّها يدخل الجنَّة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ تنوَّعَتْ أعمالُه المَرْضِيَّة المَحْبُوبة له في هذه الدَّار: تنوَّعَتِ الأقسامُ الَّتي يَتَلذَّذُ بها في تلك الدَّار، وتَكَثَّرَتْ له بِحَسبِ تَكَثُّرِ أعمالِه هنا، وكان مَزِيدُهُ بِتَنَوُّعِهَا والٱبتهاجِ بها والِٱلْتِذَاذِ هناك؛ على حسب مَزِيدِهِ من الأعمال وتَنَوُّعِه فيها في هذه الدَّار، وقد جعلَ اللَّهُ سبحانه لكلِّ عملٍ من الأعمال المَحْبُوبَةِ له والمَسْخُوطَةِ أَثَراً وجَزَاءً ولَذَّةً وأَلَماً يَخُصُّه، لا يُشْبِه أَثَرُ الآخَرِ وجزاءُه، ولهذا تَنَوَّعَتْ لَذَّاتُ أهلِ الجنَّة، وآلامُ أهلِ النَّار، وتَنوَّعَ ما فيهِمَا من الطَّيِّبات والعقوبات، فليست لذَّةُ مَنْ ضَرَبَ في كلِّ مَرْضَاة اللَّه بِسَهْمٍ وأَخَذَ منها بنصيب، كَلَذَّة مَنْ أَنْمَى سَهْمَه ونصيبَه في نوعٍ واحدٍ منها، ولا أَلَمُ مَنْ ضَرَبَ في كلِّ مَسْخُوطٍ لِلَّه بنصيبٍ وعقوبَتُه، كأَلَمِ مَنْ ضَرَبَ بِسَهْمٍ واحدٍ في مَسَاخِطِه»[(١)].

والعبدُ تَعْلُو درجتُه عند ربِّه إذا ٱزدادت عبوديَّته له، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كمالُ المخلوق في تحقيق عبوديَّته للَّه، وكلما ٱزداد العبد تحقيقاً للعبودية؛ ٱزداد كمالُه، وعَلَتْ درجتُه»[(٢)].

(١) ٱجتماع الجيوش الإسلامية (ص٧٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧٦).

وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا: - مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ؛ ....

ولمَّا بيَّن المُصنِّفُ أنَّ الواجبَ أَنْ نَعبُدَ اللَّهَ وحده ذَكَرَ شيئاً من أنواع العبادة، فقال: **(وَأَنْوَاعُ)** وأصنافُ **(العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا)** عبادَه وتعبَّدهم بها كثيرة جدّاً، ذَكَرَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ منها سبعة عشر مثالاً لأنواعها، فقال:

أجلُّ أنواع العبادات

(مِثْلُ: الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ)، وهذه الثَّلاثةُ أعلى مراتب الدِّين، وأهمُّ أنواع العبادة، لذلك بدأ المُصنِّف بها، فالإسلام بأركانه - من صلاة، وصيام - عبادة، وكذا الإيمان بأعماله الباطنة - كالإيمان باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيرِه وشرِّه، وكذلك الخوف والمحبَّة والرَّجاء، إلى غير ذلك -، فكلُّ ما يتعلَّقُ بالقلوب داخل في العبادة، بل هو أعلى أنواع العبادة وأعظمها.

ومرتبةُ الإسلام هي أوسع دوائر الدِّين، يليها مرتبةُ الإيمان، وهي أَضْيَقُ من دائرة الإسلام، ثم دائرة الإحسان وهي أَضْيَقُ تلك الدَّوائر، والدَّاخلون في دائرة الإحسان هم الأقلُّ من عباد اللَّه، وهي مرتبةٌ زاكيةٌ عاليةٌ لا يَنَالُهَا إلَّا مَنِ ٱصطفاهم اللَّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحوالُ القلوب وأعمالها - مثل: محبَّةِ اللَّه ورسوله ﷺ، وخشيةِ اللَّه، والتَّوكُّلِ عليه، والصَّبر على

وَمِنْهَا: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا - ....

حِكَمِه، والشُّكرِ له، والإنابةِ إليه، وإخلاصِ العمل له - ممَّا يتفاضل النَّاس فيه تفاضلاً، لا يَعرف قدرَه إلا اللَّهُ ﷻ»[1].

أنواعُ من العبادات

(وَمِنْهَا) أي: ومن أنواعِ العبادات أيضاً التي أَمَرَ اللَّهُ بها: (الدُّعَاءُ) وإنزالُ الحوائج به سبحانه، (وَالخَوْفُ) منه ﷻ، (وَالرَّجَاءُ) والطَّمع بما عند اللَّه، (وَالتَّوَكُّلُ) وتفويضُ الأمور إليه، (وَالرَّغْبَةُ) فيما عند اللَّه، (وَالرَّهْبَةُ) منه ﷻ، (وَالخُشُوعُ) لِلَّه، (وَالخَشْيَةُ) منه، (وَالإِنَابَةُ) إلى اللَّه والرُّجوع إليه، (وَالِاسْتِعَانَةُ) به سبحانه، (وَالِاسْتِعَاذَةُ) باللَّهِ من كلِّ شرٍّ، (وَالِاسْتِغَاثَةُ) به ﷻ من كلِّ كرب، (وَالذَّبْحُ) له وحده، (وَ) كذلك (النَّذْرُ) لا يكون إلَّا له وحده.

(وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ) المُتنوِّعة (الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا) كبرِّ الوَالِدَيْن، وصلةِ الأرحام، وإكرام الضَّيف، وحسن الخُلُق، وكلِّ ما يحبُّه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية ؒ: «العبادةُ: ٱسمٌ جامعٌ

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠٩).

. . . .

لكلِّ ما يُحِبُّه اللَّهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظَّاهرة»[١]، فالعبادةُ تشمل جميع أنواع الطَّاعات، وتتضمَّن كمال الحُبِّ، وكمال التَّعظيم، وكمال الرَّجاء والخشية، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العُبوديَّةُ تَجْمَعُ كمال الحبِّ، في كمالِ الذُّلِّ، وكمال الٱنقياد لمراضي المحبوب وأوامره، فهي الغايةُ التي ليس فوقها غاية»[٢]. ❊

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٤١).

كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئاً لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛

العبادة حقُّ اللَّه وحده

ثمَّ ذَكَرَ أنَّ جميعَ أنواع العبادة (**كُلُّهَا لِلَّهِ تَعَالَى**) لا يصلح منها شيء لغير اللَّه.

(**وَالدَّلِيلُ**) على ذلك؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾**) أي: أماكن الصَّلوات أو أعضاء السُّجود كلُّها مُلْكٌ (**﴿لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟﴾**) ولا تسجدوا بها لغيره، ولا تشركوا في الأرض (**﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾**) كائناً من كان، فإنَّ الأرض جميعَها مُلْكٌ لِلَّه وحده، فأفردوه فيها بالعبادة.

حكم مَنْ صرف أيِّ عبادة لغير اللَّه

(**فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا**) أي: من أنواع العبادة التي ذَكَرَها المُصنِّف أو غيرها، ولو (**شَيْئاً**) يسيراً (**لِغَيْرِ اللَّهِ**) مثل: لو دعا غيرَ اللَّه من الحاضرين فيما لا يَقْدِرُ عليه إلا اللَّه - أو من الأموات، أو الغائبين، أو الأصنام، أو الأشجار - أو رجاهم، أو خافهم، أو سألهم قضاء الحاجات، أو تفريج الكربات، أو غير ذلك (**فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ**) أي: الشِّرك الأكبر، والكفر المخرج عن المِلَّة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإنَّ المسلمين متَّفقُون على ما عَلِمُوه بالٱضطرار من دين الإسلام، أنَّ العبدَ لا يجوز له أن يَعْبُدَ ولا يَدْعُوَ ولا يَستغيثَ ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللَّه،

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ

وأنَّ مَنْ عَبَدَ مَلَكاً مقرَّباً، أو نبيّاً مُرْسَلاً، أو دَعاهُ، أو ٱستغاث به؛ فهو مشرك»[(١)].

الفرق بين الشِّرك والكفر

والفرق بين الشِّرك والكفر: أنَّ الكفرَ أعمُّ، فكلُّ مشركٍ كافرٌ ولا عكس، فمَنْ طاف على قبر، أو دعاه من دون اللَّه؛ فهو مشركٌ، ويُسمَّى كافراً، ومَنِ ٱستهزأ بشيءٍ من الدِّين؛ فهو كافرٌ ولا يُسمَّى مُشركاً؛ بل ٱستهزاؤُه كفر، وأمَّا في الآخرة فمآلُ الكافرِ والمُشركِ سواء، فكلاهما مخلَّدٌ في النَّار - والعياذ باللَّه -، قال تعالى - في حقِّ الكافر -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، وقال - في حقِّ المشرك -: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

الدَّليل على كفر مَنْ صرف شيئاً مِن العبادات لغير اللَّه

(**وَالدَّلِيلُ**) على أنَّ مَنْ صَرَفَ شيئاً من العبادة لِغَيْرِ اللَّهِ فهو مشركٌ كافرٌ؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَمَن يَدْعُ﴾) ومَنْ يَصْرِف أيَّ نوعٍ من أنواع العبادة لغير اللَّه كأَنْ يدعوَ (﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾) من الأموات، أو الأوثان، أو الأحجار، أو غيرها، (﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ﴾) أي: لا حجَّةَ ولا دليلَ له (﴿بِهِۦ﴾) أي: بتلك العبادة الَّتي أَشْرَكَ فيها مع اللَّه، وهذا القيدُ لا يُفْهَم منه أَنَّ هناك مَنْ يَعْبُدُ

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧٢).

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

غير اللَّه بحجَّةٍ وإنَّما أُتي به لِيُبيِّنَ لهم أنَّه لا حُجَّةَ لأحدٍ في دَعْوَى الشِّرك، فليست عبادتُهم عن دليلٍ إنَّما عن ضلالة وأهواء، لا عن هداية ووحي، فمَنْ فَعَلَ ذلك فقد توعَّدَه اللَّهُ بقوله: (﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾) وعقابه (﴿عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾) يوم القيامة بخلوده في النَّار.

(﴿إِنَّهُۥ﴾) أي: مَنْ أَشْرَكَ معه غيره (﴿لَا يُفْلِحُ﴾) لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، وأولئك هم (﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾) الخارجون عن مِلَّة الإسلام، وفي الآية أوضحُ برهانٍ على كفرِ مَنْ دعا مع اللَّه غيره، سواء كان المدعو مَلَكاً، أو نبيّاً، أو قبراً، أو غيرَ ذلك. ❊

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ». . . . .

ولما ذَكَرَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنواعاً من العبادة مجملة؛ شَرَعَ في ذِكْرِ أدلَّتِها، أما الإسلامُ والإيمانُ والإحسان؛ فسَيَذْكُرُ أدلَّتها مُفَصَّلَةً في الأصل الثَّاني.

الدَّعاءُ: عبادة

فبدأ بالدُّعاءِ الَّذي هو أصلُ العبادات وأساسُها، فقال: (وَفِي الحَدِيثِ) الَّذي يدلُّ على أَنَّ الدُّعاءَ من أنواع العبادة ما رواه التِّرمذيُّ[1] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: (الدُّعَاءُ) وسؤالُ اللَّهِ الحوائج (مُخُّ) أي: لُبُّ وخالصُ (العِبَادَةِ) التي أمر اللَّهُ بها الخلق، كما يفسِّرُه الحديث الآخر أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» رواه أبو داود[2]، فجعل الدُّعاءَ هو عينَ العبادة، ودعوةُ الرُّسل جاءت لتتوجَّه القلوبُ لسؤالِ اللَّه وحده.

ودعاءُ وسؤالُ غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلَّا اللَّه من أنواع الشِّرك الأكبر المُحْبِطِ لجميع الأعمال، جاء في الدُّرَر السَّنيَّة: «ٱتَّفق العلماءُ كلُّهم، على أَنَّ مَنْ جَعَلَ بينَهُ وبينَ اللَّهِ وَسَائِطَ يَدْعُوهُمْ، ويَتَوَكَّلُ عليهم، ويَسْأَلُهم؛ فقد كَفَرَ»[3].

---

(١) أبواب الدعاء، باب ما جاء في فضل الدُّعاء، رقم (٣٣٧١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) باب تفريع أبواب الوتر، باب الدُّعاء، رقم (١٤٧٩)، من حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) الدرر السَّنيَّة (١/ ١٩٦).

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

والدُّعاءُ من أكثر أنواع الشِّركِ وقوعاً بين الخلق، جاء في الدُّرَر السَّنيَّة: «مِنْ أعظمِ أنواعِه - أي: الشِّرك -، وأكثرِه وقوعاً في هذه الأزمان: طلبُ الحوائج من المَوْتَى، والاْستغاثة بهم، والتَّوجُّه إليهم، وهذا أصلُ شركِ العالَم، وهذا متفقٌ عليه أنَّه من الشِّركِ الأكبر»[1].

دليلٌ من القرآن على أنَّ الدُّعاء عبادة

(**وَالدَّلِيلُ**) على أنَّ الدُّعاءَ عبادة، وأنَّ صرفَه لغير اللَّه شرك؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾) وخالقكم (﴿ٱدْعُونِىٓ﴾) وأَنْزِلُوا بي حوائجكم (﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾) وأُعْطِكُم سُؤْلَكُم، (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾) ويعرضون (﴿عَنْ عِبَادَتِى﴾) ودُعائِي (﴿سَيَدْخُلُونَ﴾) نارَ (﴿جَهَنَّمَ﴾) والعياذ باللَّه (﴿دَاخِرِينَ﴾) ذليلين حَقِيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، عقوبة لهم على ما تركوه من عبادة اللَّه التي فرضها عليهم، والعاقلُ يَعلمُ أنَّ الكروبَ لا يكشفُها إلا اللَّه، لأنَّه القديرُ على كشفها، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

والمَخلوقُ لا يَصْلُح أَنْ يُدعى أو يُستَغاثَ به من دون اللَّه؛ لأنَّه عبدٌ ضعيفٌ يمرض ويموت، لا يملك لنفسه دفع ضرٍّ ولا

---

(١) الدرر السَّنيَّة (١/ ١٩٩).

. . . .

جلب نفع، فكيف يجلبها لغيره؟! قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾، فالْجأْ إلى اللَّه وحده، وأَنْزِلْ به حوائجك، وسَلْهُ يُعْطِك، واستغفره يَغْفِر لك، وادْعُه بقلبٍ خاشعٍ خاضعٍ يستجب لك، ومن أَنزلَ حوائجَه باللَّه والتجأ إليه، وتعلَّق قلبه بربِّه، وكَفَرَ بما يُعْبَدُ من دون اللَّه؛ فهو الموحِّد. ❊

. . . .

الخوفُ من اللَّه: عبادة

والخوفُ من اللَّه من أَجَلِّ العبادات القَلْبِيَّة، وهو فرضٌ على كلِّ أحد، وهو ركنُ العبادة الأعظم، ولا يستقيمُ إخلاصُ الدِّين لِلَّه إلَّا به.

والخوفُ: «هو تألُّمُ القلبِ وحَرَكتُه؛ بسبب توقُّع مكروهٍ في المستقبل»[١].

والخوفُ المحمود: ما حَجَزَكَ عن مَحَارِمِ اللَّه.

وهناك فرقٌ بينه وبين الوَجَلِ، والخشيةِ، والرَّهْبة، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوَجَل، والخوفُ، والخشيةُ، والرَّهبةُ، ألفاظٌ مُتَقَارِبَةٌ غيرُ مُتَرَادِفَة»[٢] أي: معانيها مختلفة.

الفرقُ بين الخوفِ والوَجَل

والفرقُ بين الخوفِ والوَجَل:

أنَّ الخوفَ: تألُّمُ القلب على شيءٍ يخاف منه في المستقبل، كرجلٍ يَخَافُ من مَجَاعَةٍ يتوقَّع أَنْ تُصِيبَه بعد شهر.

وأمَّا الوَجَل: فهو رَجَفَانُ القلب وحركتُه على شيءٍ مَخُوفٍ واقعٍ عليه الآن، كرجل رَأَى أسداً فَرَجَف قلبُه من مُشَاهَدَتِه، فرَجَفَانُ القلب حال المشاهدة يُسمَّى وَجَلاً.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٣)، وبلغة السالك لأقرب المسالك للصاوي (٤/ ٤٣٨).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٢).

وَدَلِيلُ الخَوْفِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فتألُّمُ القلب على أَمْرٍ مَخُوفٍ مُتوقَّعٍ في المستقبل يُسمَّى خوفاً، وتألُّمُه من أمرٍ واقعٍ عليه الآن يُسمَّى وَجَلاً، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «وأمَّا الوَجَل: فرَجَفَانُ القلب وٱنصداعُه لِذِكْرِ مَنْ يخافُ سلطانَه وعقوبته، أو لرؤيتِه»(١).

دليل أنَّ الخوف عبادة

(وَدَلِيلُ الخَوْفِ) على أنَّه عبادة من العبادات لا يُصْرَفُ إلا لِلَّه؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾) أي: المشركين، فإنَّ نواصيَهم بيدي، (﴿وَخَافُونِ﴾) فأنا ربُّكم الذي يَنْصُرُ أولياءَه الخائفين منه (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾) بي.

والخوفُ منه سبحانه من أسباب صلاح القلب، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «فَمَا حفظت حدود اللَّه ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خَلَا القلبُ من هذه الثَّلاث؛ فَسَدَ فساداً لا يُرجَى صلاحُه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه؛ ضعف إيمانُه بحسبه»(٢).

خوف الأنبياء من اللَّه تعالى

وقد كان الأنبياءُ أشدَّ الخلق خوفاً من اللَّه، قال نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، وقال شعيبٌ عليه السلام

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥١٣)، وسيأتي الفرق بين الخشية والرَّهبة عند ذكرهما مع أدلَّتهما.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١).

. . . .

لقومه: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾، وقال اللَّهُ لِنَبيِّنا محمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يصلي «وَلِصَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ المِرْجَلِ[1]؛ مِنَ البُكَاءِ» رواه أحمد[2].

وكلَّما كان العبدُ باللَّه أَعْلَم كان منه أَخْوَف، ونُقصانُ الخوفِ من اللَّه إنَّما هو لِنُقْصانِ معرفةِ العبد ربَّه، فأَعرفُ النَّاسِ أخشاهم لِلَّه، ومَنْ عرفَ اللَّهَ ٱشتدَّ حياؤُه منه وخوفُه وحبُّه له، وكلَّما ٱزداد معرفةً ٱزداد حياءً وخوفاً وحبّاً.

وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوفُ والخشية، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً» متفق عليه[3]، وقال: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ» رواه أحمد[4].

---

(١) أي: صوت كصوت الإناء إذا غلا فيه الماء.

(٢) رقم (١٦٣١٧)، من حديث أبي مطرِّف، عبد اللَّه بن الشِّخير رضي الله عنه.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب مَن لم يواجه الناس بالعِتاب، رقم (٦١٠١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ باللَّه تعالى، وشدة خشيته، رقم (٢٣٥٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها، ولفظ مسلم: «لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً».

(٤) رقم (٢١٩١٦)، من حديث أبي ذرٍّ الغفاريِّ رضي الله عنه.

. . . .

فضل الخوف من اللَّه تعالى

والخوفُ من اللَّهِ ﷻ هو الطَّريقُ إلى طاعته، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوفُ من اللَّه يَسْتَلْزِمُ العلمَ به، والعلمُ به يَسْتَلْزِمُ خشيتَه، وخشيتُه تَسْتَلْزِمُ طاعتَه»[١]، ولَا صلاح للقلب إلَّا بالخوف من اللَّه، قال أبو سليمان الدَّارانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا فَارَقَ الخوفُ قلباً إلَّا خَرِبَ»[٢]، وهو المانعُ من ٱتِّباع الشَّهوات، قال إبراهيم بن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا سَكَنَ الخوفُ القلوبَ أَحْرَقَ مواضع الشَّهوات منها، وطَرَدَ الدُّنيا عنها»[٣]، وإذا فَارَقَ الخوفُ القلبَ ضلَّ عن الٱستقامة، قال ذُو النُّون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النَّاسُ على الطَّريقِ ما لَمْ يَزُلْ عنهم الخوف، فإذا زَالَ عنهم الخوف؛ ضَلُّوا عن الطَّريق»[٤].

والخائفُ من ربِّه يَمْنَحُه التَّبصُّرَ في آياته ونُذُره ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، وفي الآخرة تُفَتَّحُ له الجِنان ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾، ومَنْ عَظُمَ وقارُ اللَّهِ في قلبه؛ عَظَّم اللَّه وَقَارَهُ في قلوب الخلق، ومَنَعَهُم أن يذلوه.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٣).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٥١٣).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٥١٣).

. . . .

أركان العبادة

وأركانُ العبادة: الخوف، والرَّجاء، والمحبَّة، وكلُّ هذه الأركان الثَّلاثة يجب على العبد الإتيانُ بها جميعاً، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعضُ السَّلَف: مَنْ عَبَدَ اللَّه تعالى بالحبِّ وحده فهو زِنْدِيقٌ، ومَنْ عَبَدَهُ بالخوف وحده فهو حَرُورِيٌّ، ومَنْ عَبَدَهُ بالرَّجاء وحده فهو مُرْجِئٌ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوفِ والرَّجاءِ فهو مُؤْمِن، وقد جَمَعَ اللَّهُ تعالى هذه المَقَامَات الثَّلاثة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ فٱبْتِغاءُ الوسيلة هو محبَّتُه الدَّاعيةُ إلى التَّقرُّب إليه، ثمَّ ذكر بعدها الرَّجاء والخوف، فهذه طريقةُ عِبَادِه وأولِيائِه»[١].

والمَحبَّةُ تَجْلبُ الخوفَ والرَّجاء، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ مَحبَّةٍ فهي مَصْحُوبَةٌ بالخوف والرَّجاء، وعلى قدر تَمكُّنِها من قلب المُحِبِّ يَشتدُّ خوفُه ورجاؤُه»[٢]. *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٣).

. . . .

أقسام الخوف

والخوفُ من حيث هو ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام:

الخوف الذي هو شركٌ أكبر

القسمُ الأوَّل: خوفُ السِّرِّ، وهو أَنْ يَخَافَ من غير اللَّه بسِرِّه - من وَثَن، أو طاغوت، أو غيره - أَنْ يُصيبَه بما يَكْرَه، وهذا شركٌ أكبر، كأَنْ يَخَافَ مِنْ صاحبِ القبر أَنْ يَضُرَّه أو يحلَّ عليه عقوبة إذا لم يلجأ إليه، أو يخاف من صاحب القبر أَنْ يُصيبَه بشيء إذا تنقَّص ذلك الميِّت، كما قال ﷻ إخباراً عن قومِ هودٍ أنَّهم قالوا لِنَبيِّهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، وهذا الواقع من عبَّاد القبور ونحوِها من الأوثان، يخافونها ويخوِّفون بها أهلَ التَّوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لِلَّه، وهذا يُنَافي التَّوحيد، فكمَا أنَّه إذا دَعَا غيرَ اللَّه أو سَأَلَ غيرَ اللَّه ٱنْتَفَى عنه الإيمان؛ فكذلك إذا خافَ غيرَ اللَّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «فمَنْ سوَّى بين الخالق والمخلوق في الحُبِّ له، أو الخوف منه، والرَّجاء له؛ فهو مُشْرك»(١).

الخوف الذي هو شركٌ أصغر

القسمُ الثَّاني: أَنْ يَتْرُكَ الإنسانُ ما يجب عليه خوفاً من بعض النَّاس، قال في فتح المجيد: «فهذا حَرَامٌ، وهو نَوْعٌ منَ الشِّركِ باللَّهِ المُنَافِي لكمالِ التَّوحيد، كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٣٩).

. . . .

ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[(١)]، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومِنْ كيد عدوِّ اللَّه: أَنْ يخوِّفَ المؤمنين مِنْ جُندِه وأوليائِهم؛ لِئلَّا يُجاهِدُوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أنَّ هذا مِنْ كيد الشَّيطان وتخويفِه، ونَهَانَا أَنْ نَخافَه»[(٢)].

الخوفُ الطَّبيعي

القسمُ الثَّالث: الخوفُ الطَّبيعي، كخوفِ الإنسان من السَّبُع، والنَّار، والغَرَق، فهذا لا يُلَامُ عليه العبد، كما قال تعالى - في قصَّةِ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وأما خوفُ وعيدِ اللَّه الَّذي تَوَعَّد به العُصَاة فهو الَّذي قال اللَّهُ فيه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ونحو ذلك، فهو أَعْلَى مراتب الإيمان.

كيف تَنْزِعُ خوفَك من البشر؟

والٱستسلَامُ لِلَّهِ وتفويض الأمور إليه ممَّا يَنْزِعُ الخوفَ من البشر، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والَّذي يَحْسِمُ مادَّة الخوف هو: التَّسليم لِلَّه، فإنَّ مَنْ سَلَّمَ لِلَّه، وٱسْتَسْلَم له، وعَلِم أنَّ ما أصابَه لَمْ يكن لِيُخْطِئَه، وما أخطأه لَمْ يكن لِيُصِيبَه، وعَلِم أنَّه لن يصيبَه إلَّا مَا كَتَبَ اللَّه له؛ لَمْ يَبْقَ لِخَوْفِ المخلوقين في قلبه موضع»[(٣)].

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص٣٩٦).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٠).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣١).

. . . .

ومَنْ خاف ربَّه في الدُّنيا؛ أَمِنَ يومَ الفَزَع في الآخرة، ومَنْ أَمِن في الدُّنيا؛ فَزِعَ في الآخرة.

واللَّهُ لا يَجْمَعُ لعبادِه بين خَوْفَيْن، إمَّا خوفٌ في الدُّنيا من اللَّه، وإمَّا خوفٌ في الآخرة لِمَنْ لَمْ يَخَفْ منه في الدُّنيا، ومَنْ خاف ربَّه لَمْ يَفْزَعْهُ أحد، بل هو مطمئنُّ القلب، ساكنُ الجوارح، ومَنْ صحَّ خوفُه من اللَّه هَرَبَ إليه، وَأَنْعِمْ بنفسٍ لا تَأْنَس إلَّا مع اللَّه!

ولا يعدُّ خائفاً من لم يكن للذُّنوب تاركاً، وكلُّ عاصٍ لِلَّهِ فهو جاهل، وكلُّ خائفٍ منه فهو عالم مطيع لِلَّه.

فراقبْ ربَّك في أحوالِك وخَفْ من عقابه، تَسْعَد في دنياك وأُخراك، والمخلوقُ إذا خِفْتَه ٱسْتَوْحَشْتَ منه وَهَرَبْتَ منه، والرَّبُّ تعالى إذا خِفْتَه أنست به وقربت إليه. ❊

. . . .

الرَّجاءُ: عبادة

والرَّجاءُ عبادةٌ قَلْبِيَّة، وهو: الرَّغبةُ والطَّمَعُ في الحصول على شيءٍ مرجوٍّ، وهو يتضمَّنُ التَّذلُّلَ والخضوع.

الفرقُ بين الرَّجاءِ والتَّمنِّي

والفرقُ بين الرَّجاءِ والتَّمنِّي: أنَّ الرَّجاءَ يكون مع بذل الجهد وحُسنِ التَّوكُّل.

والتَّمنِّي يكون مع الكسل.

والرَّجاءُ هو الحَادِي للأعمال، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا روحُ الرَّجاء! لَعُطِّلتْ عبوديَّةُ القلب والجوارح، وهدِّمَتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذْكَرُ فيها ٱسم اللَّه كثيراً»(١).

حقيقةُ الرَّجاء

وحقيقةُ الرَّجاء: الخوفُ والرَّجاءُ معاً، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقةُ الرَّجاء: الخوفُ والرَّجاء، فيفعل ما أُمِرَ به على نورِ الإيمان راجياً للثَّواب، ويترك ما نُهِيَ عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب»(٢).

أنواع الرَّجاء

والرَّجاءُ ثلاثة أنواع: قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرَّجاءُ ثلاثة أنواع؛ نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأوَّلان: رجاءُ رجلٍ عَمِلَ بطاعةِ اللَّه، على نورٍ من اللَّه،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٢).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٠٢).

. . . .

فهو رَاجٍ ثوابَه؛ ورجل أَذْنَبَ ذنوباً، ثمَّ تاب منها، فهو رَاجٍ لِمَغفرةِ اللَّه تعالى وعَفْوِه وإحسانِه وجودِه وحِلمِه وكرَمِه.

والثَّالث: رجلٌ مُتَمَادٍ في التَّفريطِ والخطايا، يَرْجُو رحمةَ اللَّه بلا عمل، فهذا هو الغُرُورُ والتَّمنِّي والرَّجاءُ الكاذب»[١].

ثمرة الرَّجاء

ومَنْ قَوِيَ رجاؤُه ٱزداد عمله الصَّالح، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلَّما قَوِيَ الرَّجاءُ جَدَّ في العمل، كما أَنَّ الباذرَ كلَّما قَوِيَ طَمَعُه في المَغَلِّ[٢]، غَلَّقَ[٣] أرضَه بالبذر، وإذا ضعف رجاؤُه قصَّر في البذر»[٤].

والرَّجاءُ يَحْدُو بالعبد في سيره إلى اللَّه، ويُطَيِّب له المسير، ويَحُثُّه عليه، ويَبْعَثُه على ملازمته، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولولا الرَّجاء لَمَا سَارَ أحد، فإنَّ الخوفَ وحده لا يُحَرِّكُ العبد، وإنَّما يُحَرِّكُه الحُبُّ، ويُزْعِجُه[٥] الخوف، ويَحْدُوهُ الرَّجاء»[٦].

محرِّكات القلوب

والعبدُ يَجْمَعُ بين المحبَّة والرَّجاءِ والخوف، ولا تَحْصُلُ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٦).
(٢) أي: نتاج الأرض.
(٣) أي: ملأ.
(٤) الفوائد (ص١٢٩).
(٥) أي: يزجره.
(٦) مدارج السالكين (٢/ ٥٠).

. . . .

العبوديَّة لِلَّه إلا بهذه الثَّلاثة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ٱعلم أَنَّ مُحرِّكاتِ القلوب إلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ ثلاثة: المَحبَّةُ، والخوفُ، والرَّجاءُ، وأقواها: المَحبَّة، وهي مقصودةٌ تُرادُ لذاتها، لأنَّها تُرادُ في الدُّنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنَّه يزول في الآخرة، قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، والخوفُ المقصود منه: الزَّجرُ والمنعُ من الخروج عن الطَّريق، فالمَحبَّة تُلْقِي العبدَ في السَّيرِ إلى مَحْبُوبِه، وعلى قَدْرِ ضَعْفِها وقوَّتِها يكون سَيْرُه إليه، والخوفُ يمنعُه أَنْ يخرُجَ عن طريق المَحْبُوبِ، والرَّجاءُ يَقُودُه.

فهذا أصلٌ عظيمٌ يَجبُ على كلِّ عبدٍ أَنْ يَتَنَبَّه له، فإنَّه لا تحصل له العبوديَّة بدونه، وكلُّ أحدٍ يجب أن يكون عبداً لِلَّه لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تَبْعَثُه على طلبِ محبوبه، فأيُّ شيءٍ يُحرِّك القلوب؟

قلنا: يُحَرِّكُها شيئان:

أحدُهما: كثرة الذِّكر للمحبوب؛ لأنَّ كَثْرةَ ذِكْرِه تُعلِّق القلوب به، ولهذا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بالذِّكرِ الكثير فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾.

....

والثَّاني: مُطالَعة آلَائِه ونَعْمَائِه، قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، فإذا ذَكَرَ العبدُ ما أَنْعَمَ اللَّهُ به عليه من تسخير السَّماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النِّعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بدَّ أَنْ يُثِيرَ ذلك عنده باعثاً، وكذلك الخوفُ تحرِّكُه مُطَالَعةُ آيات الوعيد والزَّجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرَّجاء يُحَرِّكُه مُطَالَعةُ الكرَم والحِلْم والعفو»(١).

متى يَقْوَى الرَّجاء؟

ويَقْوَى الرَّجاءُ كلَّما قَوِيَ العلمُ باللَّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوَّة الرَّجاءِ على حسب قوَّة المعرفة باللَّه وأسمائه وصفاته»(٢).

والرَّجاءُ من الأسباب الَّتي يَنَالُ بها العبد ما يرجوه من ربه، فرجاءُ العبد ثوابَ اللَّه، وٱستسلامه لربِّه بٱنطراحه بين يديه، ورضاه بمواقع حِكَمِه فيه، ما ذاك إلا رجاءً منه أَنْ يرحمَه، ويقيلَه عَثْرَتَه، ويعفوَ عنه، ويقبلَ حسناتِه مع عيوب أعماله وآفاتها، ويتجاوزَ عن سيِّئاته، فقوَّة رجائه أَوْجَبَتْ له هذا

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٢).

. . . .

الٱستسلام والٱنقياد والٱنطراح بالباب، ولا يتصوَّر هذا بدون الرَّجاء البَتَّة، فالرَّجاءُ حياةُ الطلب، وهو سبحانه يحبُّ من عباده أن يُؤَمِّلُوه ويَرْجُوهُ ويَسْأَلُوه من فضله، لأنَّه الملكُ الحقُّ الكريم، أكرم من سُئِل، وأوسع من أعطى، وأحبُّ شيءٍ إلى الكريم أَنْ يُرجَى ويُؤمَّل ويُسأَل، وكلَّما قَوِيَ رجاءُ العبد وطَمَعُه في فضل اللَّهِ ورحمتِه وتيسيرِ أموره؛ قَوِيَتْ عبوديَّتُه لِلَّه، فهو عبادةٌ عظيمة. *

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾.

دليل أنَّ الرَّجاء عبادة

(وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ) على أنَّه عبادةٌ لا يُصْرَفُ لغير اللَّه؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾**)** وَيُؤَمِّلُ **(**﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾**)** ومَوْعُودِه وثوابه **(**﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾**)** وهو الموافق لشرع اللَّه، **(**﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾**)** لا رياءَ ولا سمعة، ولا يصرف العبادة لغير خالقه؛ بل يجعل أعماله كلَّها خالصة لوجه اللَّه، فمن جَمَعَ بين الإخلاص والمتابعة نَالَ ما يرجو ويطلب، ومن عَدِمَ ذلك فإنَّه خاسر، وفَاتَه القرب من مولاه ونيل رضاه.

وقد أَمَرَ اللَّهُ بتعليق الرَّجاء به فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، والمسلمُ يعلِّق آمالَه وأطماعَه ورجاءَه باللَّه، قال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

والطَّامعُ في رجاءِ اللَّه يَحْدُو به إلى التَّأسِّي بنبيِّه ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، ومَنْ لَمْ يَرْجُ فضلَ اللَّهِ عرَّض نفسَه للوعيد، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

. . . .

رجاءُ غير اللَّه فيما لا يَقْدِر عليه إلا اللَّه

ومَنْ رَجَا غيرَ اللَّه ممَّا لا يَقْدِرُ عليه إلا اللَّه - كمغفرة ذنوبه، أو شفاءِ مريضه - فقد صَرَفَ تلك العبادة لغير اللَّه، ووقع في الشِّركِ الأكبر؛ لأنَّ هذا طَمَعٌ في شيءٍ لا يملكه إلَّا اللَّه وصرفُ عبادة الرَّجاء إلى غير اللَّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّجاءُ ينبغي أَنْ يتعلَّق باللَّه، ولا يتعلَّق بمخلوق، ولا بقوَّة العبد ولا عمله، فإنَّ تعليقَ الرَّجاء بغير اللَّه إشراك، وإن كان اللَّه قد جعل لها أسباباً فالسَّبب لا يستقل بنفسه؛ بل لا بدَّ له من مُعَاون، ولا بدَّ أَنْ يمنعَ العارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة اللَّه تعالى»[(١)].

رجاءُ غير اللَّه مَذَلَّة

ومَنْ رَجَا مخلوقاً أو تعلَّق به ٱنصرف قلبُه عن العبوديَّة للَّه، وصار عبداً لغيرِه بقدر ما قام في قلبه من التَّعلُّق والرَّجاء، فذلَّ لغير اللَّه وخضع، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما علَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغير اللَّه إلَّا خابَ من تلك الجهة، ولا ٱستنصر بغير اللَّه إلا خُذِل، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾»[(٢)].

ومَنْ علَّق رجاءَه بالبشر خُذِل، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلُّ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩).

. . . .

مَنْ خاف شيئاً غير اللَّه سُلِّط عليه، كما أَنَّ مَنْ أحبَّ مع اللَّه غيره عُذِّب به، ومَنْ رجا مع اللَّه غيره خُذِل من جهته، وهذه أمورٌ تَجْرِبَتُهَا تكفي عن أدلَّتها»[١].

فيجبُ على العبد أَنْ يُعلِّقَ رجاءه باللَّه دون من سواه، فالخلقُ مجبولون على الضَّعف، عاجزون عن جلبِ النَّفع لأنفسهم ودفع الضُّرِّ عنهم، وهم عن غيرهم أعجز، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «وما رَجَا أحدٌ مخلوقاً أو تَوَكَّلَ عليه، إلا خَابَ ظَنُّه فيه»[٢]، ولن يَجْنِيَ من ورائهم سوى الذِّلَّة والمَهَانة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «إذا تعلَّقَ بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرَّة، فإنَّه يُخذَل من جهتهم، ولا يُحصِّل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه؛ إما لعجزهم، وإما لٱنصراف قلوبهم عنه، وإذا توجَّه إلى اللَّه بصدق الٱفتقار إليه، وٱستغاث به مخلصاً له الدِّين، أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرَّحمة»[٣].

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٥٠).

. . . .

فلا تُعلِّقْ أطماعَك وأَمَلَك بغير اللَّه، فلَنْ تَجْنِيَ إنْ فعلتَ سوى العَدَم وذلِّ المسألة والتَّفريط في عبادةٍ جليلة، وٱرْجُ كرمَ اللَّه وعطاءَه وجزيلَ ثوابه، وٱطلب منه كشفَ الحاجات والمُلِمَّات، فذلك أرفعُ للدَّرجات، وأعزُّ للنَّفس، وفيه تحقيقٌ للمأمول، وأداءُ عبادةٍ عظيمة، وهي الرَّجاء. ❁

. . . .

التَّوكُّلُ: عبادة

والتَّوكُّلُ: هو صدق التَّفويض، والاعتماد على اللَّه في جميع الأمور، وإظهار العجز والاستسلام له.

وهو عبادةٌ من العبادات، بل هو من أَجَلِّ أنواع العبادة، وأعلى مقامات التَّوحيد، قال الشَّيخُ سليمانُ بنُ عبدِ اللَّه بن محمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّوكُّل فريضةٌ يجب إخلاصُه لِلَّه تعالى؛ لأنَّه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التَّوحيد؛ بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما في صفة السَّبعين ألفاً الذين يدخلون الجنَّة بلا حسابٍ ولا عذابٍ، ولذلك أَمَرَ اللَّهُ به في غير آيةٍ من القرآن أعظم ممَّا أمر بالوضوء والغُسل من الجَنَابة؛ بل جعله شرطاً في الإيمان والإسلام، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه»[1]، وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التَّوكُّلُ نصفُ الدِّين، والنِّصفُ الثَّاني الإنابة، فإنَّ الدِّينَ استعانة وعبادة، فالتَّوكُّلُ هو الاستعانة، والإنابةُ هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها»[2].

منزلةُ التَّوكُّل

ومنزلةُ التَّوكُّلِ قبل منزلة الإنابة، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «منزلةُ التَّوكُّل قبلَ منزلة الإنابة؛ لأنَّه يُتَوكَّلُ في حصولها، فالتَّوكُّلُ

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص٤١٧).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

. . . .

وسيلة، والإنابةُ غاية»[١]، وقد جعل اللَّهُ التَّوكُّل سبباً لنيلِ محبَّته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهو دليلٌ على صحَّة إسلامِ المُتوكِّل، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾.

حقيقةُ التَّوكُّل

وحقيقتُه: تعلُّق القلب باللَّه، والأخذ بالأسباب مع عدم الٱعتماد عليها، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسِرُّ التَّوكُّلِ وحقيقتُه: هو ٱعتمادُ القلب على اللَّه وحده، فلا يضرُّه مباشرة الأسباب مع خُلُوِّ القلب من الٱعتماد عليها والرُّكون إليها، كما لا ينفعه قولُه: «توكَّلتُ على اللَّه» مع ٱعتماده على غيره وركونِه إليه وثقتِه به، فتوكُّل اللِّسان شيء، وتوكُّل القلب شيء آخر»[٢].

كمالُ التَّوكُّل

والتَّوكُّلُ محلُّه السَّبب، وكماله بالتَّوكُّل، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوكُّلُ محلُّه الأسباب، وكمالُه بالتَّوكُّل على اللَّه، وهذا كتوكُّلِ الحرَّاث الَّذي شَقَّ الأرض وألقى فيها البذر؛ فتوكَّل على اللَّه في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التَّوكُّلَ حقَّه»[٣].

ويجبُ فعل الأسباب مع التَّوكُّل ولكن مع عدم الرُّكون

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٤).
(٢) الفوائد (ص١٦٤).
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٣٦٤).

. . . .

إليها، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أنكر الأسباب لم يستقم منه التَّوكُّل، ولكن من تمام التَّوكُّلِ عدم الرَّكُون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه باللَّه لا بها، وحال بدنه قيامه بها»[١]. ❊

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠).

. . . .

أنواع التَّوكُّل

والتَّوكُّلُ من حيثُ نوعِه ينقسمُ إلى قسمين:

توكُّل الاضطرار

توكُّل ٱضطرار - وهذا لا يتخلَّف عنه الفرج بإذن اللَّه -، وتوكُّل ٱختيار، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوكُّل تارة يكون: توكل ٱضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأً ولا وَزَراً[1] إلا التَّوكُّل، كما إذا ضاقت عليه الأسباب وضاقت عليه نفسه وظنَّ ألَّا ملجأَ من اللَّهِ إلا إليه، وهذا لا يتخلَّف عنه الفرج والتَّيسير البتة.

توكُّل الاختيار

وتارةً يكون توكُّل ٱختيار، وذلك التَّوكُّل مع وجود السَّبب المفضي إلى المراد، فإِنْ كان السَّببُ مأموراً به ذُمَّ على تركه، وإِنْ قام بالسَّبب وتَرَك التَّوكُّلَ ذُمَّ على تركه أيضاً، فإنَّه واجب بٱتفاق الأُمَّة ونصِّ القرآن، والواجب: القيام بهما والجمع بينهما.

وإِنْ كان السَّببُ محرَّماً حَرُمَ عليه مباشرتُه، وتوحَّد السَّبب في حقِّه في التَّوكُّل، فلم يَبْقَ سبب سواه، فإنَّ التَّوكُّلَ من أقوى الأسباب في حصول المراد، ودفع المكروه؛ بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق.

---

(١) الوَزَرُ: الملجأ، وأصل الوَزَرِ: الجبل المنيع، وكلُّ مَعْقِلٍ وَزَرٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، وكلُّ ما ٱلتجأتَ إليه وتَحَصَّنْتَ به فهو: وَزَرٌ، والوِزْرُ: الحِمْلُ الثَّقيل، والوِزْر: الذَّنب؛ لثقله. يُنظر: لسان العرب (٥/ ٢٨٢).

. . . .

وإِنْ كان السَّببُ مباحاً نظرت: هل يُضعِفُ قيامُك به التَّوكُّلَ أو لا يُضْعِفُه؟ فإن أَضْعَفَهُ وفرَّقَ عليك قلبك، وشتَّت همك؛ فتركُه أولى، وإن لم يُضْعِفْهُ؛ فمباشرته أولى، لأنَّ حِكْمَةَ أحكم الحاكمين ٱقتضت ربط المسبَّب به، فلا تعطل حكمته»[١].

أقسام التَّوكُّل

وينقسمُ التَّوكُّلُ إلى: توكُّلٍ في الأمور الدُّنيويَّة، وتوكُّلٍ في الأمور الدِّينيَّة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التَّوكُّل على اللَّه نوعان:

أحدهما: توكُّلٌ عليه في جلب حوائج العبد وحظوظِه الدُّنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدُّنيويَّة.

والثاني: التَّوكُّلُ عليه في حصول ما يحبُّه ويرضاه، من الإيمان واليقين والجهاد والدَّعوة إليه.

وبين النَّوعين من الفضل ما لا يحصيه إلَّا اللَّه.

فمَتَى توكَّلَ عليه العبدُ في النَّوع الثَّاني حقَّ توكُّله كفاه النَّوع الأوَّل تمام الكفاية، ومَتَى توكَّلَ عليه في النَّوع الأوَّل دون الثَّاني كفاه أيضاً، لكن لا يكون له عاقبة المتوكِّل فيما يحبه ويرضاه.

فأعظمُ التَّوكُّل عليه: التَّوكُّلُ في الهداية، وتجريد التَّوحيد، ومتابعة الرَّسول ﷺ، وجهادُ أهل الباطل، فهذا توكُّلُ الرُّسُل

---

(١) الفوائد (ص ١٦٣).

. . . .

عليهم الصَّلاة والسَّلام وخاصَّةِ أتباعهم»[١].

متى يَقْوَى التَّوكُّل؟

وإذا قَوِيَ توحيدُ العبد قَوِيَ توكُّلُه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «لا يستقيمُ توكُّلُ العبد حتى يصحَّ له توحيده؛ بل حقيقةُ التَّوكُّلِ توحيدُ القلب، فما دامت فيه علائق الشِّرك فتوكُّلُه معلول مدخول، وعلى قدرِ تجريدِ التَّوحيدِ تكون صحَّة التَّوكُّل، فإنَّ العبدَ متى ٱلْتَفَتَ إِلَى غيرِ اللَّه أخذ ذلك الاْلتفات شعبة من شُعَبِ قلبه، فنقص من توكُّلِه على اللَّه بقدر ذهاب تلك الشُّعبة، ومن هاهنا ظنَّ من ظَنَّ أنَّ التَّوكُّلَ لا يصحُّ إلا برفضِ الأسباب، وهذا حقٌّ، لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتَّوكُّلُ لا يتمُّ إلا برفض الأسباب عن القلب وتعلُّق الجوارح بها، فيكون منقطعاً منها متصلاً بها»[٢].

التَّوكُّل عبادة قلبيَّة

فالتَّوكُّلُ عبادةٌ قَلْبِيَّة، فإنِ ٱعتمدَ على غير اللَّه فيما لا يَقْدِرُ عليه إلا اللَّه فذلك هو الشِّرك الأكبر.

وإنِ ٱعتمد على الأحياء الحاضرين - من السَّلاطين، ونحوهم - فيما أقدرهم اللَّه عليه - من رزق، أو دفع أذى، ونحوه - فهو نوعُ شركٍ أصغر. ❊

---

(١) الفوائد (ص١٦٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠).

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

دليل التَّوكُّل

(وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ) على أنَّه عبادةٌ لا يُصْرَفُ إلا لِلَّه؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾) لا على غيره (﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾) وفوِّضُوا أموركم إليه (﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾) به، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «المُعلَّقُ على الشَّرطِ يُعْدَم عند عدمِه، وهذا يدلُّ على ٱنتِفَاء الإيمانِ عند ٱنتِفَاءِ التَّوكُّل، فمَنْ لا توكُّلَ له لا إيمانَ له، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وهذا يدلُّ على ٱنْحِصَار المؤمنين فيمَنْ كان بهذه الصِّفَة»[1].

جزاء المُتوكِّل

(وَ) مَنْ يعتمدْ على اللَّه في أموره فهو كافيه، ومِنَ الأدلَّة على ذلك؛ (قَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾) ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه (﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾) وكافيه، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «ومَنْ كان اللَّهُ كافيه وواقيه، فلا مطمَع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بدَّ منه، كالحرِّ والبَرد والجوع والعطش، وأمَّا أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبداً، وفَرْقٌ بين الأذى الَّذي هو في

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٩).

. . . .

الظَّاهر إيذاء وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضُّرّ الَّذي يتشفى به منه»[١].

ومَنْ كان اللَّهُ كافيه تيسَّرت أموره ولَمْ يطمع فيه أحد، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الٱستعانةُ باللَّه، والتَّوكُّلُ عليه، واللَّجأُ إليه، والدُّعاءُ له، هي الَّتي تُقوِّي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعضُ السَّلَف: مَنْ سرَّه أن يكون أقوى النَّاس، فليتوكَّلْ على اللَّه»[٢].

جزاء نفيس لم يأت في شيءٍ من العبادات إلا في التَّوكُّل

ولَمْ يَذْكُرْ تعالى للتَّوكُّل جزاء غير تولِّي كفاية العبد، ولَمْ يَأْتِ في أيِّ عبادة من العبادات أنَّ اللَّهَ قال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ إلا في مقام التَّوكُّل؛ فدلَّ على عِظَمِ شأن التَّوكُّل وفضيلتِه، وأنَّه أجلُّ أنواع العبادة، وأنَّه أعظم الأسباب في جلب المنافعِ ودفع المَضارِّ، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ﴾، فلا يُعْجِزُه شيءٌ أراده، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا أرجحُ المكاسب: فالتَّوكُّلُ على اللَّه، والثِّقة بكفايته، وحسنُ الظَّنِّ به، وذلك أنَّه ينبغي للمُهْتَمِّ بأمرِ الرِّزقِ أَنْ يلجأَ فيه إلى اللَّه ويدعوه»[٣].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٢).

. . . .

راحةُ النَّفس

وراحةُ النَّفس في تفويضِ أمرِها لِخَالقِها، ويزداد تعلُّقها ببارئِها إذا تَذَكَّرَتْ أَنَّ الرَّبَّ عليمٌ بحالِها، رحيمٌ بأمرِها، قديرٌ على كشف ضرِّها، كريمٌ يَأجرُها على مصيبتِها ويخْلِف لها عِوَضاً خيراً ممَّا فات عنها، وإذا صَدَقَ التَّوكُّلُ على اللَّه؛ تَحقَّقَت المُنَى بأمر اللَّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَنْ صَدَقَ توكُّلُه على اللَّه في حصول شيءٍ نَالَه، فإِنْ كان مَحْبوباً له مَرْضِيّاً كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإِنْ كان مَسْخُوطاً مَبْغُوضاً كان ما حصل له بتوكُّلِه مضرَّة عليه، وإِنْ كان مُبَاحاً حصلت له مصلحة التَّوكُّل دون مصلحة ما توكَّلَ فيه، إن لم يستعن به على طاعاتِه»(١).

فعلِّقْ قلبَك باللَّه عند طلبِ السَّلامةِ من الشُّرور، والعافيةِ من الفِتَن، وحصولِ الرِّزق، ودخولِ الجنَّة، والنَّجاةِ من النَّار، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وإيَّاك والتَّعلُّقَ بالمخلوق، فإنَّه عاجزٌ عن كشف الضُّرِّ، قَتُورٌ في العطاء، والمخلوق وإِنْ كان له نوعُ قدرةٍ فلا يُعتمَدُ عليه ولو فيما أقدره اللَّه عليه؛ بل يُعتمَدُ على اللَّه وحده، فإنَّ مَنِ ٱعْتَمَدَ على حَسْبِهِ ذلَّ، ومَنِ ٱعْتَمَدَ على عَقْلِه ضَلَّ، ومَنِ ٱعْتَمَدَ على مالِه قلَّ، ومَنِ ٱعْتَمَدَ على الناس ملَّ.

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٤).

. . . .

فَٱعْتَمِدْ على اللَّه وحده فإنَّه كافيك جميع أمورك، وهو متولِّيها إنْ أَلْقَيْتَ إليه حاجاتك، وسَلَّمْتَ إليه مقاليد أمورك، وأحْسِنِ الظَّنَّ به تعالى، وتوكَّلْ عليه في جميعِ أمورك تحقِّق عبادة من أَجَلِّ العبادات، فلا ذِلَّةَ ولا قِلَّةَ فيمَنْ توكَّلَ على اللَّه. ❊

. . . .

معنى الرَّغبة

والرَّغبةُ هي: طلبُ الوصول إلى الشَّيء المحبوب.

الفرقُ بين الرَّغبة والرَّجاء

والفرق بين الرَّغبة والرَّجاء:

أنَّ الرَّجاءَ طَمَعٌ والرَّغبةَ طَلَب، فمَنْ طمع في دخول الجنَّة - مثلاً - فَطَمَعُهُ هذا يُسمَّى رجاءً.

ومَنْ طلبها بالعمل الصَّالح، فإنَّ طلبَه لها هذا وسَعْيَه إليها يُسمَّى رغبة، فكلُّ رغبةٍ رجاء.

قال ٱبن القيِّم ﷺ: «والفرقُ بين الرَّغبة والرَّجاء: أنَّ الرَّجاءَ طَمَع، والرَّغبةَ طَلَب، فهي ثمرةُ الرَّجاء، فإنَّه إذا رجا الشَّيء طَلَبَه، والرَّغبة من الرَّجاء كالهرب من الخوف»[1].

وقد أَمَرَ اللَّهُ نبيَّه محمَّداً ﷺ أَنْ يَرْغَبَ إليه وحده ﷻ فقال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾.

معنى الرَّهبة

والرَّهبةُ: هي الخوفُ والفَزَعُ المُثْمِرُ للهَرَب من المخوف، فهي خوفٌ مقرونٌ بعمل، قال ٱبن القيِّم ﷺ: «وأمَّا الرَّهبة: فهي الإِمْعَانُ في الهرب من المكروه، وهي ضدُّ الرَّغبة الَّتي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه»[2].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٢).

. . . .

والرَّغبةُ والرَّهبةُ لا تقومان إلا على سَاقِ الصَّبر، فرَهْبَتُه تَحْمِلُهُ على الصَّبر، ورَغْبَتُهُ تقودُه إلى الشُّكر، وعبادتا الرَّغبة والرَّهبة تنحسران عن العبد بقدر ذنوبه، وتزيدان بزيادة إيمانه، والعبدُ ينال التَّوفيق - بإذن اللَّه - بقدر تلك العبادة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا أراد بعبده خيراً وفَّقه لاستفراغ وسعِه وبَذْلِ جهدِه في الرَّغبة والرَّهبة إليه، فإنَّهما مادَّتا التَّوفيق، فبقدر قيام الرَّغبة والرَّهبة في القلب يحصل التَّوفيق»[١].

معنى الخشوع

والخشوعُ هو: الذُّلُّ لِعظمةِ اللَّه، ويكونُ في القلب والجوارح، وهو قريبٌ من الخضوع إلا أنَّ الخضوعَ في البدن، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشوعُ: الخضوعُ لِلَّه تعالى والسُّكونُ والطُّمأنينةُ إليه بالقلب والجوارح»[٢]، وقال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الخشوعُ محلُّه القلب، وثمرتُه على الجوارح وهي تظهره»[٣].

وكلَّما خَشَعَ القلب لِلَّه؛ كان أَكْمَلَ له عبوديَّة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأكملُ الخلق عُبوديَّة أَكْملُهم ذلّاً لِلَّه وٱنقياداً وطاعة»[٤].

---

(١) شفاء العليل (ص٢٢٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣١).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٢١).
(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٠٠).

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

ومِنْ فضلِ اللَّه على عباده أنَّ مَنْ رَغِبَ وطَمعَ فيما عند اللَّه أُجِر، ومَنْ رهب من عذاب اللَّه أمَّنَهُ اللَّه، ومَنْ خَشَعَ قلبُه وجوارحُه لِلَّه عاش عزيزاً في الحياة، ولم يَخْضَعْ لأحدٍ من الخلق.

دليل أنَّ الرَّغبة والرَّهبة والخشوع عبادة

(**وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ**) فيما عند اللَّه، (**وَ**) دليلُ (**الرَّهْبَةِ**) من عذابه، (**وَ**) دليلُ (**الخُشُوعِ**) والخضوع له وحده، وأنَّها من أنواع العبادة، ما ذَكَرَهُ اللَّه تعالى عن الأنبياء والصَّالحين في معرضِ الثَّناء عليهم، ومن ذلك: (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾**) ويُسابقون (**﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾**) والطَّاعات وعمل القربات، (**﴿وَيَدْعُونَنَا﴾**) وحدنا ويسألوننا الأمور المرغوب فيها (**﴿رَغَبًا﴾**) فيما عندنا من الثَّواب (**﴿وَرَهَبًا﴾**) منَّا وممَّا عندنا من العقاب، (**﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**) خاضعين متذلِّلين متضرِّعين، وذلك لكمال معرفتهم بربِّهم.

فدلَّت الآيةُ على أنَّ هذه الثَّلاثة الأنواع - الرَّغبة فيما عند اللَّه، والرَّهبة من اللَّه، والخشوع للَّه - عبادةٌ من أَجَلِّ أنواع العبادات؛ فمَنْ صَرَفَ منها شيئاً لغير اللَّه فهو مشرك. ❁

وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

معنى الخشية

والخشيةُ: بمعنى الخوف، إلَّا أنَّ الخشيةَ أخصُّ من الخوف؛ لأنَّ الخشية: مقرونةٌ بمعرفة اللَّه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خشيتُه تعالى مقرونةٌ بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية»[١].

والخشيةُ متضمِّنة للرَّجاء، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والخشيةُ أبداً متضمِّنة للرَّجاء، ولولا ذلك لكانت قُنُوطاً، كما أنَّ الرَّجاءَ يَسْتَلْزِمُ الخوف، ولولا ذلك لكان أَمْناً، فأهلُ الخوف لِلَّه والرَّجاء له هم أهل العلم الَّذين مَدَحَهُمُ اللَّه»[٢].

دليل أنَّ الخشية عبادة

والخشيةُ عبادةٌ عظيمةٌ لا تُصْرَفُ إلَّا لِلَّه، **(وَدَلِيلُ الخَشْيَةِ)** على أنَّها عبادة من العبادات؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾)** فليسوا أهلاً للخشية، **(﴿وَٱخْشَوْنِ﴾)** وحدي فأنا ربُّكم.

واللَّهُ أَمَرَ بخشيته؛ لأنَّ خشيتَه رأسُ كلِّ خير، فمَنْ لم يخشَ اللَّه لم يَنْكَف عن معصيته، ولم يمتثلْ أَمْرَه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يمكن لأحدٍ قطُّ أَنْ يَصِلَ ما أَمَرَ اللَّهُ بوَصْلِه إلا بخشيتِه، ومتى ترحَّلَت الخشيةُ من القلب ٱنقطعت هذه الوُصَل»[٣].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص٨٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١).
(٣) عدة الصابرين (ص٤٨).

. . . .

ثمرة الخشية

ومَنْ خَشِيَ ربَّه رزقه اللَّه حياة القلب، وٱنتفعَ من المواعظ والعِبَر، قال سبحانه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾، وآثارُ الخضوع للَّه بَادِيةٌ على مَنْ يخشاه، قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، والهدايةُ إنَّما هي وسيلةٌ إلى الخشية، قال ﷻ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وهي موجبةٌ لِمَغْفِرَة اللَّهِ وفضلِه العظيم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وموجِبةٌ لجنَّات النَّعيم، قال ﷻ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾.

العالِمُ حقّاً

وأخشى النَّاس لِلَّه أعرفُهم به، والعالِمُ حقّاً هو مَنْ خَشِيَ اللَّه، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ مَنْ خَشِيَ اللَّه فهو عالِم»(١)، وحسبُك بالخشية عِلْماً، قال ٱبن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْماً، وَكَفَى بِالٱغْتِرَارِ بِهِ جَهْلاً»(٢)، وكلُّ مَنْ خَشِيَهُ فأطاعَه بفعل أوامره وترك نواهِيه فهو عالِم، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧).

(٢) أخرجه ٱبن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد، زهد الصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، كلام ٱبن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، رقم (٣٥٦٧٤).

. . . .

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

العِزَّة في الخشية

ومَنْ خَشِيَ ربَّه عاش بين الخلق عزيزاً، وفي حياته سعيداً؛ فٱجعلْ ربَّك بين ناظرَيْك، وٱخش الأمن من مكرِه وحلول عقوبته، وأَكثِرْ من الطَّاعات لِتَنَالَ خشيته تعالى، وهو سبحانه أهلٌ أَنْ يُخْشَى، وقد أَمَرَ بِخَشْيَتِه وحده، ونَهى عن خشيةِ مَنْ سواه، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

وخشيةُ المخلوق من المخلوق ذلٌّ وخضوع لمَنْ لا يستحقُّ الخضوع، فلا تَخْشَ إلا ربَّك، فالخشيةُ عبادةٌ عظيمةٌ من أَجَلِّ العبادات، وصَرْفُهَا لغير اللَّه شرك. *

. . . .

الإنابةُ: عبادة

وتَوجُّهُ القلبِ إلى اللَّه بالإنابة والرُّجوع إليه عبادةٌ جليلةٌ يُثَابُ عليها العبد.

والإنابة هي: الرُّجوع إلى اللَّه، وأصلُها: محبَّةُ القلب وخضوعُه وذلُّه للمحبوب المراد، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإنابةُ هي: عكوفُ القلب على اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، كٱعتكاف البدن في المسجد لا يفارقُه، وحقيقةُ ذلك: عكوفُ القلب على محبَّتِه وذِكْرِه بالإجلال والتَّعظيم، وعكوفُ الجوارح على طاعتِه بالإخلاص له والمتابعةِ لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(١)].

الفرق بين الإنابة والتَّوبة

والإنابةُ بمعنى التَّوبة، ولكنها أعلى من التَّوبة؛ لأنَّ التَّوبةَ إقلاعٌ، وعزمٌ على ألَّا يعود، وندمٌ على ما مضى، فإن ٱستمرَّ على ما هو عليه من عباداته فهو تائب، فإذا أقبلَ على الطَّاعات بعد توبته - كقراءة القرآن، والصَّدقة - فهذه إنابة إلى اللَّه؛ فمَنْ تاب من السَّرقة - مثلاً - كان تائباً، فإذا أقبلَ بعد التَّوبة على الطَّاعات - كالٱستغفار، والذِّكر، ونحوهما - كان مُنِيباً، فالإنابةُ تدلُّ على التَّوبة، وتدلُّ على الإقبال على اللَّه بالعبادات.

والمُصنِّف ٱقتصر على ذِكْرِ الإنابة ولم يذكر التَّوبةَ مِنْ أنواعِ العبادة؛ لأنَّ صورة العبادة بالنِّسبة للإنابة أوضح من صورتها

---

(١) الفوائد (ص٣٤١).

. . . .

بالنِّسبة إلى التَّوبة، بسبب زيادة الإقبال على العبادة، ولأنَّ الإنابةَ أعمُّ من التَّوبة.

والمنيبُ إلى اللَّه هو المُسْرِع إلى مرضاته، العائدُ إلى اللَّه في كلِّ وقت، السبَّاقُ إلى محابِّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنابةُ أوليائه: إنابةٌ لإلهيته إنابةَ عبوديَّةٍ ومحبَّة، وهي تتضمَّن أربعةَ أمور: محبَّته، والخضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سواه، فالمنيبُ إلى اللَّه: المُسْرِعُ إلى مرضاته، الرَّاجعُ إليه كلَّ وقت، المُتقدِّمُ إلى محابِّه، لأنَّ لفظَ الإنابة فيه معنى الإسراعِ والرُّجوعِ والتَّقدُّم»[(١)].

الإنابةُ دأبُ الأنبياء

والإنابةُ إلى اللَّه دَأْبُ الأنبياء والمرسلين عليهم الصَّلاة والسَّلام، قال سبحانه عن داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وقال عن سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، وقال شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وقال نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وأثنى اللَّهُ على خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لٱتِّصافه بالإنابة إليه والرُّجوع إليه في كلِّ أمر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣٤).

. . . .

ثمرات الإنابة

والبِشارةُ لأهل الإنابة، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾، ولا يَعتَبِرُ بالآيات ولا يَتَّعِظُ بالعبر إلا المُنِيب إلى ربِّه، قال ﷻ: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «العبد إذا أناب إلى اللَّه أَبْصَرَ مواقعَ الآيات والعبر، فٱستدلَّ بها على ما هي آيات له»[(١)].

والإنابةُ إلى اللَّه مَانِعةٌ من عذاب اللَّه، قال ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، والجنَّةُ أُعِدَّت نزلاً للقلب الخاشع المنيب، قال ﷻ: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۞ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾، وأمرَ اللَّهُ جميعَ الخلق بالإنابة إليه والرُّجوع إليه، قال سبحانه: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ومنزلةُ التَّوكُّل قبلَ منزلةِ الإنابة؛ لأنَّه يتوكَّلُ في حصولها، فالتَّوكُّلُ وسيلة، والإنابةُ غاية.

والإنابةُ من أسباب سعادة العبد في الدَّارَيْن، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «العبدُ إنَّما خُلِقَ لعبادة ربِّه، فصلاحُه وكمالُه ولذَّتُه وفرحُه وسُرُورُه في أَنْ يعبدَ ربَّه ويُنيبَ إليه»[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢).

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾.

ولكونِ الإنابة منزلة عالية عند اللَّه؛ فإنَّ الشَّيطانَ يسعى لصدِّ العبد عنها، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشَّيطان يكثر تعرضه للعبد إذا أراد الإنابة إلى ربِّه، والتَّقرُّب إليه والاتِّصال به»[١].

تفاوت العباد في الإنابة

والإنابةُ عبادةٌ يتفاوتُ العباد فيها، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنَّاس في إنابتهم على درجاتٍ متفاوتة، فمنهم المنيبُ إلى اللَّه بالرُّجوع إليه من المخالفات والمعاصي، ومنهم المنيبُ إليه بالدُّخول في أنواع العبادات والقربات، ومنهم المنيبُ إلى اللَّه بالتَّضرُّع والدُّعاء والافتقار إليه والرَّغبة وسؤال الحاجات كلِّها منه»[٢].

والفطرة دالَّة على الإنابة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفطرة تتضمَّنُ الإقرارَ باللَّهِ والإنابةَ إليه»[٣].

دليل الإنابة

(وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ) على أنَّها عبادةٌ عظيمة؛ أَمْرُ اللَّه تعالى عبادَه بها، ومِنْ ذلك: (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾) بقلوبكم (﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾) بجوارحكم، فهو ظاهرٌ في أنَّها عبادة وأنَّه يحبُّها شرعاً وديناً، فَصَرْفُهَا لغير اللَّه شرك. *

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨١).
(٢) طريق الهجرتين (ص٢٩٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٦).

وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ....

معنى الاستعانة

والاستعانة: طلبُ العَوْن، وهي تجمعُ الثِّقةَ باللَّه والاعتمادَ عليه، مع كمال الذُّلِّ له، قال ابن القيِّم رحمه الله: «والاستعانةُ باللَّه تتضمَّن ثلاثة أمور: كمال الذُّلِّ له، مع الثِّقةِ به، والاعتمادِ عليه، ومَنِ استعانَ بغير اللَّه مُحقِّقاً هذه المعاني الثَّلاثة فقد أَشْرَكَ مع اللَّه غيره»[1].

دليل الاستعانة

(وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ) على أنَّها من أنواع العبادة؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾)** أي: نخصُّك وحدَك بالعبادة، **(﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾)** نُفْرِدُك بالاستعانة دون خلقِك.

وذَكَرَ الاستعانةَ بعد العبادة مع دخولِها فيها؛ لاحْتِيَاجِ العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة باللَّه تعالى، فإنَّه إن لم يُعِنْهُ اللَّهُ لَمْ يَحْصُل له ما يريدُه من فعل الأوامر واجتناب النَّواهي.

فالأوَّل: تبرُّؤٌ من الشِّرك، والثَّاني: تبرُّؤٌ من الحَوْل والقوَّة.

مَدارُ الدِّين

ومَدارُ الدِّين على العبادة والاستعانة، والقيامُ بعبادة اللَّه والاستعانةُ به هما الوسيلةُ للسَّعادة الأَبَدِيَّة، والنَّجاةُ من جميعِ الشُّرور، فلا سبيلَ إلى النَّجاةِ إلَّا بالقيام بهما، قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: «الدِّينُ: ألَّا يُعبدَ إلَّا اللَّه، ولا يُستعان إلَّا به»[2].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٢٤).

. . . .

والعبادةُ من مقتضيات أُلوهيَّته، والاستعانة من مقتضيات رُبوبيَّته، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: إشارةٌ إلى عبادته بما ٱقتضته إلهيَّته - من المحبَّة، والخوف، والرَّجاء، والأمر، والنَّهي -، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: إشارةٌ إلى ما ٱقتضته الرُّبوبيَّة - من التَّوكُّل، والتَّفويض، والتَّسليم -»[(١)].

والاستعانةُ تكون على أُمُور المستقبل، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «فإنَّ الاستعانةَ والتَّوكُّلَ إنَّما يتعلَّق بالمستقبل، فأمَّا ما وقع فإنَّما فيه الصَّبرُ والتَّسليمُ والرِّضا»[(٢)].

ما يُعِينُ على الاستعانة

والاستعانةُ عبادةٌ عظيمة، وممَّا يُعِينُ عليها قول: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «وقولُ: «لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» يوجب الإعانة؛ ولهذا سنَّها النَّبيُّ ﷺ إذا قال المُؤذِّن: «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ»، فيقولُ المُجيب: (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)»[(٣)]، وقال أيضاً: «إنَّ هذه الكلمة - أي: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ - كلمةُ ٱستِعانة، لا كلمة ٱسترجاع، وكثيرٌ من النَّاس يقولُها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولُها جَزَعاً لا صبراً»[(٤)].

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٨٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٢١).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٨٦).

وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِاللَّهِ».

أنفعُ الدُّعاء

وأَجْمعُ الأدعية: طلبُ العَوْنِ على الطَّاعة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية: تأمَّلتُ أَنْفَعَ الدُّعاء، فإذا هو سؤالُ اللَّهِ العَوْنَ على مرضاته، ثمَّ رأيتُه في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾»[1].

وبالٱستعانة باللَّه تَسْتَغْنِي عن الٱستعانة بالخلق، وكمالُ غِنَى العبد في تعلُّقه بربِّه، ومَنْ تَرَكَ الٱستعانةَ باللَّه وٱستعانَ بغيره وكَلَهُ اللَّهُ إلى مَنِ ٱستعانَ به فصار مَخْذُولاً.

وقد أَمَرَ الأنبياءُ أقوامَهُم بالٱستعانة باللَّه وحده، قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾، (وَ) أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بالٱستعانة باللَّه، فقال (فِي الحَدِيثِ) الَّذي رواه التِّرمذيُّ[2]: («إِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِاللَّهِ»)، قال ٱبنُ دَقِيقِ العِيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بِقَدْرِ ما يَركنُ الشَّخص إلى غير اللَّه تعالى بطلبه، أو بقلبه، أو بِأَمَلِه، فقد أعرض عن ربِّه إلى مَنْ لا يَضرُّه ولا ينفعُه، وكذلك الخوف من غير اللَّه»[3].

الٱستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه

ولا بأس بالٱستعانة بالمخلوق الحيِّ على أمرٍ قادرٍ عليه،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨).

(٢) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول اللَّه ﷺ، بابٌ، رقم (٢٥١٦)، من حديث عبد اللَّه بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) شرح الأربعين النووية لٱبن دقيق العيد (ص١٢٢).

. . . .

فإِنْ كانت على بِرٍّ وخيرٍ فهي إحسان، قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وإن كانت على إثمٍ فهي حرام، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾.

الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه

وأمَّا الاستعانةُ بالأموات، أو بالأحياء الغائبين، أو بالأحياء الحاضرين على أَمْرٍ لا يَقْدِرُون عليه، فهذا شرك.

والعبدُ ضعيفٌ بنفسِه لا غِنَى له عن عَوْنِ الرَّبِّ، ومَنْ سَعَى في تحقيق مَطْلُوبِهِ وجب عليه أَنْ يكونَ مُستعيناً باللَّه، مُتوكِّلاً عليه، مُفْتَقِراً إليه في حصوله، ومِنْ فَضْلِ اللَّه على عباده أَنَّ مَنْ تعلَّق به منهم أعانه اللَّه، فالاستعانةُ عبادةٌ عظيمةٌ عليها مَدارُ الدِّين، فعلى العبد تحقيقها وعدم التَّفريط فيها. ❊

. . . .

معنى الاستعاذة

والاستعاذةُ: هي الالتجاءُ والاعتصامُ والتَّحرُّز، وحقيقتُها: الهَرَبُ مِنْ شيءٍ تخافُه إلى مَنْ يَعْصِمُك منه.

والاستعاذةُ باللَّه هي: الالتجاءُ إلى اللَّه، والاعتصامُ به، واعتقادُ كفايته، وتمام حمايته من كلِّ شرٍّ.

الاستعاذةُ: عبادة

وهي عبادةٌ من العبادات الَّتي أَمَرَ اللَّهُ عباده بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، قال في فتح المجيد: «وقد أَجْمَعَ العلماءُ على أنَّه لا تَجُوزُ الاستعاذةُ بغير اللَّه»[١].

الحياةُ مَلِيئةٌ بالآفات والمَكارِه

ولا عَاصِمَ في تفريج الكروب ورَفْعِ الخُطوبِ سوى ربِّ العالَمِين، والحياةُ مَلِيئةٌ بالآفات والمَكارِه، ولكلِّ مخلوقٍ أعداء من الجِنِّ والإنس، وعلى مقدِّمتِهِم إبليس - لعنه اللَّه -، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، وأخبر اللَّهُ أنَّ لكلِّ نبيٍّ أعداء من الجنِّ والإنس، قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، وكذلك أَتْبَاع الرُّسل يَتَعَرَّضُون للابتلاء.

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص ١٨٨).

وَدَلِيـلُ الِاسْتِعَاذَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

ولا غِنَى لأيِّ مخلوقٍ من الٱحتماء بجَنَابِ اللَّهِ والٱعتصامِ بحِمَاهُ من شرور الإنس والجنِّ، ومن مكاره الحياة وآفاتها، ومَنْ طَلَبَ العوذ من اللَّه فقد رَامَ عبادةً جليلةً أَمَرَ اللَّهُ بها في أكثر من موضع في كتابه.

دليل أنَّ الٱستعاذة عبادة

(وَدَلِيـلُ الِاسْتِعَاذَةِ) على أنَّها من أنواع العبادة؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾) يا أيُّها النَّبيُّ مُتَعَوِّذاً - والخطابُ أيضاً لجميع أُمَّتِه -: (﴿أَعُوذُ﴾) أي: أَعْتَصِمُ وَأَلْتَجِئُ (﴿بِرَبِّ﴾) وخالق (﴿ٱلْفَلَقِ﴾) وهو الصُّبح، (وَ) قولُه: (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ﴾) وخالق (﴿ٱلنَّاسِ﴾)، وقد قال النَّبيُّ ﷺ عن المُعَوِّذتين لعقبة بن عامر رضي الله عنه: «أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾» رواه مسلم[(١)].

الٱستعاذة أهمُّ من النَّفس والطَّعام

وعلى المسلم أنْ يُدَاوِمَ على الٱستعاذةِ بهما في صباحه ومسائه، فهي سببٌ في تحصينِه من الشُّرورِ والآفات في يومه وليلته، وقد أوصى النَّبيُّ ﷺ عقبة بن عامر بهما وقال له: «يَا عُقْبَةُ! تَعَوَّذْ بِهِمَا، فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا» رواه أبو داود[(٢)]، قال

---

(١) كتاب صلاة المُسَافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم (٨١٤).

(٢) كتاب الصَّلاة، باب في المعوذتين، رقم (١٤٦٣)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

. . . .

ٱبن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حاجة العبد إلى الٱستعاذة بهاتين السُّورتين أعظمُ من حاجته إلى النَّفَس والطَّعام والشَّراب واللِّباس»[١].

والرَّبُّ سبحانه مُتَّصفٌ بالقوَّة والعزَّة، مَنِ ٱعْتَصَمَ به لم يَصِلْهُ أَذَى أَحَد، وتَخَلَّفَ عنه الضَّرَر ولو مع وجود أسبابه، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً، ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ؛ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رواه مسلم[٢]، قال القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا خَبَرٌ صحيحٌ، وقولٌ صادق، عَلِمْنَا صِدْقَه دليلاً وتَجْرِبة؛ فإنِّي مُنْذُ سَمِعتُ هذا الخَبَرَ عَمِلْتُ عليه فلم يَضُرَّنِي شيءٌ إلى أَنْ تركتُه، فَلَدَغَتْنِي عقربٌ بالمَهْدِيَّة[٣] ليلاً، فتفكَّرتُ في نفسي فإذا بي قد نَسِيتُ أَنْ أتعوَّذ بتلك الكلمات»[٤].

والمخلوقُ ضعيفٌ يتعرَّض للأذى، لا يَهْنَأُ في حياتِه إلَّا بالٱعتصامِ واللَّوْذِ باللَّه، ويجبُ على العبد أَنْ يَعْلَم أنَّ الضَّررَ والنَّفعَ بيد اللَّه، وأنَّ مَنْ سَعَى للإضرار بك لا يَتحقَّق له مُنَاه ما

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٩٩).

(٢) كتاب الذِّكر والدُّعاء، بابٌ في التَّعوُّذ من سوء القضاء ودرك الشَّقاء وغيره، رقم (٢٧٠٨)، من حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) المهدية: مدينة عامرة ببلاد الأندلس.

(٤) المُفْهِمُ لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٣٥)، لأبي العباس، أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي.

. . . .

لم يشأ اللّه ذلك، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَٱعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ ٱجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» رواه التِّرمذيُّ[1]، وقد ذكر اللّه ما ضرره ظاهر متحقِّقٌ في رأي العبد وهو السِّحر، ومع ذلك قد يتخلَّف فيه الضَّرر، قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾.

فالٱستعاذة باللّه عبادةٌ من أَجَلِّ العبادات، أَمَرَ اللّه نبيَّه محمَّداً ﷺ أن يستعيذ بفالق الإصباح مِنْ شرِّ جميع المخلوقات، ومِنْ شرِّ الغاسق والسَّاحر والحاسد، والقادرُ على إزالة هذه الظُّلمة عن العالم قادر أنْ يدفعَ عن المستعيذ ما يخافه ويخشاه.

الٱستعاذة بالمخلوق الحَيِّ الحاضِر فيما يَقْدِر عليه

ولا بأس بالٱستعاذة بالمخلوق الحيِّ الحاضر فيما يقدر عليه؛ لحديث جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما: «أَنَّ ٱمْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ، فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ: وَاللَّهِ! لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا؛ فَقُطِعَتْ» رواه مسلم[2]، قال في تيسير العزيز الحميد: «المخلوق يُطلَب

---

(١) أَبْوَابُ صِفَةِ القِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رقم (٢٥١٦)، من حديث عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) كتاب الحدود، باب قطع السَّارق الشَّريف وغيره، رقم (١٦٨٩).

. . . .

منه ما يَقْدِرُ عليه ويُسْتَعَاذ به فيه، بخلاف ما لا يَقْدِرُ عليه إلَّا اللَّه، فلا يُسْتَعاذُ فيه إلَّا باللَّه»(١).

الاْستعاذة بالمخلوق فيما لا يَقْدِر عليه

أمَّا الاْستعاذةُ بالأموات، أو بالغائبين الأحياء، أو بالأحياء الحاضرين على أمرٍ لا يَقْدِرُونَ عليه، فهذا شركٌ أكبر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

فاْجعلْ مسألتَك واْستعاذتَك باللَّه وحده، فلا عَاصِمَ من المَهَالِك سواه، ولا جَالِبَ للنَّفع غيره. ❊

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص٢١١).

. . . .

معنى الاستغاثة

والاستغاثة: هي طلبُ الإغاثة والغَوْث، وهو طلبُ الإنقاذِ من الضِّيقِ والشِّدَّة، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستغاثةُ لا تكونُ إلا بعد الذُّعْر»[(١)].

الفرقُ بين الدُّعاء والاستغاثة

والفرقُ بين الدُّعاء والاستغاثة:

أنَّ الاستغاثةَ لا تكونُ إلا من المكروب.

وأمَّا الدُّعاءُ فهو أعمُّ، يكون من المكروب ومن غيره، فهي أخصُّ من الدُّعاء، فإنَّ دعاءَ المكروب يُقَالُ له: استغاثة.

الفرقُ بين الاستغاثة والاستعاذة

والفرقُ بين الاستغاثة والاستعاذة:

أنَّ الاستعاذة: أَنْ تَطْلُبَ منه أَنْ يَعْصِمَكَ وأَنْ يَمْنَعَكَ وأَنْ يُحصِّنَك.

وأمَّا الاستغاثةُ فهي: أَنْ تَطْلُبَ منه أَنْ يُزِيلَ ما حَلَّ بك من شدَّة.

والاستغاثةُ تتضمَّنُ كمالَ الافتقارِ إلى اللَّه، واعتقادَ كِفَايته، وهي من أفضلِ الأعمال وأكملِها، والمرءُ في هذه الحياة عُرْضة للكروب والكوارث، فمَنِ استغاث بربِّه في كَشْفِ مُلِمَّاتِه؛ فقد أدَّى عبادةً عظيمةً فَزَعَ إليها الأنبياء والصَّالحون عند الشَّدائد فَفَرَّجَ اللَّهُ كروبَهم.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٠).

وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

دليل أنَّ الاستغاثة عبادة

(وَدَلِيلُ الِاسْتِغَاثَةِ) في الجميع أنَّها عبادة؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ﴾) أي: اذكروا نعمةَ اللَّهِ عليكم لَمَّا قَارَبَ التقاؤُكم بعَدُوِّكُم فَقُمْتُم (﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾) وتَطْلُبُونَ منه المَدَدَ والعَوْنَ والنَّصرَ (﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾) وذلك يوم بدر حين نَظَرَ النَّبيُّ ﷺ إلى كَثْرَةِ المشركين، وجَعَلَ يَهْتِفُ بربِّه ويُنَاشِدُه، ويَطْلُبُ منه الغَوْثَ ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، فأَمَدَّه اللَّهُ بالنَّصر على عدوِّه، فقَتَلوا منهم وأَسَرُوا، وظَهَرَ الإسلام، وسُمِّيَ يوم الفرقان.

استغاثة شركيَّة

فدلَّت الآيةُ على أنَّ الاستغاثةَ عبادةٌ من أَجَلِّ العبادات، وأنَّ صرفَها لغير اللَّه - كأَنْ يُسْتَغَاثَ بالأصنام، أو الأموات، أو الغائبين، أو نحوهم - شِرْكٌ به تعالى، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أنواعِه - أي: الشِّرك -: طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتَّوجُّه إليهم؛ وهذا أصلُ شِرْكِ العالَم، فإنَّ الميِّتَ قد انقَطعَ عملُه، وهو لا يَمْلِكُ لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، فضلاً عمَّن استغاث به وسألَه قضاءَ حاجته، أو سألَه أَنْ يَشْفَعَ له إلى اللَّه»[1]، وهذه الاستغاثةُ لا نَفْعَ منها سِوَى الحَسْرَةِ والنَّدامة، وصاحبُها يَجْرِي خلْفَ سَرابٍ لَنْ يَتَحقَّق له مُبْتَغاه، ففي الدُّنيا

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٦).

. . . .

خاسر، وفي الآخرة هالك، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول أبو يزيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ٱستغاثةُ المخلوقِ بالمخلوق كٱستغاثةِ الغَرِيق بالغَرِيق»(١).

فمَنْ دَعَا غيرَ اللَّه وٱلْتَجأَ إليه؛ من الأموات، أو الأحياء الغائبين، فلَنْ يُحقِّقَ له مطلوبه - ولو عَكَفَ على ٱستغاثتِه سنين -، قال سبحانه: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾.

ٱستغاثة جائزة

والٱستغاثةُ بالأحياء الحاضرين القادرين على الإغاثة؛ جائزةٌ فيما يَقْدِرُونَ عليه، قال تعالى - في قصَّة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾.

أمَّا إنزالُ وطلبُ الحوائج منهم وهم غير قادرين، أو من الأموات، أو الغائبين؛ فهي شرك باللَّه.

فإذا حلَّت بك الخطوب، وٱشتدَّت بك الكروب، فٱسْتَغِثْ بعلَّام الغيوب؛ فبِيَدِه مقاليد السَّموات والأرض، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. ❊

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩).

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ....

الذَّبحُ: عبادة

والذَّبحُ لِلَّه من أَجَلِّ الطَّاعات، ومن أفضلِ العبادات المَاليَّة، وأمَارَة على صدق الإيمان، وسُمُوِّ النَّفس لِلَّه؛ لأنَّ الحيوان المذبوحَ مَحْبُوبٌ لأربابه، فإذا بَذَلَه لِلَّه مُتَقَرِّباً به إلى اللَّه، وسَمَحَتْ نفسُه بإذاقة الحيوان الموت، صار أفضل من مطلق العبادات المَاليَّة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما يجتمع في النَّحر إذا قَارَنَه الإيمان والإخلاص من قوَّةِ اليقين وحسن الظَّنِّ به أمر عجيب»[1] من ظهور حلاوة الإيمان على القلب وغير ذلك.

دليل الذَّبح

(وَدَلِيلُ الذَّبْحِ) على أنَّه عبادةٌ عظيمةٌ لِلَّه؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ﴾) تَعَبُّدِي بـ(﴿صَلَاتِي﴾) أي: صلواتي، (﴿وَنُسُكِي﴾) بالذَّبحِ الذي هو بَذْلُ ما تُحبُّه النَّفس من المال، لِمَا هو أحبُّ إليها وهو اللَّه، وَخَصَّ هاتين العبادتين؛ لِشَرَفِهِمَا وفَضْلِهِمَا، ودلالَتِهِمَا على محبَّة اللَّه وإخلاص الدِّين له، فالصَّلاةُ من أَجَلِّ العبادات البَدَنيَّة، والنَّحرُ من أَجَلِّ العبادات المَاليَّة، ومَنْ أَخْلَصَ في صلاتِه ونُسُكِه ٱستلزم ذلك إخلاصه لِلَّه في سائر أعماله وأقواله.

(﴿وَمَحْيَايَ﴾) أي: ما أَعْمَلُه في حياتي، (﴿وَمَمَاتِي﴾) أي: ما أَدَّخِرُه عند اللَّه بعد مماتي.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٢).

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ . . . . .

كلُّ ذلك (﴿لِلَّهِ﴾) وحده (﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾) ومعبودهم (﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾) في العبادة، كما أنَّه ليس له شريكٌ في الملك والتَّدبير.

﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ أي: بإخلاصِ تلك الأعمال لِلَّه ﴿أُمِرْتُ﴾ أمرَ حَتْمٍ يجبُ عليَّ ٱمتثاله، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ من هذه الأمَّة.

فإنَّ مَنْ سخَّر جسدَه بالتَّعبُّد لِلَّه، ومالَه بذبحِ القَرَابِينِ لربِّه؛ فهو المسلمُ حقّاً، وقد أَمَرَ اللَّهُ رسولَه ﷺ بإخلاص تلك العبادتين له؛ لِفَضْلِهِمَا، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي: صَلِّ وٱذْبَحْ لِلَّه لا لغيره، فكما أَنَّ الصَّلاةَ لا يجوزُ أَنْ تُؤدَّى لغير اللَّه، فكذلك الذَّبح لا يجوز إلا لِلَّه وحده.

صورٌ من الذَّبح الشِّركيِّ

ومَنْ هَانَتْ عليه نفسُه، فصَرَفَ عبادته لغير اللَّه - بأَنْ ذَبَح للأصنام، أو للقبور، تعظيماً لها، أو خوفاً منها، أو ٱلْتِمَاساً لشفاعة أَرْبَابِهَا، أو في طريق قدوم سلطان، أو لنحو ذلك -؛ فقد وقع في الشِّرك، ولو كان المذبوحُ بعيراً، أو بقرة، أو شاة، أو دجاجة، أو أصغر من ذلك.

دليلٌ آخر على الذَّبح

(وَ) قد جاءَ الوعيدُ الشَّديدُ فِيمَنْ فَعَلَ ذلك (مِنَ السُّنَّةِ) في قوله ﷺ: (لَعَنَ اللَّهُ) واللَّعْنُ هو: الطَّرْدُ والإبعادُ من رحمة اللَّه،

مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ».

(مَنْ ذَبَحَ) وأَرَاقَ أيَّ دَمٍ **(لِغَيْرِ اللَّهِ)** رواه مسلم[(١)].

فمَنِ ٱسْتَحْوَذَ عليه الشَّيطان وقدَّم القَرَابِينَ لغير خالقه فقد كَفَرَ النِّعمة، وهَضَمَ جَنَابَ ربوبيَّةِ اللَّه، وتَنَقَّصَ ألوهيَّته، وعَظَّمَ غير خالقه، وتعرَّضَ لوعيدِ اللَّه بلَعْنِه وطَرْدِه، لِجُرْمِ ما ٱرتكبه من إِرَاقَةِ الدِّماء بالذَّبح لِمَخْلُوقٍ لا يَستحقُّ أَنْ يَصْرِفَ له أيَّ شيءٍ من أنواع العبادة. ❋

---

(١) كتاب الأضاحي، بَابُ تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَعْنِ فَاعِلِهِ، رقم (١٩٧٨)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتمامه: «وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثاً، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ المَنَارَ».

وَدَلِيلُ النَّذْرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

معنى النَّذر

والنَّذر: إيجَابُ المُكَلَّفِ على نفسِه ما ليس واجباً عليه بأَصْلِ الشَّرع، وهو عبادةٌ يجب إخلاصها لِلَّه.

دليل النَّذر؛ ووجه الدَّلالة

(وَدَلِيلُ النَّذْرِ) على أنَّه عبادة لا يصرف إلا لِلَّه؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى)** في مَعْرِضِ الثَّناء على من وَفَّى بالنَّذر: (﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾) بما أَلْزَمُوا به أنفسَهم من النُّذور، وإذا كانوا يُوفُونَ بما هو غير واجب في الأصل عليهم إلَّا بإيجابِهِم على أنفسهم، ففعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية من باب أولى وأحرى، وهو سبحانه لا يُثْنِي إلا على فَاعلِ عبادة، (﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾) عسيراً، (﴿كَانَ شَرُّهُۥ﴾) أي: ما فيه من الأهوال (﴿مُسْتَطِيرًا﴾) ومنتشراً وقاسياً على النَّاس إلا من رَحِمَ اللَّه، والمسلمُ قلبُه مُعلَّقٌ باللَّه، لا يَصْرِفُ أيَّ نوعٍ من العبادة لغير اللَّه؛ بل يُؤَدِّي جميع العبادات على وجهها، وإِنْ أوجبَ على نفسه شيئاً بالنَّذر فيما لم يُوجِب الشَّارعُ الحكيمُ عليه لم ينذر إلا لِلَّه؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ» رواه البخاريُّ[١].

النَّذر لغير اللَّه شرك

ومَنْ نَذَرَ لغير اللَّه فقد صَرَفَ عبادةً من العبادات لغير اللَّه،

---

(١) كتاب الأَيْمان والنُّذُور، باب النَّذر في الطَّاعة، رقم (٦٦٩٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

. . . .

ووقع في الشِّرك، وهو أعظم من الحَلِف بغير اللَّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمَنَ نَذَرَ لغير اللَّه؛ فهو مشركٌ أعظم من شركِ الحَلِفِ بغير اللَّه»(١).

ومَنْ نَذَرَ لمخلوقٍ لم يَنْعَقِدْ نَذْرُه، ويَحْرُمُ عليه الوفاء به، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النَّذْرُ للقبور أو لأحدٍ من أهل القبور - كالنَّذر لإبراهيم الخليل، أو للشَّيخ فلان، أو فلان، أو لبعض أهل البيت، أو غيرهم - نَذْر معصية لا يجبُ الوفاءُ به بٱتِّفاقِ أئمَّةِ الدِّين، بل ولا يجوزُ الوفاءُ به، فإنَّه قد ثَبَتَ في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ) رواه البخاريُّ»(٢).

وكيف تُصْرَفُ العبادة لمخلوقٍ لا يملك نفعاً ولا يَدْفَعُ ضرّاً؟! هذا من أعظم البهتان!

والنَّذرُ لا يُصْرَفُ إلا لِلَّه، وإنْ نَذَرَ لِلَّه في طاعة وجب الوفاء به.

حكم النَّذر لله

وعَقْدُ النَّذْرِ لِلَّه ٱبتداءً مكروه، وأَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ «أَنَّهُ لَا يَرُدُّ

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٢٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٤٦).

. . . .

شَيْئاً، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ» متفق عليه[1]، ولكن إِنْ نَذَرَ لا يَحِلُّ له أَنْ ينذر إلا لِلَّه فحسب؛ لأَنَّ النَّذرَ عبادة. ❊

(١) البخاري، كتاب القدر، باب إلقاء النَّذرِ العبدَ إلى القدر، رقم (٦٦٠٨)، ومسلم، كتاب النذر، باب النهي عن النَّذر وأنَّه لا يردُّ شيئاً، رقم (١٦٣٩)، من حديث ٱبن عمر رضي الله عنهما.

الأَصْلُ الثَّانِي
مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ، ....

يجبُ على الإنسان معرفةُ ثلاثةِ أصول؛ الأصل الأوَّل: معرفةُ العبد ربَّه - وقد تقدَّم -، وقد بيَّن المُصنِّفُ ﵀ فيه: أنَّ ربَّنا هو اللَّه، وهو معبودنا وحده، وعرفناه بآياته ومخلوقاته، وذكر بعض أنواع العبادة، وأنها لا تُصْرَفُ إلَّا لِلَّه، وأنَّ صَرْفَ أيِّ شيءٍ منها لغيره شرك به تعالى.

الأصل الثَّاني: معرفة دين الإسلام بالأدلَّة

ثمَّ قال المُصنِّف ﵀: (الأَصْلُ الثَّانِي) من أصول الدِّين الَّتي ينبني عليها: (مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ) العظيم الذي خلقنا اللَّه لندين به، وَتَعَبَّدَنَا بالقيام به.

ويجبُ معرفةُ هذا الدِّينِ مع أصولِه التي يبنى عليها (بِالأَدِلَّةِ) من الكتاب والسنة، ليكون الإنسان على نورٍ وبرهانٍ وبصيرةٍ من دينه، فإن لم يكن على حقيقة من دينه فإنَّه يُخْشَى عليه في حياته ويُخْشَى عليه بعد مماته عند سؤال المَلَكَيْن إذا سألاه في القبر أن يحصل له الشَّكُّ، فيجيب بالجواب السَّيِّء، كما في حديث البراء بن عَازِبٍ ﵄، وفيه: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي.

. . . .

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لَا أَدْرِي.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَٱفْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ.

وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[(١)].

بخلاف مَنْ يعرفُ أدلَّةَ دينِه من الكتاب والسُّنَّة، وكان على القولِ الثَّابتِ في الدُّنيا، عاملاً بالدِّين؛ فإنه حَرِيٌّ به أَنْ يقولَ عند سؤالِ المَلَكَيْن: ربِّيَ اللَّه، ودِينيَ الإسلام، ونبيِّي محمَّدٌ ﷺ، كما في حديث البراء بن عَازِبٍ رضي الله عنهما المُتَقَدِّم، وفيه: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ.

(١) أخرجه أحمد، رقم (١٨٨٣٢).

وَهُوَ: الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ، ....

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلَامُ.

فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ؛ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ.

فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الجَنَّةِ.

قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ.

قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ! فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ؛ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

فإنَّ من أسباب الثَّبات عند السُّؤال: معرفة الدِّين بالحجج من الكتاب والسُّنَّة، والعمل به.

(وَ) دينُ الإسلامِ الَّذي تَدِينُ اللَّهَ به (هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ) تعريف الإسلام

بِالتَّوْحِيدِ ....

بالذُّلِّ والخُضُوعِ له تعالى؛ بإفرادِه بالرُّبوبيَّة والخلقِ والتَّدبير، وإفرادِه تعالى **(بِالتَّوْحِيدِ)** بجميع أنواع العبادة.

وحقيقةُ دين الإسلام: هو أَنْ يُسْلمَ العبدُ أفعالَه لِلَّه لا لغيره، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «حقيقةُ الإسلام: أَنْ يَسْتَسْلِمَ لِلَّه لا لغيره، وهو مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)»[١].

والمسلمُ سُمِّي مُسلماً؛ لِخُضُوعِ جوارحِه لطاعةِ ربِّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإسلامُ هو: الٱستسلام، وهو يتضمَّن الخُضُوعَ لِلَّه وحده، والٱنقيادَ له، والعُبوديَّة لِلَّه وحده»[٢].

فالمستسلمُ لِلَّه ولغيره مشرك، والمُمْتَنعُ عن الٱستسلام له مستكبر، ومَنِ ٱسْتَكْبَرَ عن الحقِّ ٱبتلاه اللَّه بٱتِّباع الباطل، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «المستكبرُ عن الحقِّ يُبْتَلَى بالٱنقياد للباطل، فيكون المستكبرُ مشركاً كَمَا ذَكَرَ اللَّه»[٣].

رأس الإسلام وضِدَّاه

والإسلامُ له رَأْسٌ؛ وهو الشَّهادتان، وله ضِدَّان: الكِبر، والشِّرك، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإسلامُ الَّذي هو دينُ اللَّه، الَّذي أَنْزَلَ به كُتُبَه، وأَرْسَلَ به رُسُلَه عليهم الصَّلاة

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢٩).

وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، ....

والسَّلام، وهو أَنْ يُسلمَ العبدُ لِلَّه ربِّ العالَمين، فيستسلم لِلَّه وحده لا شريك له، ويكون سالماً له بحيث يكون متألِّهاً له غير متألِّهٍ لِمَا سواه، كما بيَّنتْه أفضل الكلام ورأسُ الإسلام، وهو: شهادة ألَّا إله إلا اللَّه، وله ضِدَّان: الكِبر، والشِّرك، ولهذا رُوِيَ أنَّ نوحاً عليه السلام أَمَرَ بَنِيهِ بلا إله إلا اللَّه، وسبحانَ اللَّه، ونَهَاهم عن الكِبر والشِّرك، في حديثٍ قد ذَكَرْتُه في غير هذا الموضع، فإنَّ المستكبرَ عن عبادة اللَّه لا يعبده؛ فلا يكون مستسلماً له، والذي يَعْبُدُه ويَعْبُدُ غيرَه؛ يكونُ مشركاً به، فلا يكون سالماً له، بل يكون له فيه شرك، ولفظ الإسلام يتضمَّن الاستسلامَ والسَّلامةَ - الَّتي هي الإخلاص -»[١].

الطَّاعة من الإسلام

(وَ) مع ذُلِّ العبد وخُضوعِه لِلَّه يجب (الِانْقِيَادُ) والإذعان (لَهُ) جل وعلا (بِالطَّاعَةِ) بفعل المأمورات وترك المنهيات امتثالاً لأمر اللَّه، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وقوله ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» متفق عليه[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٢٣).

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول اللَّه ﷺ، =

. . . .

وأعلى المراتب: كمالُ ٱلانقياد، ومَنْ لم يَنْقَدْ لِهَذا الدِّين أَذلَّه اللَّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّه رَفَعَه، فكذلك مَنْ تَكَبَّرَ على الانقياد للحَقِّ أَذَلَّهُ اللَّه وَوَضَعَهُ وصَغَّره وحَقَّره»[1].

أعظم أسباب منع الانقياد

والكِبْرُ من أعظم أسباب منع الانقياد لهذا الدِّين، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ - وهو يَذْكُرُ مَوَانعَ الانقياد -: «السَّببُ الثَّالث: قيامُ مانع، وهو إمَّا حَسَد أو كِبر، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داءُ الأوَّلين والآخرين إلَّا مَنْ عَصَم اللَّه، وبه تخلَّف الإيمان عن اليهود الَّذين شاهَدُوا رسول اللَّه ﷺ وعَرَفُوا صحَّةَ نبوَّتِه، ومَنْ جَرَى مَجْرَاهُم»[2]. ❊

= رقم (٧٢٨٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٣).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٩٩).

وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

حقيقة الإسلام

وممَّا يجبُ على المسلم ٱعتقادُه وفهمُه والعملُ به: أنَّ الإسلامَ هو إفرادُ اللَّه بالتَّوحيد، والٱنقيادُ له بالطَّاعة، (وَالبَرَاءَةُ) أي: أَنْ يَتَبَرَّأَ المسلمُ عملاً وقولاً (مِنَ الشِّرْكِ)، ويَعْتَقِدَ بطلانَه، (وَ) يَتَبَرَّأَ من (أَهْلِهِ) في الٱعتقاد والعمل والمَسْكن، بل مِنْ كلِّ خَصْلَة من خِصَالِهم، ومِنْ كلِّ نِسْبَة مِنَ النِّسَب إليهم، ويكونُ معادياً لهم، غير متشبِّهٍ بهم في قولٍ أو فعلٍ.

الأُسُس التي يقوم عليها الإسلام

فدينُ الإسلام يقومُ على ثلاثة أُسُسٍ يجبُ على المسلم أَنْ يأتيَ بها مجتمعة:

١ - الٱسْتِسْلامُ لِلَّه بالتَّوحيد.

٢ - الٱنقيادُ له بالطَّاعة.

٣ - البراءةُ من الشِّرك وأهلِه.

ركنا التَّوحيد

والبراءةُ من الشِّرك وأهلِه أحدُ رُكْنَي التَّوحيد الَّذي يَنْبَنِي عليه، إذِ التَّوحيدُ قائمٌ على رُكْنَيْنِ لا يحصلُ التَّوحيد إلا بهما، ولا يكون العبدُ موحِّداً إلا بٱجتماعهما معاً، وهما: النَّفيُ والإثبات، ومَنْ فَقَدَ أحدهما فَقَدَ التَّوحيد، فتَنفي العبودية عن غير اللَّه، وتُثبت العبوديَّة لِلَّه وحده، قال سبحانه - مُخْبِراً عن إبراهيمَ عليه السلام آمِراً بالتَّأسِّي به -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فهذا هو الرُّكنُ الأوَّل - وهو البراءةُ من

. . . .

الشِّركِ وأهلِه -، وقوله تعالى بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا هو الإثبات - وهو الرُّكنُ الثَّانِي -، وكقولِه تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذا هو البراء - أي: النَّفي - ﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ هذا هو الإثبات.

حكم مَن يُصَحِّحُ مُعْتَقَدَ المشركين

فكلمةُ التَّوحيد معناها: لا معبود بحق إلا اللَّه، فمَنْ كان يُصلِّي ويصومُ ويحجُّ ويتصدَّق، ولكن يُقِرُّ الشِّرك ويُصَحِّحُ مُعْتَقَدَ المشركين فليس بمسلم؛ لأنَّه لم يَتَبَرَّأْ من الشِّرك وأهلِه.

فيجبُ الجمعُ بين البراءةِ من المشركين، وبين الإيمان باللَّه بإفراد العبوديَّة له وحده، فالَّذي يُصلِّي وهو واقعٌ في الشِّرك لا تَنْفَعُه صلاتُه، لأنَّه لم يَتطهَّر من الشِّرك.

وجوب محبَّة المسلم لدِينه

ويجبُ على العبد مع معرفتِه بهذا الدِّين: محبَّتُه له، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلوبُ مَفْطُورَةٌ على الإقرارِ باللَّهِ تصديقاً به، وديناً له، لكن يَعْرِضُ لها ما يفسدُها، ومعرفة الحقِّ تقتضي محبَّته، ومعرفة الباطل تقتضي بغضه، لِمَا في الفطرة من حبِّ الحقِّ وبغضِ الباطل، لكن قد يَعْرِضُ لها ما يفسدها، إمَّا من الشُّبُهات التي تصدُّها عن التَّصديق بالحقِّ، وإمَّا من الشَّهوات التي تصدُّها عن ٱتِّباعه»[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٨).

. . . .

ويجب على كلِّ مسلمٍ أَنْ يَعْتَزَّ بدينه، فدينُه هو الحقُّ، وما سواه من الأديان فهو باطلٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، وقد أَمَرَ اللَّهُ تعالى رسوله ﷺ أَنْ يُعْلِنَ ذلك للنَّاس في قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فمَنْ هَدَاه اللَّهُ لهذا الدِّين فلْيَفْرَحْ بنِعْمَة اللَّهِ عليه بالهداية، ولْيَسْتَمْسِكْ به، فقوَّةُ العبدِ وعزَّتُه بالدِّين، ولْيَدْعُ النَّاس إليه فهو طريق العباد إلى النَّعيم، قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. ❊

وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.

مراتب الدِّين إجمالاً

(وَهُوَ) أي: الدِّينُ **(ثَلَاثُ مَرَاتِبَ)** أي: منازل: **(الإِسْلَامُ)** مرتبة، **(وَالإِيمَانُ)** مرتبة، **(وَالإِحْسَانُ)** مرتبة.

وأهلُ دين الإسلام لا يَخْلُو حالُهم من إحدى هذه المراتب، وقد ينتقلُ المسلم من مرتبةٍ إلى مرتبةٍ أعلَى منها، أو أدنَى منها على قدر طاعته لِلَّه.

وأوَّل تلك المراتب الإسلام، وأوسطُها الإيمان، وأعلاها الإحسان، ومَنْ وصل إلى العليا فقد وصل إلى ما قبلها؛ فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأمَّا المسلمُ فلا يلزم أن يكون مؤمناً، قال أبو سليمان الخطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأكثرُ ما يَغْلَطُ النَّاسُ في هذه المسألة»(١).

فالمرتبةُ الأولى: هي مرتبة الإسلام، وهي أوسعُها من جهة أهلها، وهي أقلُّ مراتب الدِّين، وهي المرتبةُ الأولى الَّتي يدخل فيها الكافر أوَّل ما يتكلَّم بالإسلام ويُذْعِن له ويَنْقَاد، قال سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾، ولا يُخْرِج العبدَ عن مرتبة الإسلام إلا الكفر باللَّه والشِّرك المُخْرِج من الملَّة.

والمرتبةُ الثَّانية: هي مرتبةُ الإيمان، وهي الَّتي تَلِي مرتبة

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ١٤٤).

. . . .

الإسلام في العلو، وهي أضيقُ من مرتبة الإسلام من جهة أهلها، فدائرةُ الإسلام أوسع من دائرة الإيمان من جهة أهلها، كما أنَّ دائرةَ الإيمان أوسع من دائرة الإحسان.

وكلُّ خَصْلَةٍ من خِصَال الإيمان داخلة في الإسلام، كما أَنَّ كلَّ خَصْلَةٍ من خِصَال الإسلام داخلة في الإيمان، إلَّا ما كان من الأعمال الباطنة؛ فوصفُ الإيمان عليه أغلبُ من وصف الإسلام.

الفرقُ بين الإسلام والإيمان

وما كان من الأعمال الدِّينية الظَّاهرة - كالشَّهادتين والصَّلاة، وأنواع العبادات الَّتي تظهر ويطَّلعُ عليها النَّاس - فوصفُ الإسلام عليها أغلبُ من وصف الإيمان.

والإسلامُ والإيمانُ متلازِمان، فلا بدَّ في الإسلام من إيمانٍ يُصحِّحُه، ولا بدَّ في الإيمان من إسلامٍ يُصدِّقُه، قال ابن أبي شيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يكونُ الإسلامُ إلَّا بإيمانٍ، ولا إيمانَ إلَّا بإسلام»[(١)].

والمرتبةُ الثَّالثة: هي مرتبة الإحسان، وهي أعلَى من مرتبة الإيمان، وهي أضيقُ المراتب، وأهلُها أقلُّ من أهل مرتبتي الإيمان والإسلام، وهي مرتبة عالية عزيزة لا يرتقي إليها إلا عباد اللَّه المحسنون.

---

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي، رقم (٥٨٣).

. . . .

الدَّليل على مراتب الدِّين من القرآن

وهذا التَّفصيل لمراتب الدِّين أخبر به النَّبيُّ ﷺ في حديث جبريل المشهور، وجاء به أيضاً القرآن الكريم، فجعل اللَّهُ الأُمَّةَ على هذه الأوصاف الثَّلاث، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، فالمسلمُ الذي لم يَقُمْ بواجبِ الإيمان هو ظالِمٌ لنفسه، والمقتصدُ: هو المؤمنُ المطلق الذي أدَّى الواجب وتَرَكَ المُحرَّم، والسَّابقُ بالخيرات: هو المُحْسِنُ الَّذي عَبَدَ اللَّهَ كأنَّه يراه، أو يَعْبُدُ ربَّه كأنَّ ربَّه يراه.

تفاضل النَّاس في التَّوحيد

والنَّاسُ يتفاضلون في التَّوحيد تفاضلاً عظيماً، وهم فيه على درجاتٍ بعضها أعلى من بعض، فمنهم مَنْ يدخلُ الجنَّة بغير حسابٍ ولا عذاب، ومنهم مَنْ يدخلُ النَّار - وهم العُصاة الَّذين لم يشأ اللَّه أَنْ يغفر لهم وعامَلَهم بعدله -، فيَمْكُثُون فيها على قدر ذنوبهم ثمَّ يخرجون منها، لأجل ما في قلوبهم من التَّوحيد والإيمان. *

وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

* فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ: ....

(وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ) من مراتب الدِّين الثَّلاث (لَهَا أَرْكَانٌ) لا تقومُ إلا عليها، ومراتب الدِّين لا تتمُّ إلا بأركانها.

المرتبة الأولى، وأركانُها

(فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ خَمْسَةٌ) لا يَستقيمُ إلا بها، ولا يَثْبُتُ بدونها، وهي ما ذَكَرَهُ النَّبيُّ ﷺ في قوله: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ؛ شَهَادَةِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» متفق عليه[1].

قال ابن رجب ﵀: «والمرادُ من هذا الحديث: أنَّ الإسلامَ مبنيٌّ على هذه الخمس، فهي كالأركان والدَّعائِم لبنيانه، والمقصودُ: تمثيلُ الإسلام ببنيان، ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يَثْبُتُ البنيانُ بدونها، وبقيَّة خصال الإسلام كتَتِمَّة البنيان، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان، وهو قائم لا ينتقض بنقص ذلك، بخلاف نقض هذه الدَّعائم، فإنَّ الإسلامَ يزولُ بفقدها جميعاً بغير إشكال، وكذلك يزولُ بفقد الشَّهادتين»[2].

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، رقم (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب قول النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، رقم (١٦)، من حديث ابن عمر ﵄.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٣).

شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، . . . . .

أعظم أركان الإسلام

وقدَّم الأهمَّ فالأهمّ من أركان الإسلام، فبدأ بقطبها، وهي: (شَهَادَةُ)، ومعنى الشَّهادة: الٱعتقاد الجازم، وأُطْلِق على الٱعتقاد لفظ الشَّهادة؛ لبيان أنَّه لا بدَّ من الٱعتقاد الجازم، حتى كأنَّك تشاهد الذي تعتقده، والذي تعتقده وتشهد به هو (أَلَّا إِلَهَ) معبودٌ بحقٍّ (إِلَّا اللَّهُ)، (وَ) تعتقد وتشهد (أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ) ﷺ، أرسله اللَّه للنَّاس كافَّة؛ بشيراً ونذيراً.

معنى الشَّهادة

وهذا أصلٌ عظيمٌ على المسلم أَنْ يعرفه، فإنَّ أصلَ الإسلام الذي يتميَّز به أهل الإيمان من أهل الكفر هو الإيمان بالوحدانيَّة والرِّسالة، وهو شهادة ألَّا إله إلَّا اللَّه وأنَّ محمَّداً رسولُ اللَّه ﷺ، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «أصلُ عَقْدِ التَّوحيد وإثباتِه هو: شهادةُ ألَّا إله إلا اللَّه، وأنَّ محمَّداً رسول اللَّه ﷺ»[١]، وهي مفتاحُ الجنَّة، قال النَّبيُّ ﷺ: «مِفْتَاحُ الجَنَّةِ: شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ»[٢]، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «فإنَّ الشَّهادةَ أصلُ المفتاح، والصَّلاةَ وبقيَّةَ الأركان أسنانُه التي لا يحصل الفتح إلَّا بها، إذ دخولُ الجنَّة موقوفٌ على المِفتاح وأسنانِه»[٣]، قيل لوهب بن مُنَبِّه رحمه الله: «أَلَيْسَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مِفْتَاحُ الجَنَّةِ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لَيْسَ

(١) شفاء العليل (ص٢٨٨).
(٢) أخرجه البزار، مسند معاذ بن جبل رضي الله عنه، رقم (٢٦٦٠).
(٣) الصلاة وحكم تاركها (ص ٦٦).

. . . .

مِفْتَاحٌ إِلَّا لَهُ أَسْنَانٌ، فَإِنْ جِئْتَ بِمِفْتَاحٍ لَهُ أَسْنَانٌ فُتِحَ لَكَ، وَإِلَّا لَمْ يُفْتَحْ لَكَ»(١).

العلاقة بين الشَّهادتين

وجُعِلَتِ الشَّهادتان رُكناً واحداً، ولم تُجعَلْ شهادة ألَّا إله إلَّا اللَّه ركناً، وشهادة أنَّ محمَّداً رسول اللَّه ﷺ ركناً ثانياً؛ لأنَّ هاتين الشَّهادتين أساس صحَّة الأعمال وقبولها، إذ لا يُقْبَلُ العملُ ولا يكون صحيحاً إلَّا بأمرين:

١ - الإخلاص للَّه.

٢ - المتابعة للرَّسول ﷺ.

فإذا وُجِدَ الإخلاص؛ تحقَّقَتْ شهادة ألَّا إله إلا اللَّه، وإذا وُجِدَت المُتَابعة؛ تحقَّقَتْ شهادة أنَّ محمَّداً رسولُ اللَّه ﷺ، ولأنَّ الرَّسولَ مبلِّغٌ عن اللَّه، فالشَّهادةُ له بالرِّسالةِ والعُبوديَّةِ من تمامِ شهادة ألَّا إله إلَّا اللَّه، فالثَّانيةُ تَكْمِلَةٌ للأولى، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «ودينُ الإسلامِ مَبْنِيٌّ على أَصْلَيْن، وهما: تحقيقُ شهادة ألَّا إله إلا اللَّه، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللَّه ﷺ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب الجنائز، بابٌ في الجنائز ومَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه، (٢/ ٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣١٠).

وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ.

(وَ) الرُّكنُ الثَّانِي من أركانِ الإسلام: (إِقَامُ الصَّلَاةِ) أي: أداؤها في وقتها تامَّةً بشروطِها وأركانِها وواجباتِها.

(وَ) الرُّكنُ الثَّالث: (إِيتَاءُ الزَّكَاةِ) أي: أداء ما ٱفترض اللَّه على العبد من الزَّكاة.

(وَ) الرُّكنُ الرَّابع: (صَوْمُ) شهرِ (رَمَضَانَ) بالإمساك عن سائر المفطرات، من طلوع الفجر الثَّانِي إلى غروبِ الشَّمس، ممَّن يجبُ عليه الصِّيام.

(وَ) الرُّكنُ الخامس: (حَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ) أي: قَصْدُ بيتِ اللَّهِ الحرامِ لأداء شعيرة الحجِّ. ❊

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ....

لَمَّا ذَكَرَ المصنِّفُ ﷺ أركانَ الإسلام، شَرَعَ في ذِكْرِ دليلِ كُلِّ ركنٍ فقال:

دليل شهادة ألَّا إله إلَّا اللَّه

(فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ) أي: شهادةِ ألَّا إله إلَّا اللَّه؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾)، وشهادتُه سبحانه هي أعظمُ شهادةٍ في الوجود، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾.

وشَهِدَ سبحانه على أَجلِّ مشهودٍ عليه، وهو ما شَهِدَ به تعالى: (﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾) يستحق العبادة (﴿إِلَّا هُوَ﴾) سبحانه.

(﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) شَهِدُوا بأنَّه لا إله إلا هو، كما شَهِدَ اللَّهُ لنفسِه المقدَّسة بذلك.

(﴿وَأُوْلُواْ﴾) أي: أصحابُ (﴿ٱلْعِلْمِ﴾) شَهِدُوا بذلك أيضاً، فجعل شهادتهم من أكبرِ الأدلة والبراهين على توحيده، وأنَّه يجبُ على المكلَّفين قبول هذه الشَّهادة العادلة الصَّادقة، وهذا فيه أعظمُ حاثٍّ على طلب العلم، فإنَّ اللَّهَ ذَكَرَ شهادتَه وشهادةَ الملائكة وشهادةَ أهل العلم، ففي هذه الشَّهادة رفعةٌ لِأَهل العلم، حيث شَهِدُوا على ما شَهِدَ به ربُّ العالمين، وأيُّ ثناءٍ أشرف من هذا الثَّناء عليهم وتعديلهم، وجَعْلُهم حجَّة على من أنكرها دالٌّ على فضل العلم، والمراد به: العلم الشَّرعي، الذي

قَآيِمًا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ.

هو نور القلوب وقُوتُها، وغيره علم نسبي إضافي، إمَّا إلى أمور دنيوية، أو علوم حسابية وصناعية، أو غير ذلك، وأهله ليسوا من أهل العلم الَّذين ذكر اللَّه شهادتهم، فلا يطلق هذا العلم إلا على العِلم الشَّرعي الدِّيني.

(﴿قَآيِمًا﴾) منصوبٌ على الحال (﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾) بالعدل، أي: قائماً بالعدل في جميع الأحوال.

(﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾) تأكيدٌ لِمَا سبق، (﴿ٱلْعَزِيزُ﴾) الَّذي لا يرام جنابه عظمةً وكبرياءً، (﴿ٱلْحَكِيمُ﴾) في أقوالِه وأفعالِه وشرعِه وقدرِه.

معنى شهادة ألَّا إله إلَّا اللَّه

(وَمَعْنَاهَا) أي: ومعنى كلمة التَّوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: **(لَا مَعْبُودَ)** يَستحقُّ العبادة **(بِحَقٍّ)**، ويجب أَنْ يُؤْتَى في بيان معناها بهذا القَيْد، وهو كلمة **(بِحَقٍّ)**، لأنَّ المعبودات من دون اللَّه كثيرة، ولكنَّها معبودات باطلة - كعبادة أهل القبور، والأشجار، والأصنام -، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، فلا أحدَ منهم يستحقُّ العبادة، بل عبادتهم باطلة، ولا يستحقُّها **(إِلَّا اللَّهُ)** وحده.

فاللَّهُ هو المعبودُ بحقٍّ، وكلُّ مَأْلُوهٍ سوى اللَّه فإلهيَّتُه أبطل

. . . .

الباطل، وهذا هو معنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: نفي الإلهيَّة عن غير اللَّه، وإثباتها لِلَّه وحده.

وليس معناها لا موجودَ إلَّا اللَّه، أو لا يخلقُ ولا يرزقُ إلَّا اللَّه، فإنَّ هذه المعاني لإثبات توحيدِ الرُّبوبيَّة، ولا تُثْبِتُ وحدانيَّة اللَّهِ الَّذي هو إفرادُ اللَّه بجميع أنواع العبادة الذي أُرْسِلَت الرُّسلُ وأُنْزِلَت الكتبُ في تقريره وإيضاحِه.

المشركون مُقِرُّون بتوحيد الرُّبوبيَّة

وتوحيدُ الرُّبوبيَّة قد أَقرَّ به المشركون - كأبي جَهْلٍ، وأضرابه -، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: أنَّه الذي يفعلُ ذلك، ولم ينازعوا فيه، ولا ٱمتنعوا من الإقرار به؛ بل ٱحتجَّ تعالى عليهم بإقرارهم بتوحيد الرُّبوبيَّة على توحيد الإلهية فقال: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: الشركَ به في عبادته، فإنَّهم يعرفون معناها، وأنَّها دلَّتْ على إفراد اللَّه بالعبادة، ولهذا أَنْكَرُوا أَنْ يكونَ اللَّهُ هو المعبود وحده؛ لأنَّهم عَرَفُوا مَدْلُولَها، فإنَّ الإلهَ هو: الَّذي تَأْلَهه القلوب، وتَصْمُدُ إليه بالحبِّ والخوفِ والرَّجاء.

التَّوحيد الذي جاءت به الرُّسل

فالتَّوحيدُ الذي جاءت به الرُّسلُ هو: إفراد الرَّبِّ بالتَّألُّه، الَّذي هو كمالُ الذُّلِّ والخضوعِ والٱنقيادِ له، مع كمالِ المحبَّة

. . . .

والإنابة، وبذل الجهد في طاعته ومرضاته، وإيثار محابِّه ومراده الدِّينيِّ على محبَّة العبد ومراده، فهذا أصلُ دعوةِ الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وإليه دعوا الأمم، وهو التَّوحيد الَّذي لا يَقْبَلُ اللَّه من أحدٍ ديناً سواه، لا من الأوَّلين ولا من الآخرين، وهو الَّذي أمر به رُسلَه عليهم الصَّلاة والسَّلام، وأَنْزَلَ به كُتُبَه، ودعا إليه عباده، وخلق اللَّهُ الجنَّة والنَّار دار الثَّواب والعقاب لأجلِه، وشَرَعَ الشَّرائعَ لتكميلِه وتحصيلِه، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والإلهُ: هو الَّذي يُطَاعُ فلا يُعْصَى؛ هَيْبةً له، وإجلالاً، ومَحبَّةً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكُّلاً عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له، ولا يَصْلُحُ ذلك كلُّه إلا لِلَّه عَزَّ وَجَلَّ، فمَنْ أَشْرَكَ مَخْلُوقاً في شيءٍ من هذه الأمور الَّتي هي مِنْ خصائصِ الإلهيَّة؛ كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، ونَقْصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كلُّه من فروعِ الشِّرك»[1]. *

---

(١) كلمة الإخلاص (ص٢٣).

«لَا إِلَهَ» نَافِياً جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.
«إِلَّا اللَّهُ» مُثْبِتاً العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.
لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

ركنَا كلمة التَّوحيد

وكلمةُ التَّوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تشتملُ على أَمْرَيْنِ هما ركناها؛ النَّفي والإثبات:

فـ(«لَا إِلَهَ») معناها: (نَافِياً) العبدُ (جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) من القبور والأشجار والأحجار وغيرها، فالمُوحِّدُ يعتقد ويقول: أنا لا أَعْبُدُ أيَّ معبودٍ إلَّا اللَّه، فهو الَّذي أَعْبُدُهُ وحده.

ومعنى («إِلَّا اللَّهُ») أي: (مُثْبِتاً العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ)، فلا أَعْبُدُ أحداً غيره.

الاحتجاج بتوحيد الرُّبوبيَّة على توحيد الألوهيَّة

وهو سبحانه (لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ) وألوهيَّته (كَمَا أَنَّهُ) ﷻ (لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ) وربوبيَّته، أي: فكما أنَّه سبحانه المُتفرِّدُ في ملك هذا الكون لا شريك له فيه، فواجبٌ أَنْ يُفْرَدَ في العبادة، فإنَّ مِنْ أظلم الظُّلم أَنْ يُجعلَ المخلوق الَّذي ليس شريكاً لِلَّه في الملك، شريكاً لِلَّه في العبادة - تعالى اللَّه وتقدَّس -، ولهذا يحتجُّ تعالى على مَنْ أَنْكَر أُلوهيَّته بما أَقَرَّ به من رُبوبيَّته.

فإنَّ المُشركَ إذا أَثْبَتَ الرُّبوبيَّةَ لِلَّه ﷻ، لَزِمَهُ من هذا، أَنْ

. . . .

يُثْبِتَ له الألوهيَّة، فكيف نُثْبِتُ بأنَّه هو المُتفرِّد في المُلْك، ولا نُثْبِتُ له أنَّه المُتفرِّد في الوحدانيَّة ونصرف العبادة إلى غيره؟!

فتوحيدُ الرُّبوبيَّة هو الدَّالُّ على توحيد الألوهيَّة ومُسْتَلْزِمٌ له، ولهذا قال: **(كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ)**.

فـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ٱشتملت على أَمْرَيْنِ، هما ركناها: النَّفي «لَا إِلَهَ»، والإثبات «إِلَّا اللَّهُ».

والنَّفيُ المَحْضُ ليس بتوحيد، وكذلك الإثباتُ المَحْضُ ليس بتوحيد، فلا بدَّ من الجَمْعِ بينهما.

شروط كلمة التَّوحيد

ولكلمةِ التَّوحيدِ ثمانيةُ شروط، يجبُ الإتيان بها مجتمعةً مع النُّطق بها، ومَنْ أَخلَّ بشيءٍ منها فقد أَخَلَّ بدينه، وهذه الشُّروطُ هي:

١ - **العلمُ** بمعناها المرادِ منها نفياً وإثباتاً، المُنَافِي للجهل بمعانيها ومقتضياتها، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بلا إله إلا اللَّه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم ما نَطَقَتْ به ألسنتهم، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ» رواه مسلم[1].

---

(١) كتاب الإيمان، باب مَنْ لقيَ اللَّهَ بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنَّة وحُرِّم على النار، رقم (٢٦)، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

. . . .

---

٢ - **اليقينُ** بما دلَّت عليه، المُنَافِي للشَّكِّ بما تدلُّ عليه، بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإنَّ الإيمانَ لا يُغْنِي فيه إلَّا علم اليقين لا علم الظَّنِّ، فكيف إذا دخله الشَّكُّ؟! قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، فٱشترَطَ في صِدْقِ إيمانِهم باللَّهِ ورسولِه، كونهم لَمْ يَرْتَابُوا، وقال النَّبيُّ ﷺ: «أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؛ لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا، إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ» رواه مسلم[1]، وقال النَّبيُّ ﷺ لأبي هريرةَ رضي الله عنه: «مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ؛ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ» رواه مسلم[2].

٣ - **القَبولُ** لمدلولات ومقتضيات هذه الكلمة بقلبه ولسانه، المُنَافِي للرَّدِّ، وقد قصَّ اللَّه علينا ٱنتقامَه ممَّن ردَّها وأَبَاهَا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾، فكان سبب عذابهم هو ٱستكبارهم عن قبول تلك الكلمة.

---

(١) كتاب الإيمان، باب مَنْ لقيَ اللَّهَ بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنَّة وحُرِّم على النار، رقم (٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كتاب الإيمان، باب مَنْ لقيَ اللَّهَ بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنَّة وحُرِّم على النار، رقم (٣١).

. . . .

٤ - **الانقياد** لمعانيها ومقتضياتها من الأوامر والنَّواهي، المُنَافِي للتَّركِ لِمَا دلَّت عليه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ينقاد ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحد ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ» رواه ابن أبي عاصم في السنة[1]، وهذا هو تمام الانقياد وغايته. *

(١) باب ما يجب أَنْ يكون هوى المرء تبعاً لما جاء به النَّبيُّ ﷺ، رقم (١٥)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما.

. . . .

٥ - **الإخلاصُ** في الإيمان بها وما تدلُّ عليه، المُنَافِي للشِّركِ - كأحوال المُرَائِين وغيرهم -، قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾، وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» رواه البخاريُّ[1]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ» متفق عليه[2].

٦ - **الصِّدقُ** في ٱعتقادها في الباطن، المُنَافِي للكذب بما ٱعتقده فيها - كحال المنافقين الذين يَكْذِبُون في ٱعتقادهم -، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقال سبحانه فيمَنْ أَخلَّ بهذا الشَّرط: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، وقال ﷺ:

---

(١) كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، رقم (٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري، كتاب الأطعمة، باب الخَزِيرة، رقم (٥٤٠١)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة فِي التخلُّف عن الجماعة بعذر، رقم (٣٣)، من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

. . . .

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، صِدْقاً مِنْ قَلْبِهِ؛ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ» متفق عليه[(١)]؛ فٱشترط في إنجاء مَنْ قال هذه الكلمةَ من النَّار: أَنْ يقولَها صِدْقاً من قلبِه، فلا يَنْفَعُه مُجرَّد التَّلفُّظ بدون مُوَاطَأة القلب.

٧ - **المحبَّة** لهذه الكلمة، ولِمَا ٱقتضته ودلَّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبغضُ ما ناقض ذلك، المُنَافِية لضدِّها، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

وعلامةُ حبِّ العبد ربَّه: تقديمُ محابِّه وإِنْ خَالَفَتْ هواه، وبُغْضُ ما يبغضه ربُّه وإن مال إليه هواه، قال النَّبيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ» رواه ٱبن أبي عاصم في السُّنَّة[(٢)].

٨ - **الكفرُ** بما سوى اللَّهِ من المعبودات، والبراءةُ من الشِّرك وأهلِه، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾.

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم، كراهية ألا يفهموا، رقم (١٢٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي اللَّه بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه؛ دخل الجنة وحَرُم على النار، رقم (٣٢)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) باب ما يجب أَنْ يكون هوى المرء تبعاً لما جاء به النَّبيُّ ﷺ، رقم (١٥)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما.

. . . .

وقد جُمِعَت هذه الشُّروطُ في قولِ النَّاظِم:

عِـلْـمٌ يَـقِـيـنٌ وَإِخْـلَاصٌ وَصِـدْقُـكَ مَعْ
مَـحَـبَّـةٍ وَٱنْـقِـيَـادٍ وَالـقَـبُـولِ لَـهَـا

وزِيدَ الشَّرطُ الثَّامنُ في قولِ النَّاظِم:

وَزِيـدَ ثَـامِـنُـهَـا الـكُـفْـرَانُ مِـنْـكَ بِـمَـا
سِـوَى الإلَـهِ مِـنَ الأَوْثَـانِ قَـدْ أُلِـهَـا[١]

ولا يُشْتَرَطُ حفظُها وعدُّها، بل يكفي معرفتُها والإتيانُ بمقتضاها، قال حافظ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معنى ٱستكمالها: ٱجتماعها في العبد، وٱلتزامه إياها، بدون مناقضة منه لشيءٍ منها، وليس المرادُ من ذلك عَدُّ ألفاظِها وحفظُها، فكم من عَامِّيٍّ ٱجتمعت فيه وٱلتزمها، ولو قيل له: ٱعْدُدْهَا لم يُحْسِن ذلك، وكم مِنْ حافظٍ لألفاظِها يَجْرِي فيها كالسَّهْم وتَرَاهُ يقع كثيراً فيما يناقضها، والتَّوفيق بيد اللَّه»[٢].

ومَنْ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وعرَفَ معناها، ولكنَّه ٱرْتَكَبَ شيئاً مِنْ نواقضِ الإسلام - كالشِّرك، أو تَولِّي المشركين، أو السِّحر، أو غيرِ ذلك من النَّواقض -؛ فإنَّه يَخْرُجُ من الدِّين، ولو

(١) الدروس المهمَّة لٱبن باز (ص١).
(٢) معارج القبول (١/ ٣٧٧).

. . . .

كان يقولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، إذ لا بدَّ من العمل بمقتضاها وبما دلَّت عليه، قال الشَّيخ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب ﵀: «فَٱعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تُسَمَّى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ؛ فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ»[١]. ❋

---

(١) متون طالب العلم، القواعد الأربع، (ص٢٦).

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾،

دليل تفسير كلمة التَّوحيد

(وَتَفْسِيرُهَا) أي: وتفسيرُ شهادة ألَّا إله إلا اللَّه **(الَّذِي يُوَضِّحُهَا)** ويبيِّنُها بياناً تامّاً؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾)** إمام الحنفاء (﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾) آزر (﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾) الَّذين ٱتَّخذُوا من دون اللَّه آلهة يعبدونهم ويتقرَّبون إليهم، قال لهم: (﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾) أي: بريءٌ ومبغِضٌ ومجتنِبٌ ومعادٍ لكم يا أهل الشِّرك، وكذلك بريء (﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾) من دون اللَّه من الآلهة، وهذا فيه معنى «لَا إِلَهَ».

(﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾) أي: ٱبتدأ خلقي فإنِّي أعبده، وفيه معنى «إِلَّا اللَّهُ»، فٱستثنى من المعبودين ربَّه.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ يُرْشِدُنِي لدينِه القويم، وصراطِه المستقيم، بالهداية للعلم، والعمل بالحق، كما فَطَرَنِي ودبَّرَنِي بما يَصْلُح لديني ودنياي.

وقد أَمَرَنَا اللَّهُ أن نتأسَّى به في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

لا يزال في ذريَّة إبراهيم مَنْ يَدِينُ بالتَّوحيد

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: وجعل الخليلُ إبراهيم عليه السلام كلمةَ التَّوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وما تضمَّنَتْه من إخلاص جميع أنواع العبادة لِلَّه

. . . .

وحده، والتَّبرُّؤ من عبادة كلِّ ما سوى اللَّه ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ ونَسْلِه وذُرِّيَّتِه ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ إليها ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ فيقتدون بمَنْ هداه اللَّه من ذرِّيَّتِه إليها، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَمَرَنا تعالى أَنْ نتَأَسَّى بإمامِ هذا التَّوحيد في نفيِه وإثباتِه»[1].

كلمة التَّوحيد ولاء وبراء

فتبيَّن أنَّ معنى كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هي: البراءةُ مِنْ عبادةِ كلِّ ما سوى اللَّه، وإخلاصُ العبادة بجميع أنواعها لِلَّه وحده، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ العبادَ كلَّهم أن يَعْبُدُوه مخلصين له الدِّين، وهذا هو دينُ الإسلام الَّذي بَعَثَ اللَّهُ به الأوَّلين والآخِرين من الرُّسُل، فلا يَقْبَلُ من أحدٍ ديناً غيره، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾»[2].

مَنْ تلفَّظ بالشَّهادة فقط لا يدخل الجنَّة

و«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تتضمَّن: النَّفي والإثبات، ومَنِ ٱعْتَقَدَ أنَّه بمجرَّد تَلَفُّظِه بالشَّهادة يدخلُ الجنَّة ولا يدخلُ النَّار فقد أخطأ، فإنَّ لكلمةِ التَّوحيد نواقض تُخرِج المرء عن الدِّين ولو كان يقولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ويعلمُ معناها.

أدلَّةٌ أخرى على تفسير كلمة التَّوحيد

وقد بيَّن تعالى معنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» في آياتٍ كثيرة؛ منها:

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

قوله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾، (وَ) منها أيضاً: (**قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿قُلْ﴾) يا محمَّد لليهود والنَّصارى وكذا مَنْ جَرَى مَجْرَاهُم من المشركين: (﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾) مِنَ اليهود والنَّصارى (﴿تَعَالَوْا۟﴾) أَقْبِلُوا وهَلُمُّوا (﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾) واحدةٍ (﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾) أي: عدلٍ وإنصافٍ لا يختلف فيها رسول ولا كتاب، نستوي نحن وأنتم في فرضيَّتها ووجوبها علينا وعليكم، وهي الَّتي يدعو الرُّسل أقوامَهم إليها وهي: (﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾) ولا نُوحِّدَ ولا نفردَ العبادةَ لأحدٍ (﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾) وحده ﷻ.

(﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾) لا وَثَناً، ولا صَنَماً، ولا صَلِيباً، ولا غيرَها؛ بل نُفْرِدُ العبادةَ لِلَّهِ وحده لا شريك له، وهذه دعوةُ جميعِ الرُّسل، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾.

(﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾) أي: لا يُطيع بعضُنا بعضاً في معصية اللَّه كما فعلت اليهود والنَّصارى.

ماذا يفعل مَنْ دعا إلى التَّوحيد إذا اُمتنع المَدْعُوُّون عن ذلك؟

(﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾) وأَدْبروا وأَعْرَضوا عن الإجابة إلى إفراد اللَّه بالعبادة، (﴿فَقُولُوا۟﴾) - يا أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ -: (﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾) مخلصون لِلَّه بالتَّوحيد، ثابتون على الإسلام الَّذي

. . . .

شَرَعَهُ اللَّه لنا ولو خالفتمونا، وصرِّحوا لهم أنَّكم مُسلِمُون وأنَّهم كفَّار، وأنَّكم بَرَاءٌ منهم وهم بَرَاءٌ منكم، وهذا دالٌّ على أنَّه لا بدَّ للمسلم أَنْ يبيِّن ذلك للكفَّار، حتى يتفهَّموا ويتحقَّقوا أنَّهم ليسوا على دينٍ صحيحٍ، وأنَّ دينَ الإسلام خلاف دينهم الَّذي هم عليه، وأنَّ دينَهم خلاف دين الإسلام.

وهذه الآية الكريمة كان النَّبيُّ ﷺ يُكاتِب بها إلى ملوك أهل الكتاب[(١)]، وكان يقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ من سُنَّة الفجر[(٢)]؛ لاْشتمالها على الدَّعوة إلى دينٍ واحدٍ، فقد ٱتَّفق عليها الأنبياءُ والمرسلونَ عليهم الصَّلاة والسَّلام، وَحَوَتْ توحيد الإلهيَّة الَّذي هو عبادة اللَّه وحده، وأَنْ يَعْتَقِدُوا أنَّ البشرَ وجميعَ الخلق لا يستحقُّ أحدٌ منهم شيئاً من خصائصِ الرُّبوبيَّة، ولا من نُعُوتِ الإلهيَّة، فإنِ ٱنقَادَ أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد ٱهْتَدَوْا، وإلَّا فهم في ضلالهم يعمهون. ❋

---

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النَّبيِّ ﷺ النَّاس إلى الإسلام والنُّبوَّة، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللَّه، رقم (٢٩٤٠)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم (١٧٧٣)، من حديث ٱبن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ٱستحباب ركعتي سُنَّة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما، رقم (٧٢٧)، من حديث ٱبن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

دليل شهادة أنَّ محمَّداً رسول اللَّه ﷺ

(وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ) من القرآن؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾) أي: من جنسكم، ليس من الملائكة ولا من الجنِّ، بل بشرٌ تتمكَّنون من مجالسته ومُؤَاكَلَتِه والحديثِ معه، وتَعْرِفُونَ نسبَه، وقد نَالَ أَجَلَّ الصِّفات فيكم - من الأمانة، والصِّدق، والكَرَم، وحُسْنِ الخُلُق، وغيرِ ذلك -، ومَنْ كان كذلك فإنَّ النِّعمةَ بإرسالِه إلى العباد تكون أكبر وأعظم.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾) أي: يشقُّ عليه كلُّ أمرٍ يُعَنِّتُ أُمَّتَه ويُدْخِلُهَا في الآصَار والأغلال.

(﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾) على هدايتِكم وإنقاذِكم من النَّار.

(﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾) وعطوفٌ عليهم، ومحبٌّ لهم كلَّ خير.

ومن الأدلَّة على أنَّ محمَّداً رسول اللَّه: شهادةُ اللَّه له بأنَّه رسولٌ من عنده، قال ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وقد أيَّدَه سبحانه بالآيات البَاهرةِ الدَّالةِ على صِدْقِه،

. . . .

وأعظمُها القرآن الكريم الَّذي أَعْجَزَ أهلَ الأرضِ بفصاحتِه وبلاغتِه.

ومِنَ البراهين على صِدْقِه: نصرُ اللَّه لِمَنِ ٱتَّبعَه ولو كانوا أضعفَ النَّاس، وخذلانُ اللَّه مَنْ عَادَاه وعقوبتُه في الدُّنيا ولو كانوا أكثرَ النَّاس وأقواهم.

وشهادةُ أنَّ محمَّداً رسول اللَّه ﷺ ليس المقصودُ منها التَّلفُّظ بها فقط، بل العمل بما ٱقتضاه معناها، قال ٱبن القيِّم رحمه الله: «الشَّهادةُ لرسول اللَّه بأنَّه نبيٌّ لا تُدخِلُ الإنسانَ في الإسلام ما لَمْ يَلْتَزِمْ طاعتَه ومتابعتَه، فشهادةُ عمِّه أبي طالبٍ له بأنَّه صادق وأنَّ دينَه من خير أديان البَريَّة ديناً لم تُدْخِلْهُ هذه الشَّهادة في الإسلام، ومَنْ تأمَّلَ ما في السِّيَر والأخبار الثَّابتة - من شهادة كثيرٍ من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرِّسالة، وأنَّه صادق، ولم تُدْخِلْهُم هذه الشَّهادةُ في الإسلام - عَلِمَ أنَّ الإسلامَ وراءَ ذلك، وأنَّه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والٱنقياد وٱلتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً»[١]. *

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٦٣٨).

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَٱجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ،

معنى شهادة أنَّ محمَّداً رسول اللَّه ﷺ

(وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ) من الواجبات والمستحبَّات، وقد قَرَنَ اللَّهُ طاعتَه بطاعةِ الرَّسول ﷺ كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.

(وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ) به من أخبار الأمم الماضيَة، أو الأمورِ المستقبلة، فأَخبارُه حقٌّ وصِدْق، لا كَذِبَ فيها ولا خُلْفَ، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمانُ يَرْجِعُ إلى أصلَيْن: طاعةُ الرَّسولِ ﷺ فيما أَمَر، وتصديقُه فيما أخبر»[(١)].

(وَٱجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ) أي: ٱجتنابُ كلِّ ما نهى عنه وحذَّر منه، قال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وقال ﷺ: «إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَٱجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ» متفق عليه[(٢)].

المتابعة للنَّبيِّ ﷺ تُعظِّم التَّوحيد في النَّفس

ويجبُ أَنْ يُعظِّم أمرَه ونهيَه، ولا يُقَدِّم عليه قول أحد، وكلَّما ٱبتعدَ المرءُ عن السَّيِّئات وعَمِلَ الصَّالحات؛ كان مُحقِّقاً للشَّهادتين، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلَّما كان الرَّجلُ

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٤٥١).

(٢) البخاري، كتاب الٱعتصام بالكتاب والسنة، باب الٱقتداء بسنن رسول اللَّه ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

أَتْبَعَ لمحمَّدٍ ﷺ؛ كان أعظمَ توحيداً لِلَّه، وإخلاصاً له في الدِّين، وإذا بَعد عن متابعته نقص من دينه بحسب ذلك، فإذا أكثر بُعْدَهُ عنه ظهر فيه من الشِّرك والبدع ما لا يظهر فيمن هو أقرب منه إلى ٱتِّباعِ الرَّسول ﷺ»[١].

(وَأَلَّا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ) سبحانه في كتابه، وما جاء به رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الزُّهريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنَ اللَّهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ البَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ»[٢].

فأوَّلُ ما يجبُ على العبد: معرفةُ معنى الشَّهادتين مع النُّطقِ بها بلسانه، وأَنْ يعملَ بما دَلَّتْ عليه، ومَنْ عَلِمَ معناها وعَمِلَ بمقتضاها فهو السَّعيد حقّاً، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَسْعَدُ الخلقِ وأعظمُهم نعيماً وأعلاهم درجةً أعظمُهم ٱتِّباعاً وموافقةً له علماً وعملاً»[٣].

فجماعُ دين الإسلام: أَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ وحده لا شريك له، ويَعْبُدَه بما شَرَعَه سبحانه وتعالى من الواجبات والمستحبَّات والمندوبات، ومَنْ سَلَكَ غيرَ طريق المصطفى ﷺ لم يُفْتَحْ له

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٩٨).

(٢) رواه البخاري تعليقاً، كتاب التوحيد، باب قول اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، (٩/ ١٥٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦).

. . . .

الباب، قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطُّرقُ كلُّها مسدُودَة على الخلق، إلَّا على مَنِ ٱقْتَفى أَثَرَ الرَّسولِ ﷺ وٱتَّبَعَ سنَّته ولَزِمَ طريقتَه، فإنَّ طُرقَ الخيرات كلَّها مفتوحة عليه»[1]. ❋

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٢١).

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

دليل الصَّلاة، والزَّكاة، وتفسير التَّوحيد

(**وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ**) المفروضة (**وَالزَّكَاةِ**) على أنَّهما من أركان الإسلام، (**وَ**) دليلُ (**تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ**) الَّذي هو الأساس الذي لا يستقيمُ إسلام عبد إلا به؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾**) أي: الكفَّار في جميع الأزمان (﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾) وحده، (﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾) قاصدين بجميع عباداتهم الظَّاهرة والباطنة وَجْه اللَّه، وطلب الزُّلفى لديه.

(﴿حُنَفَآءَ﴾) أي: مائلين عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام.

(﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾) بأركانها وواجباتها في أوقاتها، وهي أشرف عبادات البدن.

(﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾) المفروضة، وفيها إحسان إلى الفقراء والمحتاجين، وخصَّ الصَّلاة والزَّكاة بالذِّكْر مع أنَّهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لفضلِهما وشرفِهما.

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) أي: التَّوحيدُ والإخلاصُ في الدِّين وإقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاة هو (﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾) أي: الملَّةِ القائمة، والشَّريعةِ العادلةِ المستقيمة، المعتدلةِ على الدِّين المستقيم، فهو الدِّين الموصل إلى جنَّات النَّعيم، وما سواه فطرقٌ موصلةٌ إلى الجحيم.

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

وَدَلِيلُ الحَجِّ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ

دليل الصِّيام

(وَدَلِيلُ الصِّيَامِ) في شهر رمضان المبارك وأنَّه أحد أركان الإسلام الخمسة التي لا يستقيم الإسلام إلا بها؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾) أي: فرض، وذلك في السَّنَة الثَّانية من الهجرة (﴿عَلَيۡكُمُ﴾) - يا أُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ - (﴿ٱلصِّيَامُ﴾) في شهر رمضان (﴿كَمَا كُتِبَ﴾) وفُرِض (﴿عَلَى﴾) الأُمم (﴿ٱلَّذِينَ﴾) سلفوا (﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾).

حكمة فرض الصِّيام

ومِنْ حكمةِ فرضِ الصِّيامِ على جميع الأمم: لِتَنَالَ النُّفوس التَّقوى؛ لذلك قال: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾) لِمَا فيه من زكاةِ النَّفسِ وتطهيرِها وتنقيتها من الأخلاق الرَّديئة، وفي هذا تنشيطٌ لهذه الأمَّة؛ بأنَّه ينبغي لها أَنْ تُنَافِسَ غيرها في تكميل الأعمال، والمسارعةِ إلى صالح الخصال.

دليل الحجِّ

(وَدَلِيلُ الحَجِّ) أنَّه الرُّكنُ الخامسُ من أركان الإسلام؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾) أي: يجب على النَّاس التَّعبُّدُ لِلَّه، ومِنْ ذلك: (﴿حِجُّ﴾) وقَصْدُ (﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾) الحرام الَّذي في مكَّة

مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

المكرَّمة على (﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ﴾) الوصول (﴿إِلَيْهِ﴾) من المكلَّفين (﴿سَبِيلًاۚ﴾) بالقدرة على الذَّهاب بنفسه، وَمِلْكِ الزَّاد، والرَّاحلة، وبأَنْ تجِدَ المرأة مَحْرَماً.

(﴿وَمَن كَفَرَ﴾) بعبادة ربِّه وأعرضَ عنها (﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ﴾) عبادة جميع (﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾)، بل إنَّهم هم المحتاجون إليه، وهو سبحانه غنيٌّ عنهم، كما قال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾. *

* الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ؛ وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، ....

المرتبة الثَّانية: الإيمان

(الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ) من مراتب الدِّين: (الإِيمَانُ؛ وَهُوَ): قولٌ وٱعتقادٌ وعملٌ؛ قولُ اللِّسان، وٱعتقادُ القلب، وعملُ الجوارح، يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية، فدخل فيه جميع المأمورات - سواء كان من الواجبات أو المستحبَّات -، ودخل فيه ترك جميع المنهيَّات، فمَا مِنْ خصلة من خصال الطَّاعات إلا وهي من الإيمان، ولا ترك محرَّم من المحرَّمات إلا وهو مِنَ الإيمان.

شُعَب الإيمان

والإيمانُ (بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً) هذا هو لفظ الحديث الَّذي رواه مسلم[١]، ورواه البخاريُّ بلفظ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ»[٢]، وورد عند مسلم[٣] بروايةٍ أخرى بالشَّكِّ: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ - أَوْ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -»، قال ٱبن حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَكِنْ يُرَجَّحُ بِأَنَّهُ الْمُتَيَقَّنُ»[٤] وهو الأقل، وهو بضع وستون.

والبِضْعُ: من الثَّلاثة إلى التِّسعة.

والشُّعبةُ: الطَّائفةُ من الشَّيء، والقطعةُ منه.

والشُّعبةُ من شُعَبِ الإيمان يَدْخُلُ تحتَها أفرادٌ من الخصال، وكلُّ خصلةٍ من خصال الخير فهي من شُعَبِ الإيمان.

---

(١) كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) فتح الباري (١/ ٥٢).

أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

مراتب شُعَب الإيمان

(أَعْلَاهَا) وأجلُّها وأساسُها: كلمةُ التَّوحيد **(قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**، فهي كلمة الإخلاص، وكلمة الإسلام، وهي العُرْوَةُ الوُثْقَى، وكلمةُ التَّقوى، وأساسُ المِلَّة، ومِفْتَاحُ الجنَّة.

(وَأَدْنَاهَا) أي: أدنى شُعَبِ الإيمان: **(إِمَاطَةُ)** أي: إزالةُ **(الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ)** من شوكٍ وحجرٍ ونحو ذلك ممَّا يتأذَّى المَارُّ به.

(وَالحَيَاءُ): غريزةٌ يَحْمِلُ المرءَ على فِعْلِ ما يُجَمِّلُ ويَزِين، ويَمْنَعُهُ من فِعْلِ ما يُدَنِّسُ ويَشِين، وأَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ «الحَيَاءَ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ» متفق عليه[(١)].

(شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) أي: بعضٌ منه.

وإنَّما جعله بضعة؛ لأنَّ المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي، ولأنَّ الإيمانَ ينقسم إلى ٱئتمار وٱنتهاء، فإذا حصل الٱنتهاء بالحياء كان بعض الإيمان، والحياءُ من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمِها قدراً، بل هو خاصَّة الإنسانية، وفي الحديث: «إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ» رواه البخاري[(٢)].

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، رقم (٦١١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٧)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

(٢) كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (٣٤٨٤)، من حديث أبي مسعود رضي الله عنه.

. . . .

الفرقُ بين مرتبتَي الإسلام والإيمان

ومرتبةُ الإيمان أعمُّ من مرتبة الإسلام من جهة نفسِها، وأخصُّ من جهة أصحابها.

وأهلُ الإيمان هم خواصُّ أهل الإسلام، وأهلُ الإسلام أكثرُ من أهل الإيمان، بخلاف العكس، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾.

فإنَّ مَنْ حَكَمَتْ له النُّصوصُ أنَّه مؤمن فإنَّه مسلمٌ على كلِّ حال، فإنَّ الإيمانَ وصفٌ أعلَى من وصف الإسلام؛ لأنَّه مشتقٌّ من الأمن، فهو من الأمور الباطنة الَّذي يُؤْتَمَنُ عليه ويكون خُفْيَة، والإسلامُ من الأمور المُدْرَكَة المحسوسة في الظَّاهر، مشتقٌّ من التَّسليم، أو من المُسَالَمَة.

فإذا أُطْلِقَ الإيمانُ في النُّصوص دَخَلَ فيه الإسلام، وإذا أُطْلِقَ الإسلامُ لم يَدْخُلْ فيه الإيمان، ومَنْ أُثْبِتَ له الإيمان في النُّصوص فإنَّه ثَابِتٌ له الإسلام.

والمسلمُ لا بدَّ أن يكون معتقداً أركان الإيمان السِّتَّة ليصحَّ إسلامُه، وإلَّا كان منافقاً، وإذا كان المسلمُ معتقداً أركانَ الإيمان السِّتَّة وأَخلَّ بغيرها من واجبات الإيمان فإنَّه لا يستحقُّ أَنْ يُثْنَى عليه الثَّناء المُطْلَق - يعني: الكامل -؛ لأنَّ إيمانَه ناقص، جاء في الدُّرر السَّنِيَّة: «ومَنْ تأمَّلَ النُّصوص: تبيَّن أنَّ النَّاس

. . . .

يتفاضلون في التَّوحيد والإيمان تفاضلاً عظيماً، وذلك بحسب ما في قلوبهم من الإيمان باللَّه، والمعرفة الصَّادقة، والإخلاص، واليقين»[١]. *

(١) الدرر السَّنِيَّة (١/ ٢٠٧).

وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، . . . .

خصائص أركان الإيمان

(وَأَرْكَانُهُ) أي: أركانُ الإيمان وأصولُه الَّتي يُبنى عليها، والتي يزولُ بزوالها **(سِتَّةٌ)**، ويكون بزوال الواحد من تلك السِّتَّة كافراً كفراً يخرج عن المِلَّة، وما عداها من الشُّعب لا يزول بزواله، لكن منها: ما يزول بزواله كمال الإيمان الواجب، ومنها: ما يزول بزواله كمال الإيمان المندوب.

الإيمان باللّه

والرُّكنُ الأوَّل من أركان الإيمان: **(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ)**.

والإيمانُ باللَّه أعظمُ أركانِ الإيمان وأساسُه، وما بعده من الأركان مندرجٌ في هذا الرُّكن، وهو أصلُ الأصول، ويتضمَّن: الإيمانَ بربوبيَّة اللَّه، وبألوهيَّته، وبأسمائِه وصفاتِه.

والإيمانُ بربوبيَّة اللَّه هو: إفرادُ اللَّه بأفعاله - من الخلق، والرّزق، والتَّدبير، والإحياء، والإماتة، وغيرِ ذلك من أفعاله تبارك وتعالى -، فنؤمنُ أنَّه لا يحيي ولا يميت، ولا يخلق ولا يرزق سواه، وهذا هو توحيد الرُّبوبيَّة.

والإيمانُ بتوحيد الألوهيَّة هو: إفرادُ اللَّه بأفعالِ العباد التَّعبُّديَّة؛ فلا يَصْرِفُ العبد أيَّ عبادةٍ لغير اللَّه ﷻ - من الطَّواف، والدُّعاء، وغيرِ ذلك من أنواع العبادة -، ونؤمن بأنَّ عبادةَ مَنْ سواه عبادة باطلة.

وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، . . . .

والإيمانُ بتوحيد الأسماء والصِّفات هو: إثباتُ ما أَثْبَتَهُ اللَّهُ لنفسه من الأسماء والصِّفات، وما أَثْبَتَهُ له رسولُه ﷺ منها، من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تَكْيِيفٍ ولا تمثيل، بل نؤمنُ بأنَّ اللَّهَ ليس كمثله شيء وهو السَّميعُ البصير.

الإيمان بالملائكة

(وَ) **الرُّكنُ الثَّاني** من أركان الإيمان السِّتَّة: أَنْ تُؤْمِنَ بـ(مَلَائِكَتِهِ).

والإيمانُ بالملائكة: أَنْ تُؤْمِنَ بجميعِ الملائكة، وأنَّهم عبادٌ مُكْرَمُون، لا يَسْبِقونَه بالقول وهم بأمْرِه يعملون، نُؤْمِنُ بهم إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التَّفصيلي، وتعييناً في التَّعيين ممَّا ورد في الكتاب والسُّنَّة - كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومَالِك، ومَلَكِ الموت -، وليس لهم من خصائص الرُّبوبيَّة والألوهيَّة شيء، وهم عالَمٌ غيبيٌّ، خُلِقُوا من نور، وعددُهم كثيرٌ لا يعلمه إلا اللَّه.

الإيمان بالكُتُب

(وَ) **الرُّكنُ الثَّالث**: أَنْ تُؤْمِنَ بـ(كُتُبِهِ).

والإيمانُ بالكتب يقتضي: الإيمانَ بجميعِ الكتبِ المنزلة على الأنبياء من السَّماء، إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التَّفصيلي، ونؤمنُ بما سُمِّي منها وهو: القرآن، والزَّبور، والتَّوراة، والإنجيل، وصحف إبراهيم وموسى.

وَرُسُلِهِ، ....

ونُؤْمِنُ بأنَّ الكتبَ السَّابقة كلَّها منسوخة بالقرآن العظيم، وهي غير موجودة الآن، وما يُزعَمُ وجوده فهو مُحَرَّف، فلا يجوز العملُ بشيءٍ منها، ولا التَّحاكُمُ إليها، فإنَّ التَّحاكمَ والعملَ لا يجوز إلَّا إلى القرآن العظيم وما جاء في سُنَّة النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾.

الإيمان بالرُّسل

(وَ) **الرُّكْنُ الرَّابع** من أركانِ الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بـ(رُسُلِهِ).

والإيمانُ بالرُّسل يقتضي: الإيمانَ بجميع الرُّسل إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التَّفصيلي؛ فنؤمن بمَنْ جاء تفصيلهم في الكتاب والسُّنَّة على التَّعيين.

وأعظمُ ذلك: الإيمانُ بنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ.

وممَّن يُؤْمَنُ بهم تفصيلاً: أُولُوا العزم من الرُّسل، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمَّد عليهم الصَّلاة والسَّلام، ونؤمن بغيرهم ممَّن سَمَّى اللَّه في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، ونُؤْمِنُ بمَنْ لَمْ يُسَمَّ في النُّصوص، ولا نُفَرِّقُ بين أحدٍ منهم في الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾.

وَاليَوْمِ الآخِرِ، ....

والإيمانُ بهم فَرْض، وهو: التَّصديقُ بأنَّهم رسلُ اللَّه إلى عباده، صادقون فيما أخبروا به عن اللَّه، وأنَّهم بلَّغوا عن اللَّه رسالاتِه، وبيَّنوا للمُكلَّفين ما أمرهم اللَّه به، وهم بشرٌ مخلوقون، ليس لهم من خصائص الرُّبوبيَّة والألوهيَّة شيء.

الإيمان باليوم الآخر

(وَ) **الرُّكنُ الخامس**: أَنْ تُؤْمِنَ بـ(اليَوْمِ الآخِرِ).

والإيمانُ باليوم الآخر هو: التَّصديقُ بيوم القيامة، وما يكونُ بعد الموت في القبر؛ من العذاب والنعيم، وما في الآخرة؛ من الحساب والميزان، والجنَّة والنَّار، وأنَّ الجنَّةَ دارُ ثوابِه وجزائِه للمحسنين، والنَّارَ دارُ عقابِه للمسيئين.

وأكبرُ ذلك وأعظمُه: الإيمانُ ببعث هذه الأجساد، وإعادتها كما كانت؛ أجساداً بعظامها وأعصابها، حتى يقع الثَّوابُ على هذا الجسد والرُّوح جميعاً على ما فعلا من طاعة اللَّه، أو يعاقَبا على المعاصي الَّتي صَدَرَتْ منهما جميعاً، فنُؤْمِنُ بأنَّ الَّذي أَوْجَدَ هذا الجسد وانفرد بخلقِه يَبْعَثُه حيّاً ويعيدُه كما كان. ❊

وَالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

الإيمان بالقَدَر

(وَ) الرُّكْنُ السَّادسُ من أركان الإيمان: أَنْ تُؤْمِنَ بـ**(القَدَرِ)** أي: بما قدره اللَّه وكتبه من **(خَيْرِهِ)** أي: بما فيه من الخير والسُّرور، **(وَشَرِّهِ)** أي: بما فيه من الشَّرِّ والأحزان.

مراتب القَدَر

والإيمانُ بالقَدَر يتضمَّن الإيمان بأربعِ مراتب يجب ٱعتقادُها والإيمانُ بها:

المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بِعِلْمِ اللَّهِ بالأشياء قبل حدوثها، فإنَّ الرَّبَّ عَلِمَ بعلمِه السَّابق ما هو كائنٌ وما سيكون، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

المرتبةُ الثَّانية: الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ كتب ذلك في اللَّوح المحفوظ، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» رواه مسلم(١).

المرتبةُ الثَّالثة: الإيمانُ بأنَّ ما شاء اللَّهُ كان، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يكن، فلا يقع في مُلْكِ اللَّه إلَّا ما أراده اللَّه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

---

(١) كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما.

. . . .

المرتبةُ الرَّابعة: الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ أَوْجَدَ جميع الخلق، وأنَّ ما في الكون بتقدير اللَّه وإيجاده، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، وقال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾.

ولا يَصِيرُ المرءُ مؤمناً بالقَدَر إلَّا بالإيمان بهذه الأربعة الأشياء، وقد جَمَعَهَا النَّاظمُ في قوله:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينُ

فيجبُ على العبدِ أَنْ يَعْلَمَ أنَّ ما أَصابَه لَم يكن لِيُخْطِئَه، وما أخطأه لَم يكن لِيُصِيبَه، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ» رواه أبو داود(١).

والمؤمنُ بالقدر يُفوِّضُ أُمورَه كلَّها لِلَّه، ولا يَعْتَمِدُ على السَّبب نفسه؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ بقدر اللَّه، وإيمانُه بذلك يُثْمِرُ له الطُّمأنينة والرَّاحة بما يجري عليه من أقدار اللَّه؛ لأنَّ ذلك بقدر اللَّه الذي له ملك السَّموات والأرض، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «عَجَباً لِأَمْرِ المُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ» رواه مسلم(٢). ❁

(١) كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٦٩٩)، من حديث أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه.
(٢) كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كلّه خير، رقم (٢٩٩٩)، من حديث صهيب رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

دليل الأركان الخمسة الأولى

(**وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ**) أي: أركان الإيمان (**السِّتَّةِ**)، وأنَّه لا يستقيمُ إيمانُ العبد إلا بها جميعاً، وأنه متى ٱنتفى واحد منها لَم يكن المرء مؤمناً؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾)، نزلت هذه الآية حين أَمَرَ اللَّه المؤمنين بالتَّوجُّه أوَّلاً إلى بيت المَقْدِس ثم حوَّلَهم إلى الكعبة، شَقَّ ذلك على نفوس طائفةٍ من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل اللَّهُ بيانَ حِكْمَتِه في ذلك، وهو أنَّ المرادَ إنَّما هو طاعةُ اللَّه ﷻ، وٱمتثالُ أوامره، والتَّوجُّه حيثما وُجِّه، وٱتِّباع ما شرع، فهذا هو البِرُّ والتَّقوى والإيمانُ الكامل، وليس في لزوم التَّوجُّه إلى أيِّ جهةٍ من المشرق أو المغرب برٌّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر اللَّه وشرعه، ولهذا قال:

(﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾) أي: ليس هذا هو البِرُّ المقصودُ من العباد (﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾) بٱمتثال أوامر اللَّه، وٱتِّباع ما شرع، وأعظمه ما ذُكر في هذه الآية، أو هذه أنواع البِرِّ كلِّها.

وبدأ بالإيمان بقوله: (﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾) أي: ولكن البِرَّ الإيمان باللَّه، أو: ولكن البِرَّ من آمن باللَّه، أو: ذا البِرِّ برُّ مَنْ

وَدَلِيلُ القَدَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

آمَنَ باللَّه، أي: بتفرُّده ﷻ بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء الحسنى والصِّفات العليا، إِذْ هو أصل الأصول.

(﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾) وهو كلُّ ما أخبر اللَّهُ به في كتابه أو أخبر به الرَّسولُ ﷺ ممَّا يكونُ بعد الموت؛ مِنْ بعثِ الخلائق، وإعادة الأجساد كما كانت، وردِّ الأرواح إليها، وجمع الأوَّلين والآخرين؛ لِيُوفَّى كلُّ عاملٍ ما عمل.

(﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾) الَّذين وصفهم اللَّهُ لنا في كتابه ووصفهم رسولُه ﷺ.

(﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾) وهو ٱسمُ جنسٍ يشمل جميع الكتب المنزلة من السَّماء على الأنبياء، حتى خُتِمَتْ بأشرفِها، وهو القرآن المُهَيْمِنُ على ما قبله من الكتب، ونسخَهَا جميعَها.

(﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾) عموماً، وخصوصاً خاتَمهم مُحمَّداً ﷺ.

دليل الرُّكن السَّادس

(**وَدَلِيلُ القَدَرِ**) على أنَّه ركنٌ من أركان الإيمان لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ إلَّا به؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾**) وهذا شامل للمخلوقات، والعَوَالِم العُلويَّةِ والسُّفليَّة.

(**﴿خَلَقْنَٰهُ﴾**) نحن، لا خالق لها سوانا.

(**﴿بِقَدَرٍ﴾**) أي: أنَّ ما خلقناه مُقَدَّرٌ مكتوبٌ في اللَّوْح المحفوظ بما سبق به علمُنا، وجَرَى به قلمُنا، بوقتِه ومقدارِه، وجميع ما ٱشتمل عليه من الأوصاف.

. . . .

وبعضُ النَّاس لا يَرْضى بما قَسَمَهُ اللَّه له من خير، ويَقْدَحُ بما كُتِب عليه من شَرٍّ، تَسخُّطاً على ربِّه، قال ٱبن القيِّم ﵀: «أكثرُ الخلق؛ بل كلُّهم إلا مَنْ شاء اللَّه، يظنُّون باللَّهِ غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظّ، وأنَّه يستحق فوق ما أعطاه اللَّه، ولسانُ حاله يقول: ظَلَمَنِي ربِّي ومَنَعَنِي ما أستحقُّه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التَّصريح به، ومَنْ فَتَّش نفسَه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامناً كُمُون النَّار في الزِّناد، فٱقدح زناد من شئت يُنْبِئْك شَرَارُهُ عمَّا في زناده، ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتباً على القَدَر، وملامة له، وٱقتراحاً عليه خلاف ما جرى به، وأنَّه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمُسْتَقِلٌّ ومُسْتَكْثِر، وفَتِّشْ نفسَك هل أنتَ سالِم من ذلك؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عظيمَةٍ
وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً»[1]. ❊

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٣٥).

* المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ ....

المرتبة الثَّالثة: الإحسان

(المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ) من مراتب الدِّين: (الإِحْسَانُ)، وهو: نهاية الإخلاص؛ والإخلاصُ: إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظَّاهر والباطن، وهذا هو الإحسان، ولذا يُفَسَّر الإحسانُ بالإخلاص.

وٱشتقاقُه من الحُسْنِ، الَّذي هو: نهاية الإخلاص في القلب، ومن حيث الظَّاهر: كمال المتابعة.

علاقة الإخلاص بالإحسان

وتفسيرُه بالإخلاص؛ تفسيرٌ له بنتيجتِه وثمرتِه، فإنَّ مَنِ ٱتَّصف بذلك فإنَّه يكمل العمل في الظَّاهر والباطن، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإحسانُ هاهنا هو فِعْلُ المأمورِ به، سواء كان إحساناً إلى النَّاس أو إلى نفسه، فأعظمُ الإحسان: الإيمان، والتَّوحيد، والإنابة إلى اللَّه تعالى، والإقبال إليه، والتَّوكُّل، وأَنْ يَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّه يراه؛ إجلالاً، ومَهَابةً، وحياءً، ومحبَّةً، وخشيةً، فهذا هو مقام الإحسان»(١).

وقال ٱبنُ دَقِيقِ العِيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حاصلُه: - أي: الإحسان - راجعٌ إلى إتقانِ العبادات، ومراعاةِ حقوق اللَّه تعالى ومراقبته، وٱستحضار عظمته وجلالته حال العبادات»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٠).

(٢) شرح الأربعين النووية لٱبن دقيق العيد (ص٤٣).

. . . .

الفرقُ بين الإحسان والإيمان والإسلام

والإحسانُ أعلَى المراتب وأعمُّها من جهة نفسها، وأخصُّها من جهة أصحابها، كما أنَّ الإيمانَ أعمُّ من الإسلام من جهة نفسه، وأخصُّ من جهة أصحابه، ولهذا يُقالُ: كلُّ مُحْسِنٍ مؤمنٌ مسلم، وليسَ كلُّ مُسلمٍ مؤمناً مُحْسناً، وإذا أُطْلِقَ الإحسانُ فإنَّه يَدْخُلُ فيه الإيمان والإسلام.

فإنَّ الإسلامَ والإيمانَ والإحسانَ دوائر، أوسعها من جهة أهلها دائرة الإسلام، ثمَّ يليها في السَّعة الإيمان، ثم أضيقها الإحسان، كدوائرَ كلٌّ واحدةٍ منها محيطة بالأخرى، ومعلوم أنَّ مَنْ كان في دائرة الإحسان فهو داخلٌ في دائرتي الإسلام والإيمان، وإذا خرج عن الأُولى فهو داخلٌ في الثانية وهي دائرة الإيمان، وإذا خرج عنها فهو داخل في الثَّالثة وهي دائرة الإسلام، ومَنْ خرج عن هذه الدَّوائر الثلاث فهو خارجٌ إلى غضبِ اللَّه وعقابه، وداخلٌ في دوائر الشَّيطان - والعياذ باللَّه -.

فَظَهَرَ بالتَّمثيلِ بهذه الدَّوائر صحَّة قول من يقول: كلُّ مُحْسِنٍ مؤمنٌ مسلم، وليسَ كلُّ مُسلمٍ مؤمناً مُحْسناً، فلا يلزم من دخوله في الإسلام أَنْ يكون داخلاً في الإحسان والإيمان، وليس المراد أنَّ من لم يكن في الإحسان والإيمان أَنْ يكون كافراً، بل يكون مسلماً ومعه من الإيمان ما يُصحِّحُ إسلامَه؛ لكن لا يكون مؤمناً الإيمان الكامل الَّذي يستحقُّ أَنْ يُثْنَى عليه به الثَّناء المطلق - أي:

. . . .

الكامل -، أمَّا مجرد الثَّناءِ فهو يستحقُّه بقدر ما معه من الإيمان، فإنَّه لو كان مؤمناً الإيمان الكامل لَمَنَعَهُ من المعاصي والمحرَّمات، وقد قيل لِلنَّبيِّ ﷺ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ: أَوْ مُسْلِماً» متفق عليه[1]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» متفق عليه[2]، وقال ﷺ: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ! وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ! وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ! قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» متَّفق عليه[3].

فالنُّصوصُ لم تَنْفِ عنهم الإسلام؛ بل أَثبتتْ لهم أحكام الإسلام من عِصْمَةِ الدَّمِ وغيرِها.

أهل الإحسان

فأهلُ الإحسان هم خواصُّ أهل الإيمان، كما أنَّ أهلَ الإيمان هم خواصُّ أهل الإسلام، فإنَّ أهلَ الإحسان كمَّلوا

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، بابٌ: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، رقم (٢٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، بابٌ: تألف من يخاف على إيمانه، رقم (١٥٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) البخاري، كتاب الحدود، باب لا يشرب الخمر، رقم (٦٧٧٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، رقم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، من حديث أبي شريح رضي الله عنه، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم (٤٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

عبادة اللَّه إلى أَنْ وصلوا إلى حدِّ المراقبة، وأهلُ الإحسان هم الصَّفوة، وهم الخُلَّصُ من عباد اللَّه المؤمنين.

وممَّا يعينُ على الوصول إلى مرتبة الإحسان: كثرةُ ذِكْرِ اللَّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّه - أي: الذِّكرُ - يُورِثُه المراقبةَ حتى يدخِلَه في باب الإحسان؛ فيَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّه يراه، ولا سبيلَ للغافلِ عن الذِّكْر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيلَ للقاعد إلى الوصول إلى البيت»[١].

ومراقبةُ اللَّه هي أصلُ الأعمالِ القلبيَّة، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراقبةُ أساسُ الأعمال القلبيَّة كلِّها، وعمودُها الذي قيامها به»[٢]. *

---

(١) الوابل الصيب (ص٥٢).

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٣).

- رُكْنٌ وَاحِدٌ -، وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

ركن الإحسان

والإحسان (رُكْنٌ وَاحِدٌ) فقط، وهو درجتان:

الدَّرجةُ الأولى ذكرها بقوله: (وَهُوَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ) أي: تَتَعَبَّدَ اللَّه؛ جميع عباداتك وحالك فيها (كَأَنَّكَ تَرَاهُ) أي: كأنَّك ترى ربَّك الَّذي قمت بين يديه.

والدَّرجةُ الثانية: (فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ) أي: تستحضر ذلك في عبادتك، (فَإِنَّهُ) أي: فٱعلم أنَّه (يَرَاكَ) وهي درجة المراقبة، أي: مطلع على جميع خفاياك.

فهاتان درجتان: إحداهما أكملُ من الأخرى، فإنْ لَمْ تُحَصِّلْ عبادة اللَّه كأنَّك تشاهده، فٱعبده مستحضراً أنَّه يراك في كلِّ أعمالك، وأنَّه بصيرٌ عليمٌ بجميع ما تفعله.

أدلّة مرتبة الإحسان

(وَالدَّلِيلُ) على مرتبة الإحسان من القرآن؛ (قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾) ربَّهم بفعلِ الطَّاعات، وتركِ المحرمات.

(﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾) في عبادتهم ربَّهم، وإحسانهم للخلق، فاللَّهُ مع عباده المتَّقين، والذين هم محسنون في العمل؛ يحفظُهم، ويَكْلَؤُهم، ويؤيِّدُهم، وهذه هي المَعيَّة الخاصَّة.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ....

(وَ) دليلٌ ثانٍ على مرتبة الإحسان؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾)** في جميع أمورك (﴿عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾) فإنَّه مُؤيِّدُك وحافظُك، ثمَّ نبَّهَهُ على الاستعانة باستحضار قُرْبِ اللَّهِ والصُّعود إلى منزلة الإحسان، فقال: (﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾) في هذه العبادة العظيمة التي هي الصَّلاة (﴿حِينَ تَقُومُ﴾) إليها.

(﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾) أي: ويراك في صلاتك في حال ركوعك وسجودك وقعودك فيها، وخصَّ الصَّلاةَ بالذِّكْر؛ لفضلِها وشرفِها، ولأنَّ مَنِ استحضر فيها قرب ربِّه؛ خَشَعَ وذَلَّ وأكملها، وبتَكْمِيلِها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ويعلم جميع حركاتك.

(وَ) دليلٌ ثالثٌ على مرتبة الإحسان؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾)** أيُّها العبد (﴿فِى شَأْنٍ﴾) في أيِّ عملٍ من الأعمال.

(﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾) أي: وما تَتْلُو أيَّ آيةٍ من القرآن (﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾) صغيرٍ أو كبيرٍ، (﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾) أي: مُشاهدين ومُطَّلِعين على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم.

إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ الآيَةَ.

(﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾) وقت شروعكم فيه، وٱستمراركم على العمل به إلى حين ٱنقضائكم منه، كلُّ ذلك مطَّلعون عليه.

(الآيَةَ) أي: أكملْ قراءةَ الآية، وتمامُها: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: وما يغيبُ عن عِلْمِه وسَمْعِه وبَصَرِه.

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ وهو صِغار النَّمل ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذَّرَّة.

﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ منها ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ في كتابٍ بيِّنٍ؛ وهو اللَّوْح المحفوظ. ❊

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ المَشْهُورُ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، ....

دليل مراتب الدِّين، وأركان كلِّ مرتبة

(وَالدَّلِيلُ) على مراتب الدِّين الثَّلاث - الإسلام، والإيمان، والإحسان - (مِنَ السُّنَّةِ) النَّبويَّة؛ (حَدِيثُ جِبْرِيلَ المَشْهُورُ) الَّذي قال عنه القُرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَيَصْلُحُ هذا الحديث أَنْ يُقالَ فيه: إنَّه أُمُّ السُّنَّة؛ لِمَا تضمَّنه مِنْ جُمَلِ عِلْمِ السُّنَّة»[1]، وقال عنه النَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «واْعْلَمْ أنَّ هذا الحديث يَجْمَعُ أنواعاً من العلوم والمعارف والآداب واللَّطائِف، بل هو أصلُ الإسلام»[2].

وقد أَخْرَجَ هذا الحديثَ العظيمَ الإمامُ مسلمٌ في صحيحه (عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ثاني الخلفاء الرَّاشدين (قَالَ) حاكياً تلك المحاورة بين أفضل المرسلين محمَّدٍ ﷺ وأفضلِ الملائكة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

(«بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ)، وفي روايةٍ في الصَّحِيحَيْن[3]: «كَانَ النَّبيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ».

(إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ) هو مَلَكٌ في صورةِ رجل.

---

(١) المُفْهِمُ لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/ ١٣٠).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (١/ ١٦٠).

(٣) البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، بابٌ: الإيمان، ما هو؟ وبيان خصاله، رقم (٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، . . .

(شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ) لا دَنَسَ عليها، وفيه دليلٌ على تحسين الثِّياب والهيئة والنَّظافة عند الدُّخولِ على العلماء والفضلاء والملوك.

(شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ) لا غبار على شعره.

والمسافرُ من شأنه أَنْ تكون عليه أَمَارَاتُ السَّفَر، ومع ذلك **(لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ)** من الإعياء، والتَّعَب، وأَثَرِ المَشَقَّة، وتغيُّر الحالِ من السَّفَر.

سبب تعجُّب الصَّحابة رضي الله عنهم

(وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ) فلا أَثَرَ للسَّفَر عليه، ولا يعرفُه الصَّحابة؛ لأنَّه ليس من المقيمين في المدينة، فَعَجِبَ الصَّحابة منه.

(حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ) قريباً منه.

(فَأَسْنَدَ) جبريلُ **(رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ)** أي: إلى رُكْبَتَي النَّبيِّ ﷺ، **(وَوَضَعَ)** جبريلُ **(كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ)** أي: على فَخِذَي النَّبيِّ ﷺ، وجَلَسَ على هَيْئَةِ المُتعلِّم، وفي رواية: «ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رواه الدَّارقطنيُّ[1]، وفي روايةٍ

---

(١) كتاب الحج، باب المواقيت، رقم (٢٧٠٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!

أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، ....

لسليمانَ التَّيميِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فتَخَطَّى حَتَّى بَرَكَ بَيْنَ يَدَي النَّبِيِّ ﷺ كَمَا يَجْلِسُ أَحَدُنَا فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيِ النَّبِيِّ ﷺ»[(١)].

أدبُ الطَّالب

وصَنِيعُه منبِّهٌ للإصغاء إليه، وفيه إشارةٌ لِمَا ينبغي للمسؤول من التَّواضع والصَّفح عمَّا يبدو.

(وَقَالَ) جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: (يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي) وأَعْلِمْنِي (عَنِ) أركان (الإِسْلَامِ)، ما هي؟

أركان الإسلام

(فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ) وتُقِرَّ (أَلَّا إِلَهَ) معبودَ بحقٍّ (إِلَّا اللَّهُ) وحده، (وَ) أَنْ تَشْهَدَ (أَنَّ مُحَمَّداً) هو (رَسُولُ اللَّهِ) ﷺ.

(وَ) أَنْ (تُقِيمَ) أي: تُؤَدِّيَ (الصَّلَاةَ) المفروضة بشروطها وأركانها وواجباتها.

(وَ) أَنْ (تُؤْتِيَ) وتُؤَدِّيَ (الزَّكَاةَ) المفروضة لمستحقيها.

(وَ) أَنْ (تَصُومَ) شهر (رَمَضَانَ) المبارك.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١/ ١١٦).

وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ ٱسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، . . . .

(وَ) أَنْ (تَحُجَّ) أي: تقصدَ (البَيْتَ) الحرام (إِنِ ٱسْتَطَعْتَ) السَّير (إِلَيْهِ) أي: إلى البيت، (سَبِيلاً) أي: طريقاً متيسراً من زادٍ وراحلةٍ ووجود المَحْرَم للمرأة، لقول النَّبيِّ ﷺ: «لَا تُسَافِرِ المَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ ٱمْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي ٱكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: ٱنْطَلِقْ، فَحُجَّ مَعَ ٱمْرَأَتِكَ» متفق عليه[(١)].

وقد أَوْجَبهُ اللَّه في العُمر مرَّةً واحدة، وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ فضلَه بقولِه: «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ؛ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» متفق عليه[(٢)].

وهذه الأركان الخمسة هي الإسلام، وفي روايةٍ لأحمد[(٣)]: «فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا مُسْلِمٌ؟ قَالَ: إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتَ».

وهذا هو دليلُ المرتبة الأولى، وفسَّرَهُ بأعمالِ الجوارح الظَّاهرة، والإسلامُ هو الدِّين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ

---

(١) البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب حج النساء، رقم (١٨٦٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم (١٣٤١)، من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري، أبواب المحصر وجزاء الصيد، باب قول اللَّه عز وجل: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾، رقم (١٨٢٠)، ومسلم، كتاب الحج، بابٌ: في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، رقم (١٣٥٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رقم (٢٩٧٢)، من حديث عبد اللَّه بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما.

قَالَ: صَدَقْتَ - فَعَجِبْنَا لَهُ، يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ -.

ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾، وهو الصِّراطُ المُستقيم الَّذي أمر اللَّه بالٱستقامة عليه.

(قَالَ) جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **(صَدَقْتَ)** يا مُحمَّد!

تعجُّب آخر من الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

(فَعَجِبْنَا لَهَ) ولِصَنِيعِه هذا؛ **(يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ)**، وسببُ عجب الصَّحابة من هذا السَّائل؛ لأنَّ من شأنِ السَّائلِ أَنْ يَجْهلَ ما يَسأَلُ عنه، ولكن السَّائل هنا يسأل النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويصدِّقه، فكأنَّه خَبيرٌ بالجواب! ولأنَّ ما جاء به النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُعْرَف إلَّا من جهته، وليس هذا السَّائل ممَّن عُرِف بلقائِه بالنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وٱجتماعِه به ولا بالسَّماع منه، بل هو غريبٌ عنهم، ثم هو قد سَأَلَ سؤالَ عارفٍ محقِّقٍ مصدِّق؛ فتعجَّبُوا من ذلك. ❊

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟

قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،

ثمَّ (قَالَ) جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (فَأَخْبِرْنِي) يا محمَّد! (عَنِ الإِيمَانِ)، ما هو؟

أركان الإيمان

(قَالَ) محمَّدٌ ﷺ: الإيمانُ هو: (أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ) بربوبيَّته، وأُلوهيَّته، وأسمائِه وصفاتِه، والإيمانُ باللَّه هو أصلٌ للإيمان ببقيَّة أركان الإيمان، وكلُّ ما عداه من الأركان داخلة فيه.

(وَ) أَنْ تُؤْمِنَ بـ(مَلَائِكَتِهِ)؛ إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التَّفصيل، بأسمائهم وأعمالهم، وما أُوكل إليهم، وأنَّهم عبادٌ مُكْرَمُون لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُون.

(وَ) أَنْ تُؤْمِنَ بـ(كُتُبِهِ)؛ بأنْ تُؤْمِنَ بكلِّ كتابٍ أنزله اللَّه على رسله - كالتَّوراة، والإنجيل، والزَّبور، وصحف إبراهيم وموسى -، وأنَّ جميعَها منسوخٌ بالقرآن العظيم، وأنَّه قد دخل في الكتب السَّابقة التَّصحيف والتَّحريف.

(وَ) أَنْ تُؤْمِنَ بـ(رُسُلِهِ)؛ بأنَّ اللَّهَ ٱصطفى من البشر رُسلاً يَهدون النَّاس إلى الحقِّ، تؤمن بهم إجمالاً في الإجمال، وتفصيلاً على التَّفصيل، فتؤمن بمَنْ عرفت أسماءهم ومَنْ لم تَعْرِفْ أسماءهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾.

وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟

(وَ) أَنْ تُؤْمِنَ بـ**(اليَوْمِ الآخِرِ)**، وتصدِّق بكلِّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة ممَّا يكون بعد الموت.

(وَ) أَنْ **(تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ)** وما كَتَبَهُ اللَّه فيه، من **(خَيْرِهِ)** ممَّا فيه من فَرَحٍ وسُرور، **(وَ)** مِنْ **(شَرِّهِ)** ممَّا فيه من مَرَارةٍ وأحزان، من غير جزعٍ عليه ولا تسخُّط، فكلُّ ما كان وسيكون فهو بقضاءِ اللَّه وقدره ومشيئتِه وإرادتِه، وإعادة كلمة **(وَتُؤْمِنَ)** عند القدر؛ للاهتمام بشأنه، وفي روايةٍ لأحمد[1]: «وَتُؤْمِنَ بِالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالحِسَابِ، وَالمِيزَانِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ كُلِّهِ؛ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتُ؟ قَالَ: إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتَ».

(قَالَ) جبريلُ عليه السلام: **(صَدَقْتَ)**.

وهذا دليلُ المرتبة الثَّانية، وهي الإيمان، وفسَّرَهُ بالأعمال الباطنة، ودلَّ الحديث على أنَّ الإسلامَ والإيمانَ إذا اقترنا: فُسِّر الإسلامُ بالأعمال الظَّاهرة، والإيمانُ بالأعمال الباطنة.

(قَالَ) جبريلُ عليه السلام: **(فَأَخْبِرْنِي)** يا محمَّد! **(عَنِ الإِحْسَانِ)**، ما هو؟

---

(١) رقم (٢٩٧١)، من حديث عبد اللَّه بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما.

قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

ركن الإحسان

(قَالَ) النَّبيُّ ﷺ: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) أي: يغلب عليك مشاهدة الحقِّ بقلبك، حتى كأنَّك تَرَاهُ بعينك، ومَنْ كانَ كذلك فإنَّه يأتي بالعبادة على التَّمامِ والكمال.

(فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ) أي: إن لم تستحضر أنَّك ترى اللَّه، (فَـ)ٱنتقل إلى المرتبة الثَّانية من مراتب الإحسان وهي ٱستشعار رؤية اللَّه لك، لذا قال فـ(إِنَّهُ) تعالى (يَرَاكَ)، ومطَّلعٌ عليك في كلِّ ما تعمل، لا يخفى عليه منك خافية.

وهذا القَدْرُ من الحديث أصلٌ من أصول الدِّين، وقاعدةٌ مهمَّةٌ من قواعد العلم، وهو مِنْ جوامع الكَلِمِ الَّتي أُوتِيها النَّبيُّ ﷺ، فإنَّ إحسانَ العبادة هو: الإخلاصُ فيها، والخشوع، وفراغُ البال حال التَّلبُّس بها، ومراقبته.

وأشار في الجواب إلى حالتين:

أعلاهما: أَنْ يَغْلِبَ عليه مشاهدة الحقِّ بقلبه حتى كأنَّه يراه.

والثَّانية: أَنْ يَسْتَحْضِرَ الحقَّ تعالى مطَّلِعاً عليه ويَرى كلَّ ما يعمل.

وهاتان الحالتان تثمرهما معرفة اللَّه وخشيته، وفي رواية:

• •

«أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» رواه مسلم[١]، فجعل النَّبيُّ ﷺ هذا هو الإحسان، وهو دليل المرتبة الثَّالثة.

ففي هذا الحديث دليلٌ على هذه المراتب الثَّلاث، وأنَّ أركانَها هي ما عدَّها المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ❊

(١) كتاب الإيمان، باب الإسلام، ما هو؟ وبيان خصاله، رقم (١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

قَالَ: مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟

قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، ....

(قَالَ) جبريلُ عليه السلام: (فَأَخْبِرْنِي) يا محمَّد! (عَنِ السَّاعَةِ)، متى تقوم؟

عِلمُ السَّاعة

(قَالَ) النَّبيُّ ﷺ: (مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا) يَقْصدُ النَّبيُّ ﷺ نفسه (بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ) وهو جبريل، أي: أنا وأنت سواء في العلم بها، كِلَانَا لا يعرف متى تقوم؟ فعِلْمُها عند اللَّه وحده، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، فالخلقُ كلُّهم حتَّى الملائكةُ والرُّسُلُ لا يعلمون متى تقوم، فوقتُها ممَّا ٱسْتَأْثَرَ اللَّهُ تعالى بعِلْمِه، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

(قَالَ) جبريلُ عليه السلام: فإن لَمْ تعلم متى تقوم السَّاعة: (فَأَخْبِرْنِي) يا محمَّد! (عَنْ أَمَارَاتِهَا) وعلاماتِها التي تَسْبقُ قيامها.

(قَالَ) محمَّدٌ ﷺ: من علاماتِ السَّاعة: (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ) الرَّقيقة من الجَواري (رَبَّتَهَا) أي: سيِّدَها، والمعنى: أَنَّ الأَمَةَ تَلِدُ لسَيِّدِها ولداً فيكون الوَلَدُ كأنَّه سيِّدٌ لها؛ لأنَّه حُرٌّ كَأَبيه أَمَّا هي

معنى: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا»

وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ.

قَالَ: ثُمَّ ٱنْطَلَقَ ....

فلا تَزَال أَمَة، وهذا إخبارٌ عن كَثْرةِ الإِمَاءِ وأولادِهنَّ.

(وَ) من أَمَارَاتِهَا: **(أَنْ تَرَى)** وتُشَاهِدَ **(الحُفَاةَ)** الَّذين لا نِعَالَ عليهم، **(العُرَاةَ)** الَّذين لا ثِيابَ تَسْتُرُهم، **(العَالَةَ)** الفقراء، **(رِعَاءَ)** أي: رعاة **(الشَّاءِ)** أي: الغنم، **(يَتَطَاوَلُونَ)** أي: يتنافسون **(فِي البُنْيَانِ)** ويَتَفَاخَرُونَ به، بعد أَنْ كانوا فقراء رعاة أغنام، ومعناه: أنَّ أهلَ البَادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تُبسَطُ لهم الدُّنيا حتى يَتَبَاهَوْا في البنيان، قال ٱبنُ دَقِيقِ العِيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما خَصَّ رِعَاء الشَّاةِ بالذِّكر، لأنَّهم أضعفُ أهلِ البادية»[1]، والمرادُ: أنَّ أسافلَ النَّاس يصيرون رؤساء، وتَكْثُرُ أموالُهم حتَّى يَتَبَاهَوْا بطول البنيان وزَخْرَفَتِه، وفي الحديث: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَٱنْتَظِرِ السَّاعَةَ» رواه البخاريُّ[2]؛ لأنَّه يفسد نظام الدِّين والدُّنيا، وهذا كلُّه من تغيُّر الأحوال في آخر الزَّمان، وٱنعكاس الأمور.

(قَالَ) عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **(ثُمَّ ٱنْطَلَقَ)** أي: خَرَجَ

---

(١) شرح الأربعين النووية لٱبن دقيق العيد (ص٤٤).

(٢) كتاب العلم، باب من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه، فأتمَّ الحديث ثمَّ أجاب السَّائل، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فَلَبِثْتُ مَلِيّاً، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

جبريل، **(فَلَبِثْتُ)** جَلَسْتُ متعجِّباً **(مَلِيّاً)** وقتاً طويلاً، **(ثُمَّ قَالَ لِي)** النَّبيُّ ﷺ بعد ٱنصراف جبريل: **(يَا عُمَرُ)** بن الخطَّاب! **(أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ)** الَّذي كان يَسْأَلُ وأنتُم حاضرون؟

الجواب عمّا لا يعلم

(قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)؛ لأنَّ الرَّجلَ غريبٌ لا نَعْرِفُه ولم نَرَه من قبل، وهذا فيه أدب أَنَّ مَنْ سُئِلَ عمَّا لا يَعْلَم أَنْ يكِلَ العلمَ إلى عالمه، ولا يتكلَّف ما ليس له به علم، فما عَلِمَه يجيبُ عنه، وما لا يَعْلَمُه يقول فيه: (اللَّهُ أَعْلَم).

حكم قول: «اللَّهُ ورسولُه أَعْلَم»

وفي حياةِ النَّبيِّ ﷺ يجوز أن يقول في أمرِ الدِّين: (اللَّهُ ورسولُه أَعْلَم)؛ لنزولِ الوحي على النَّبيِّ ﷺ، أمَّا بعدَ وفاتِه فمَنْ سُئِلَ عن شيءٍ وهو لا يَعْلَمُه فإنَّه يقتصر على قوله: (اللَّهُ أَعْلَم).

أهمِّيَّة حديث جبريل

(قَالَ) النَّبيُّ ﷺ: **(فَإِنَّهُ)** أي: السَّائل الَّذي أتاكم، هو **(جِبْرِيلُ)** أفضلُ الملائكة، **(أَتَاكُمْ)** متمثِّلاً في صورة رجل لِـ**(يُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ)** أي: لتَتَعَلَّمُوا أُسُسَ دِينِكم بتلك الأسئلة العظيمة التي كان يسألها، فأخبر أنَّ ما ذُكر في هذا الحديث هو أمرُ الدِّين وأساسُه، فإنَّه قد ٱشتمل على أصول الدِّين والعقائد، بل ٱنحصرت العلوم الشَّرعية في هذا الحديث، ورجعت كلُّها إليه، وعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة عليه.

. . . .

وَشَرَفُ هذا الحديثِ وجلالتُه أَمْرٌ مُجْمَعٌ عليه، قال ٱبنُ دَقِيقِ العِيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مذهب السَّلف وأئمَّة الخلف: أنَّ مَنْ صدَّق بهذه الأمور - يعني: المذكورة في الحديث - تصديقاً جازماً لا ريب فيه ولا تَرَدُّد، كان مؤمناً حقّاً، سواء كان ذلك عن براهين قاطعة، أو عن ٱعتقادات جازمة»[١]، وقال عنه القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ٱشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظَّاهرة والباطنة، من عقود الإيمان ٱبتداءً وحالاً ومآلاً، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السَّرائر، والتَّحفظ من آفات الأعمال، حتى إنَّ علومَ الشَّريعة كلها راجعة إليه، ومتشعِّبة منه»[٢]. ❊

---

(١) شرح الأربعين النووية لٱبن دقيق العيد (ص٤٢).

(٢) فتح الباري ١/ ١٢٥.

الأَصْلُ الثَّالِثُ

مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، ....

الأصل الثَّالث: معرفة النَّبيِّ ﷺ

(الأَصْلُ الثَّالِثُ) من أصولِ الدِّينِ الثَّلاثةِ الَّتي يجبُ على الإنسان معرفتُها:

(مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ)، وهو أصلٌ عظيمٌ يجب معرفتُه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ٱضطرارُ العبادِ فوق كلِّ ضرورةٍ إلى معرفة الرَّسُولِ ﷺ، وما جاءَ به، وتصديقِه فيما أخبر، وطاعتِه فيما أمر»[١]، فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام هو الوَاسطةُ بيننا وبين اللَّه، ولا طريق لنا لمعرفة ما يُنجِّينا من غضب اللَّه وعقابِه، ويقرِّبُنا من رضى اللَّه وثوابه، إلَّا بما جاء به نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالنُّفوسُ أحوجُ إلى معرفةِ ما جاء به ﷺ وٱتِّباعِه منها إلى الطَّعام والشَّراب، فإنَّ هذا إذا فات حَصَلَ الموت في الدُّنيا، وذاك إذا فات حَصَلَ العذاب»[٢]، وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطُّرقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلق إلَّا على من ٱقتفى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ»[٣].

أهمِّيَّة معرفة النَّبيِّ ﷺ

ولا صلاح للعالَم إلَّا بالرِّسالة، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرِّسالةُ ضروريَّةٌ للعباد، لا بُدَّ لهم منها،

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٥).
(٣) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٣٨٩).

. . . .

وحاجتُهم إليها فوقَ حاجتِهم إلى كلِّ شيء، والرِّسالةُ روحُ العالَم ونورُ حياته»[(١)].

واللَّهُ أرسلَ الرُّسلَ رحمةً للعباد، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ٱقتضت رحمةُ العزيزِ الرَّحيمِ أنْ بَعَثَ الرُّسلَ به معرِّفين، وإليه داعين، ولِمَنْ أجابَهم مبشِّرين، ولمَنْ خالفَهم مُنْذِرين، وجعلَ مِفتاحَ دعوتِهم وزبدةَ رسالتهم معرفة المعبود سبحانه، بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذْ على هذه المعرفة تَنْبَني مطالبُ الرِّسالة جميعها»[(٢)].

وجه كون معرفة النَّبيِّ ﷺ من أصول الدِّين

وإذا كان كذلك؛ عَرَفْنَا وجهَ كون معرفةِ النَّبيِّ ﷺ أحد الأصول الثَّلاثة الَّتي يجب معرفتُها؛ فإنَّا لا نَعْرِفُ الأصلَ الأوَّلَ - الَّذي هو معرفةُ الرَّبِّ -، ولا الأصلَ الثَّاني - الَّذي هو دينُ الإسلام -؛ إلَّا بالواسطة بيننا وبين اللَّه، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كانت سعادة العبد في الدَّارَيْن معلَّقة بهدي النَّبيِّ ﷺ، فيجب على كلِّ مَنْ نَصَحَ نفسَه، وأَحَبَّ نجاتها وسعادتها، أَنْ يَعْرِفَ مِنْ هَدْيِهِ وسِيرَتِه وشأنِه ما يخرج به عن الجاهلين به، ويَدْخُلُ به في عِدَادِ أتباعِه وشِيعَتِه وحِزْبِه، والنَّاسُ في هذا بين

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٣).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٠).

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ....

مُسَتقلٍّ ومُسْتَكْثِرٍ ومَحْرُوم، والفضلُ بيد اللَّه يؤتيه من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم»[١].

ما تَنْتَظِمُهُ معرفة النَّبيِّ ﷺ

ومعرفتُه ﷺ تَنْتَظِمُ أشياءَ عديدة؛ منها:

معرفةُ ٱسمِه، ونسبِه، وعُمُرِه، وزمنِ نبوَّتِه ورسالتِه، ومعرفةُ ما نُبِّئَ به، وما أُرْسِلَ به، وبلدِه، ومُهَاجَرِه، ووَفَاتِه.

ومنها - وهو أعظمُها -: معرفةُ ما بُعِثَ به، وغير ذلك ممَّا ذَكَرَ المُصنِّفُ وغيره.

نسب النَّبيِّ ﷺ

(وَهُوَ) أي: نَسَبُ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ، (مُحَمَّدُ) ومعناه: الَّذي يُحمَد أَكْثَرَ مما يُحمَد غيره، وله عدَّة أسماء لكن هذا أشهرُها وأفضلُها وأعظمُها، ولهذا جاء في القرآن بهذا الٱسم، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، وقوله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾.

ولقبُه: أبُو القَاسِم.

وهو محمَّدُ (بْنُ عَبْدِ اللَّهِ)، ووالدُه لَمْ يُدْرِك النَّبوَّة، ومات على الكفر، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: فِي النَّارِ، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» رواه مسلم[٢].

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٦٩).

(٢) كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقربين، رقم (٢٠٣).

ٱبْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ العَرَبِ، وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ -.

وهو محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّه **(بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ)** وٱسمُه: شَيْبَة، ويُقالُ له: شَيْبَةُ الحَمْد، لِجُودِه وجِمَاعِ أَمْرِ قُرَيش إليه، وإنما سُمِّي بعَبْدِ المطَّلب؛ لأنَّ عمَّه المطَّلب قَدِمَ به مكَّة وهو رَدِيفُه وقد تَغيَّر لونُه بالسَّفَر، فَحَسِبُوه عَبْداً له، فقالوا هذا: عَبْدُ المطَّلب، أي: عبدٌ للمطَّلب، فَعَلِقَ به هذا الٱسم.

وهو محمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ المطَّلب **(بْنِ هَاشِمٍ)**، وٱسمُه: عَمْرٌو، وإنما سُمِّي هاشماً؛ لِهَشْمِه الثَّريدَ مع اللَّحم لِقَوْمِه في أعوام الجُوع.

(وَهَاشِمٌ مِنْ) قبيلة **(قُرَيْشٍ)**، وهي أَشْهَرُ وأشرفُ قبائلِ العرب.

(وَقُرَيْشٌ) أصلُها **(مِنَ العَرَبِ)**، فهي قبيلة عربيَّة.

(وَالعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ) أي: من سُلَالةِ **(إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ)** أبي الأنبياء، **(عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا)** محمَّدٍ **(أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ)**.

فإبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد كِبَر سِنِّه وَهَبَه اللَّهُ ولداً سمَّاه إسماعيل، وإسماعيلُ هو المُلقَّبُ بالذَّبيح، وعاش مع العرب، ثمَّ مِنْ بعدِه

. . . .

وَهَبَهُ اللَّه إسحاق، وخَرَجَ مِنْ نَسْلِ إسماعيل نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ، وخرَجَ بقيَّةُ الأنبياء من نَسْلِ إسحاق، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لذا سُمِّي إبراهيم عليه السلام أبا الأنبياء، لأنَّ الأنبياءَ بعدَه من نَسْلِه، إمَّا من طريق إسماعيل، وهو محمَّدٌ ﷺ، أو من طريق إسحاق، وهم جميعُ الأنبياءِ عدا نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَٱصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَٱصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَٱصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» رواه مسلم[١].

فنبيُّنا أشرفُ النَّاس نسباً، فهو هاشميٌّ قُرَشيٌّ، وهكذا الرُّسل تُبْعَثُ مِنْ أَكْرَمِ قومِها أحساباً. ❊

---

(١) كتاب الفضائل، باب فضل نسب النَّبيِّ ﷺ، رقم (٢٢٧٦)، من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً - مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، . . . .

ولادة النَّبيِّ ﷺ

وخلال حَمْل أُمِّ النَّبيِّ ﷺ به تُوفِّيَ والدُه، ووُلِد عليه الصَّلاة والسَّلام عام الفيل يوم الاثنين، وفي يومِ الاثنين بُعِث، وفيه عُرِج به إلى السَّماء، وفيه هَاجَرَ إلى المدينة، وفيه تُوُفِّي، قال ﷺ: «ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ» رواه مسلم[1].

الاحتفال بمَوْلِد النَّبيِّ ﷺ

ولا يجوزُ أن يُقَام احتفالٌ بمَوْلِده ﷺ؛ لأنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام لم يُقِمْ لِمَوْلِدِه في حياته احتفالاً، والصَّحابةُ ﷺ وهو أحبُّ النَّاس إليهم لم يفعلوا ذلك.

ولمَّا وُلِد يتيماً تَربَّى في بيت جدِّه عبد المطَّلب، ثمَّ عند عمِّه أبي طالب، ثمَّ تزوَّج خديجة وله خمس وعشرون سنة، وأولاده كلُّهم منها إلَّا إبراهيمَ فمِنْ ماريةَ القِبْطِيَّة، وكان النَّبيُّ ﷺ قبل البِعْثَةِ يُلَقَّبُ بالأمين.

عُمُرُ النَّبيِّ ﷺ

(وَلَهُ مِنَ العُمُرِ) الَّذي عاشه في هذه الدُّنيا **(ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً)**، هي مجموعُ عُمُرِه من ولادتِه إلى مَمَاتِه.

(مِنْهَا) أي: من هذه السِّنين **(أَرْبَعُونَ)** سنةً **(قَبْلَ النُّبُوَّةِ)**، فلم يُوحَ إليه إلَّا وعُمُره أربعون عاماً، وهذا سِنُّ اكتمال الأَشُدِّ، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

---

(١) كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كلِّ شهر، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه.

وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيّاً رَسُولاً -.

نُبِّئَ بِٱقْرَأْ، ....

زمن نبوّة النَّبيِّ ﷺ، ورسالته

(وَ) مِنْ عُمُرِه: (ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ) سنةً (نَبِيّاً) يُوحَى إليه، و(رَسُولاً) مأموراً بالرِّسالة والتَّبليغ.

وزمنُ نبوَّة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ ورسالته ثلاث وعشرون سنة، مكث منها في مكَّة ثلاثة عشر عاماً، وفي المدينة النَّبويَّة عشرة أعوام.

وكان عُمُرُه مباركاً، أظهر اللَّه به الدِّين، وتمَّت به الشَّريعة، ودخل النَّاس في الدِّين أفواجاً، لاقى خلال تلك السِّنين خوفاً وجوعاً وٱبتلاءً، وتسلُّط الأعداء عليه، وقَدِموا إليه في بلد مُهَاجَرِه لقتاله، فصبر وجاهد حتى بلَّغ رسالة ربه.

ما نُبِّئَ به ﷺ

وقد (نُبِّئَ) أي: نُزِل عليه الوحيُ نَائِلاً شَرَفَ النُّبوَّة يوم الٱثنين في رمضان بغَارِ حِرَاء (بِٱقْرَأْ)، أشار بذلك إلى صَدْرِ سورةِ العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، ورَجَعَ بها يَرْجُفُ فؤادُه، فقالت له خديجةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً» متفق عليه[(١)].

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، رقم (٤٩٥٣)، ومسلم كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، رقم (١٦٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَأُرْسِلَ بِالمُدَّثِّرِ، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

ما أُرسل به ﷺ

(وَأُرْسِلَ) مِنَ اللَّه بعد فترة من الوحي (بِـ)صَدْرِ سورةِ (المُدَّثِّرِ) فإنَّه لما جاءه الملك فَرَقَ منه - أي: خاف -، فقال: دثِّرُوني، فأنزل اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فكانت أوَّل ما أنزل عليه بعد فترة الوحي، ثم حمي الوحي وتتابع، فشمَّر حينئذٍ عن سَاقِ العَزْمِ ودَعَا إلى اللَّه.

بلد النَّبيِّ ﷺ

(وَبَلَدُهُ مَكَّةُ) أشرفُ البِقَاعِ عند اللَّه، بها وُلِد ونَشَأ، إلَّا ما كان منه وهو مَعَ مُرْضِعَتِه السَّعديَّة في البَرِّيَّة، ثم رَجَعَ إلى مكَّة في حَضَانَةِ جَدِّه، ثمَّ عَمِّه، وأُوحِيَ إليه بها، وبَقِيَ بها بعد أَنْ أُوحِيَ إليه ثلاث عشرة سنة.

وبعد ذلك هَاجَرَ إلى المدينة بعد أَنْ هَمُّوا بقَتْلِه فتَغيَّب في الغار، ثم سَارَ هو وأبُو بكرٍ رضي الله عنه مُهاجِراً إلى المدينة، وذلك بعد أَنْ بَايَعَه أهلُها على النُّصْرَةِ والمُؤَازَرَة، وأَرَّخَتِ الأُمَّةُ تاريخَها من مُهاجَرِه ﷺ. *

بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ؛

أعظم أنواع معرفة النَّبيِّ ﷺ

وقد ذَكَرَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ جملةً ممَّا يُعرَفُ به النَّبيُّ ﷺ، وأعظمُها وأعلاها معرفةُ ما بُعِثَ به النَّبيُّ ﷺ.

فإنَّه **(بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ)** يُحذِّرُ منه وَيُنْذِرُ من وَبالِه في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّه يُحْبِطُ العمل، وصاحبُه مُخَلَّدٌ في النَّار، **(وَ)** بَعَثَهُ اللَّهُ **(يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)** وإفرادِ اللَّهِ بالعبادة.

سبب تقديم المُصنِّف النِّذارة عن الشِّرك

وقَدَّم المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ النِّذارَةَ عن الشِّركِ قبل الدَّعوةِ إلى التَّوحيد؛ لأنَّ هذا مَدْلُول كلمةِ التَّوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، ولأنَّ الآيةَ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ تقتضي ذلك، فبدأ بِجانِبِ الشِّرك، لكونِ العِبادة لا تَصِحُّ مع وجود المُنافِي، فلو وُجِدَتْ والمُنافِي لها موجود؛ لم تَصِحَّ، قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾، ولقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» رواه مسلم(١).

ثم ثنَّى بالتَّوحيد؛ لأنَّه أوجبُ الواجبات، ولا يُرْفَعُ عملٌ إلَّا به، وإذا خَالَطَ الشِّركُ العملَ أَفْسَدَه وأَحْبَطَ العَمَلَ، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النَّاس حتى يقولوا: لا إله إلَّا اللَّه محمَّد رسول اللَّه، رقم (٢٣)، من حديث طارق بن أَشْيَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ ....

الدَّليل على الحكمة من رسالته ﷺ

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ اللَّهَ بَعَثَ نبيَّه محمَّداً ﷺ ليُنْذِرَ عن الشِّرك ويَدْعُو إلى التَّوحيد؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾)** أي: المُتدَثِّرُ بثِيَابِه المُتَغَشِّي بها، وهذا من الرُّعْبِ الَّذي حَصَلَ له من رُؤْيَةِ المَلَكِ عند نُزُولِ الوحي.

(﴿قُمْ﴾) أي: من دِثَارِك، **(﴿فَأَنذِرْ﴾)** المشركين عن الشِّرك، وٱدْعُهُم إلى التَّوحيد.

أوَّل آيةٍ أُرسل بها النَّبيُّ ﷺ، وأوَّل أمرٍ أُمِر به

وهذه أوَّلُ آيةٍ أُرْسِلَ بها، وأوَّلُ أَمْرٍ طَرَقَ سَمْعَه في حالِ إرسالِه، وذلك أنَّه لَمَّا رَأَى المَلَكَ الَّذي جاءَه بِحِرَاء حين أُنزِلَ عليه ﴿ٱقْرَأْ﴾ وَجِلَ منه وَرَجَعَ إلى أهلِه خائفاً، وقال: دثِّرُوني، فأنزل اللَّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وبهذا حَصَلَ الإرسالُ كما حَصَلَ بـ ﴿ٱقْرَأْ﴾ النُّبوَّة.

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾) أي: عظِّم ربَّك عمَّا يقولُ عَبَدَة الأوثان.

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾) أي: نَفْسَكَ طهِّرْهَا عن الذُّنوب، كنَّى عن النَّفْس بالثَّوْب؛ لأنَّها تشتمل عليه.

معنى: «الرُّجْزُ»

(﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾) أي: ٱتْرُكِ الأوثان ولا تقربها، والرُّجْزُ: القذر، مثل الرِّجْس، قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾.

وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾.

(﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾) أي: لا تُعْطِ مالَك مُصَانَعة لِتُعطَ أكثرَ منه، أو لا تَمْنُنْ على اللَّه بِعَمَلِك فَتَسْتَكْثِره، أو لا يكثر عملك في عينك، أو لا تضعف أن تستكثر من الخير.

(﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾) أي: على طاعتِه وأوامره، أو على ما أُوذِيتَ في اللَّه. ۞

وَمَعْنَى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ.

تفسير المُصنِّف لآيات صَدْرِ سورة المدثِّر

ثم شَرَع المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِ الآيات، فقال: (وَمَعْنَى ﴿قُمْ﴾) أي: ٱعْمَل بجِدٍّ ونَشَاطٍ، (﴿فَأَنذِرْ﴾) أي: أُمَّة محمَّدٍ ﷺ.

(يُنْذِرُ) النَّاسَ (عَنِ الشِّرْكِ) بالأقوال والأفعال الَّتي يَحْصُلُ بها المقصود؛ لأنَّ الشِّركَ أَعْظَمُ ذنبٍ عُصِيَ اللَّهُ به، سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ: «أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدّاً وَهُوَ خَلَقَكَ» متفق عليه[1]، ولا يُرْفَعُ معه عَمَلٌ، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾، وصاحبه مُخَلَّدٌ في النَّار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾.

التَّوحيد دعوة الرُّسل

(وَ) مع إِنْذَارِه عن الشِّرك (يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)؛ لأنَّ التَّوحيدَ أَوْجَبُ الواجبات، وأوَّلُ دعوةِ الرُّسُل من أوَّلِهم إلى آخرهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾، فَشَمَّرَ ﷺ عن ساقِ العَزْم، وأَنْذَرَ النَّاس وأُوذِيَ على ذلك هو ومَنِ ٱتَّبَعَه.

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (٤٤٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشِّرك أقبحَ الذُّنوب، وبيانِ أعظمِها بعده، رقم (٨٦)، من حديث عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ. وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا،

(﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾؛ أَيْ) معناها: (عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ)، فهو: الإلهُ الحقُّ المُستحقُّ أَنْ يُعْبَدَ وحدَه، لا يُشْرَكُ معه أحدٌ في عبادته، فَعَظِّمْ ربَّكَ بالتَّوحيد، واجعل قصدَكَ في إنذارِك أَنْ يُعَظِّمَ العبادُ ربَّهم ويَقُومُوا بعبادتِه، فإنَّه ما عُظِّم الرَّبُّ بشيءٍ أَجَلَّ من ذلك، ونَزِّهْهُ عمَّا يقولُه عبدةُ الأوثان.

استدلال المُصنِّف بالآية على الطَّهارة المعنويَّة، ووجه ذلك

(﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أَيْ) معناها: (طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ)، واجعلها كلَّها خالصةً لوجه اللَّه، فالعملُ يُسمَّى لباساً، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾، وتطهيرُ الملابس غير مرادة في هذه الآية؛ لأنَّ الصَّلاةَ لم تُفْرَضْ في ذلك الوقت، فالمرادُ هنا: الأعمال، أي: طَهِّرْ نفسَك من الذُّنوب، وأعظمُها: الشِّرك، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو قولُ المُحَقِّقِينَ مِنْ أهلِ التَّفسير، وهو أَصَحُّ الأقوال»[1]، وقيل: أَصْلِحْ عَمَلَك، لا يُخَالِطْه شيءٌ من الشِّرك.

معنى: «هَجْر الأَصْنَام»

(﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾)، و(الرُّجْزُ) المرادُ بها: (الأَصْنَامُ) والأوثانُ الَّتي تُعْبَدُ من دون اللَّه، (وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا)، والإعراضُ

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٠).

وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا.

عنها، (وَالبَرَاءَةُ مِنْهَا، وَ) مِنْ (أَهْلِهَا)، فالنَّبيُّ ﷺ أَمَرَ بتركِ الأوثان والبُعدِ عنها، والتَّبرُّؤِ منها ومن أهلِها، وهذا نَهْجُ الأنبياء والمرسلين، قال تعالى عن الخليلِ عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فلا يتمُّ توحيدُ العبد حتى يَتَبرَّأَ من الكفر وأهل الكفر، وَيَبْعُدَ عنهم، ويُنابِذَهم، قال سبحانه عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وقـــال ﷻ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فهذه الأُمَّة أُمِرَت بالتَّأسِّي بإبراهيم عليه السلام وأَتْبَاعِه الَّذين كانوا معه في براءتهم من المشركين. *

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، . . .

زمن دعوة النَّبيِّ ﷺ للتَّوحيد

وقد (أَخَذَ) النَّبيُّ ﷺ (عَلَى هَذَا) النَّهْجِ في بيان الشِّرك، والإنذارِ عنه، والتَّحذيرِ منه، وبيانِ التَّوحيد، والدَّعوةِ إليه (عَشْرَ سِنِينَ) وهو (يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ)، ويُنْذِرُ عن الشِّرك، قبلَ فرضِ الصَّلاة الَّتي هي عمادُ الدِّين، وقبلَ بقيَّة الشَّرائع.

حقيقة ما بُعث به النَّبيُّ ﷺ وسائر الأنبياء

وبهذا يتبيَّنُ لك أَنَّ حقيقةَ ما بُعِثَ به النَّبيُّ ﷺ، ودَعَتْ إليه الرُّسُلُ كلُّهم هو: الإنذارُ عن الشِّركِ والتَّحذيرُ منه، والدَّعوةُ إلى التَّوحيد وبيانُه وتوضيحُه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾، وأخبرَ اللَّهُ عن نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ عليهم السلام أَنَّ أوَّلَ شيءٍ بدؤُوا به أقوامهم أن قالوا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وخاتَمُهم محمَّدٌ ﷺ أوَّل شيءٍ دعاهم إليه قال لهم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ تُفْلِحُوا» رواه أحمد(١).

فالنَّبيُّ ﷺ إنَّما بُعِثَ بالدَّعوة إلى التَّوحيد، وذلك لأنَّه هو أساسُ المِلَّة الَّذي تُبْنَى عليه، وبدونه لا يَنْبَنِي شيءٌ من الأعمال.

فالتَّوحيدُ هو الأصل، وبقيَّة شرائع الدِّين فَرْعٌ عنه، فإذا زال

---

(١) رقم (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة رضي الله عنه.

وَبَعْدَ العَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، ....

الأصل؛ زال الفرع، فكونه أخذ عشر سنين يَدْعُو إلى التَّوحيد ويُنْذِرُ عن الشِّرك قبل أن تفرض عليه الفرائض، يدل على أنَّ التَّوحيدَ أَوْجَبُ الواجبات، ومعرفته أفرضُ الفرائض.

الإسراء والمعراج بالرُّوح والجسد

(وَبَعْدَ) السَّنوات **(العَشْرِ)** من بدء النُّبوَّة والرِّسالة وهو في مكَّة **(عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ)** السَّابعة، فأُسريَ بجسدِه وروحِه جميعاً من المسجد الحرام على البُراق[1] إلى بيت المَقْدِس يقظةً لا مَناماً، كما أخبر اللَّهُ عنه في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾، ثم صَعِدَ به جبريل عليه السلام إلى السَّماء، كلَّما مَرَّ بسماءٍ تَلَقَّاه مقرَّبوها، حتى جاوزهم إلى سدرة المُنْتَهى، حتى سَمِعَ صَرِيفَ الأَقْلَام، فَبَلَغ من الارتفاع والعُلوِّ ما اللَّهُ به عليم، وكلَّمَهُ اللَّهُ بلا واسطة، فأَوْحَى إليه ما أَوْحَى.

أين فُرِضَت الصَّلاة؟

(وَفُرِضَتْ عَلَيهِ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ) وهو في السَّماء، وكان أوَّل ما فُرِضَت خمسين صلاة، ولم يَزَلْ يَتَردَّدْ بين موسى وبين ربِّه حتى خَفَّفَها اللَّه إلى خمس، وقال: «هِيَ خَمْسٌ - أي: في

(١) البُراق: دابَّةٌ دونَ البَغْلِ وفَوْقَ الحِمَار، مُشْتَقٌّ من البَرْقِ، سُمِّيَ بذلكَ لِنُصُوع لَوْنِهِ وشِدَّةِ بَرِيقِه، وقيل: لِسُرْعةِ حَرَكَتِهِ. يُنظر: لسان العرب (١٠/ ١٥)، تاج العروس (٢٥/ ٥١).

وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ.

العدد -، وَهِيَ خَمْسُونَ - أي: في الأجر -» متفق عليه[١].

ثم هَبَطَ إلى بيت المَقْدِس وهَبَطَ الأنبياءُ معه، وأَمَّهُم في بيت المَقْدِس، ثمَّ رَكِبَ البُرَاقَ ورَجَعَ إلى مكَّة من لَيْلَتِه، وحدَّثهم عمَّا رآه في مَسِيرِه.

المدَّة التي صلَّاها النَّبيُّ ﷺ في مكَّة

(وَصَلَّى فِي مَكَّةَ) الصَّلوات الخمس المفروضة (ثَلَاثَ سِنِينَ) بعد أن عُرِجَ به وفُرِضَتْ عليه قبل الهجرة.

(وَبَعْدَهَا) أي: بعد الثَّلاث عشرة سنة من بعثتِه (أُمِرَ بالهِجْرَةِ) من مكَّة (إِلَى المَدِينَةِ) لِمُفارقةِ المشركين وأوطانِهم، بحيث يَتَمَكَّن من إظهار دينه، والدَّعوة إلى اللَّه، فإنَّ ذلك واجبٌ وفرضٌ؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ مَنَعُوهُ أَنْ يُقِيمَ دعوتَه، فٱستقبلَه الأنصارُ في المدينة، وآوَوْهُ ونَصَرُوهُ وآزَرُوهُ، حتى بلَّغ دينَ ربِّه فٱنتشر في الآفاق. *

---

(١) البخاري كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة، رقم (٣٤٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول اللَّه ﷺ إلى السَّموات وفرض الصَّلوات، رقم (١٦٣)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وَالهِجْرَةُ: الِٱنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ.

وَالهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ، ....

تعريف الهجرة

ثُمَّ ذَكَرَ المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعريفَ الهِجْرة فقال: (وَالهِجْرَةُ) هي: (الِٱنْتِقَالُ) والتَّحوُّلُ (مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ)، وكلُّ مَنْ فَارَقَ بلدَه فهو مُهَاجِر، والمُهَاجَرَة في الأصل: مُصارَمَة الغير ومُقاطَعته ومُباعَدَتُه، وسُمِّي المُهَاجِرُون مُهَاجِرِين؛ لأنَّهم هَجَرُوا ديارَهم ومَسَاكنَهم التي نَشَؤُوا بها، ولَحِقُوا بدارٍ ليس لهم فيها أهلٌ ولا مالٌ حين هَاجَرُوا إلى المَدِينَة.

الحكمة من الهجرة

وشُرِعَت الهجرةُ حفظاً لدينِ العبد من الزَّوَال، أو النُّقصان، وفِراراً به من الفتن، ولِخشيةِ عدم إظهار شعائر الإسلام، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَسْلَمُ أَحدٌ من الشِّركِ إلَّا بالمُبَايَنَةِ لأهلِه»[1] - أي: لأهلِ الشِّرك -.

حكم الهجرة

والإنسانُ يتأثَّرُ بمُجْتَمَعِه في صلاحِه وتَقْوَاه، وفي بُعدِه عن ربِّه ومولاه، (وَ) لهذا كانت (الهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ) المُحمَّديَّة (مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ) والكفر (إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ)، وقد حُكِيَ الإجماعُ على وجوبِها، وقد فَرَضَهَا اللَّهُ على رسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى الصَّحابة قبلَ فَرْضِ الصَّوم والحجِّ، وقد جاء الوعيدُ على مَنْ

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٤).

. . . .

تَرَكَها وهو قادرٌ على ذلك، فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ المُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا» رواه أبو داود(١).

ومخالطةُ المشركين ضررٌ على الدِّين، وإذا كان المسلمُ في بلدٍ لا يَقْدِرُ على إظهار دينه والتَّصريحِ به وتَبْيِينِه وَجَبَ عليه مُفَارَقَةُ ذلك الوَطَنِ؛ لإظهار دينه، ولِيَصُونَ مُعْتَقَدَه، فالقُرْبُ منهم في المَسْكَن ونحوِه يَضُرُّ بدينه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية ﵀: «رَأَيْنَا المُسْلِمِينَ الَّذين أَكْثَرُوا من مُعَاشَرَةِ اليهودِ والنَّصارى هُمْ أقلُّ إيماناً من غيرِهم ممَّن جرَّد الإسلام»(٢).

والهجرةُ فيها منافع دينيَّة ودنيويَّة للمهاجر، قال الشَّيخُ عبد الرَّحمن بنُ حسن - حفيدُ المُصنِّف ﵏ -: «الهِجْرةُ: الغالبُ على أهلِها السَّلامةُ والعزُّ والتَّمكين، كما جَرَى ذلك لِرسولِ اللَّهِ ﷺ وأَتْبَاعِه سلفاً وخلفاً، ومَصَالِحُ الهجرةِ في الدُّنيا أكثر مِنْ أَنْ تُحْصَر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾»(٣).

---

(١) كتاب الجهاد، باب النَّهي عن قتل من ٱعتصم بالسُّجود، رقم (٢٦٤٥)، من حديث جرير بن عبد اللَّه ﵁.

(٢) ٱقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٢٠).

(٣) الدرر السَّنِيَّة (٨/ ٢٤٠).

. . . .

وفي تَرْكِ الهِجْرةِ أَضْرارٌ على تَارِكِهَا في دينِه ودنياه، قال الشَّيخُ عبد الرَّحمن بنُ حسن رَحِمَهُ اللهُ: «المَفَاسِدُ الَّتي في تَرْكِ الجهاد مَوْجُودَةٌ في تَرْكِ الهِجْرَةِ وأكثر منها، كما لا يَخْفَى على ذَوِي البَصَائِر والفَهْمِ، وكان الجهادُ مِنْ ثَمَرتِها ومَصَالِحِها، وتَأَمَّلْ ما وَقَعَ فيه التَّارِكُون للهجرة من سوءِ الحال في الدِّين والدُّنيا»(١).

ومَنْ له قُدْرَةٌ على الهجرة من ديار الشِّرك ولم يُهَاجِر؛ فقد ظَلَمَ نفسَه، ووقع في الإثم. ❊

---

(١) الدرر السَّنِيَّة (٨/ ٢٤٤).

وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ....

أستمرار الهجرة إلى قيام السَّاعة

(وَهِيَ) أي: الهِجْرَةُ (بَاقِيَةٌ) وواجبةٌ (إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ)، فلا تَسْقُطُ في أيِّ زمنٍ عن هذه الأمَّة؛ بل وجوبُها باقٍ إلى قيام السَّاعة، فمَنْ كان مَسْكنُه بديارِ المشركين وهو قادرٌ على التَّحوُّلِ عنهم؛ وَجَبَ عليه الهِجْرَةُ من تلك الدِّيار، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحوالُ البلادِ كأحوالِ العباد، فيكونُ الرَّجلُ تارةً مسلِماً، وتارةً كافراً، وتارةً مؤمناً، وتارةً منافقاً، وتارةً برّاً تقيّاً، وتارةً فاسقاً، وتارةً فاجراً شقيّاً، وهكذا المساكنُ بحسب سُكَّانِها، فهِجْرَةُ الإنسان من مكانِ الكفر والمعاصي إلى مكانِ الإيمان والطَّاعة كتوبتِه وٱنتقالِه من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطَّاعة، وهذا أمرٌ باقٍ إلى يومِ القيامة»[١].

دليل وجوب الهجرة من القرآن

(وَالدَّلِيلُ) على وجوب الهِجْرَةِ من القرآن؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾)، وقد نَزَلَتْ هذه الآية في أُناسٍ من أهل مكَّة تكلَّمُوا بالإسلام ولم يُهَاجِرُوا، فقال اللَّهُ عنهم: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾) أَرَادَ مَلَكَ الموت وأعوانه الموكَّلين بنَزْعِ الرُّوح، وحالُ مَنْ تُنْزَعُ أرواحُهُم أنَّهم مِنْ (﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾) بترك الهِجْرَةِ من ديار الشِّرك.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٨٤).

قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ❁ . . . .

(﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾) أي: في أيِّ فريقٍ كنتم؟ ولِمَ مكثتُم هاهنا وتركتم الهِجْرَة؟ وهذا ٱستفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ.

(﴿قَالُوا۟﴾) أي: الَّذين تركوا الهِجْرَةَ: (﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾) أي: عاجزين عن الهِجْرَةِ لا نَقْدِرُ على الخروج من البلد ولا الذَّهاب في الأرض، وهم غير صادقين في ذلك.

ليس كلُّ ٱستضعاف عذراً

(﴿قَالُوٓا۟﴾) أي: قالتْ لهم الملائكةُ - مُعَاتِبةً لهم -: (﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾) وهذا ٱستفهامُ تقريرٍ؛ أي: قد تقرَّر عند كلِّ أحدٍ أنَّ أرض اللَّهِ واسعة، فلِمَ لا تُهَاجِرُونَ إلى المدينة وتَخْرُجُونَ مِنْ بين أهل الشِّرك؟ فلَمْ يُعْذَرُوا بِتَرْكِ الهِجْرَة.

فحيثما كان العبدُ في محلٍّ لا يَتَمَكَّنُ فيه من إظهار دينه فإنَّ له مُتَّسعاً وفُسْحَةً في الأرض، يتمكَّن فيها من عبادة اللَّه، قال اللَّهُ عن هؤلاء الَّذين لا عُذْرَ لهم: (﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾) أي: بئس المصير إلى جهنَّم، وهذا فيه أنَّ تاركَ الهِجْرَةِ بعدما وَجَبَتْ عليه وهو قادرٌ عليها، أنَّه مُرْتَكِبٌ كبيرةً من كبائر الذُّنوب.

﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ❁ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾.

العذر المقبول في التَّخلُّف عن الهجرة

(﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾) أي: الضُّعفاء العاجزين عن الهِجْرَةِ (﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾) جَمْع وَلِيدٍ ووَلِيدَة، والوَلِيدُ: الغُلامُ قَبْلَ أَنْ يَحْتَلِم.

(﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾) أي: لا يستطيعون مُفَارَقَةَ المشركين، فلا يقدرون على حِيلَة، ولا على نفقة، ولا على قوَّة للخروج.

(﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾) أي: لا يعرفون الطَّريق إلى الخروج من مكَّة إلى المدينة، حيث كانت بلد الإسلام، ولا يوجد آنذاك بلد إسلامٍ سواها.

(﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾) يتجاوز عن المستضعفين وأهل الأعذار بِتَرْكِ الهِجْرَة.

(﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾) متَّصفاً بالعَفْوِ والتَّجاوُز عن السَّيِّئات (﴿غَفُورٗا﴾) للخطايا والأوزار، قال ٱبن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَزَلَتْ هذه الآية الكريمة عامَّة في كلِّ مَنْ أَقَامَ بين ظَهْرَاني المشركين وهو قادر على الهِجْرَة، وليس مُتَمَكِّناً من إقامة الدِّين، فهو ظالمٌ لنفسه، مُرتكبٌ حراماً بالإجماع، وبنصِّ هذه الآية»[1]. ❁

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾

حكم السَّفر إلى بلاد الكفَّار

وإذا كانت الهجرةُ مأموراً بها من بلاد الكفر، دلَّ هذا على تحريم السَّفَر إلى بلادهم، إلا لحاجة تدعو إلى ذلك - كعلاجٍ ونحوه -، ولا يجوز السَّفَر إليهم عند الحاجة إلَّا بثلاثة شروط:

١ - أن يكون عنده علم يمنعه مما يَرِدُ عليه من الشُّبهات.

٢ - أن يكون عنده دين يمنعه من الشَّهوات.

٣ - أن يتمكَّن من إظهار دينه والقيام بعبادة ربه كما أمر اللَّه، وأَنْ يَحْذَرَ كلَّ الحَذَر من موالاة المشركين.

وإذا لم يتمكَّن المسلم من الهجرة، فعليه أَنْ يُظْهِرَ شعائرَ دينه - من الصَّلاة ونحوها - بقدر ٱستطاعته، ويجب عليه أَنْ يدعوَ غير المسلمين إلى هذا الدِّين، قال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

دليلٌ آخر من القرآن على وجوب الهجرة

(وَ) دليلٌ آخرُ من القرآن على أنَّ الهجرةَ واجبةٌ على القادر عليها؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ﴾) وحَّدُونِي، و(﴿ءَامَنُوٓاْ﴾) بي وبرسولي، وهم مقيمون في ديار الكفر ولم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة؛ هاجروا فـ (﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾) لم تَضِقْ عليكم فتُقِيمُوا بموضع منها لا يَحلُّ لكم المقام فيه، فإذا عُمِلَ بمكانٍ منها بمعاصي اللَّه ولم تَقْدِرُوا على تغييره؛ فٱهربوا منه إلى أرضي الواسعة التي تسع جميع الخلائق.

فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

قَالَ البَغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: فِي المُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللَّهُ بِٱسْمِ الإِيمَانِ».

فإذا كان الإنسانُ في أرضٍ لم يتمكَّن من إظهار دينه فيها، فإنَّ اللَّهَ قد وسَّعَ له الأرض ليعبده فيها كما أمر، وأَنْ يُوَحِّدَهُ في أرضه الواسعة، وكذلك يجب على كلِّ مَنْ كان ببلدٍ تُعمَل فيها المعاصي ولا يمكنه تغييرها أن يهاجر منها.

(﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾) أي: أظهروا لي العبادة في أرضي الواسعة التي خلقتها وما عليها لكم، وخلقتكم عليها لعبادتي.

(قَالَ) أبو محمَّد الحسين بن مسعود (البَغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ)[(١)] في تفسيره[(٢)] الَّذي قال عنه ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ٱجتمعت الأُمَّة على تلقِّي تفسيره بالقبول وقراءته على رؤوس الأشهاد من غيرِ نكير»[(٣)].

حكم تارك الهجرة

(سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ) كما قال مقاتل والكلبي: نزلت (فِي) ضعفاء (المُسْلِمِينَ الَّذِينَ) أقاموا (بِمَكَّةَ) و(لَمْ يُهَاجِرُوا) منها إلى المدينة (نَادَاهُمُ اللَّهُ بِٱسْمِ الإِيمَانِ)[(٤)]، فأفاد أنَّ تاركَ الهجرة

---

(١) المتوفَّى: سنة ست عشرة وخمس مئة (٥١٦هـ).
(٢) المسمى: «معالم التنزيل».
(٣) ٱجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٣٩).
(٤) قال البغوي في تفسيره (٣/ ٤٧٢)، عند قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية: «قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيقٍ بمكَّة =

وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ؛ قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، ....

بعدما وجبت عليه ليس بكافر، لكنَّه عاصٍ بتركها، فهو مؤمنٌ ناقص الإيمان، عاصٍ من عصاة المُوحِّدين المؤمنين.

دليل وجوب الهجرة من السُّنَّة

(وَالدَّلِيلُ عَلَى الهِجْرَةِ) وأنَّها مفروضةٌ على هذه الأُمَّة، وأنَّها باقيةٌ إلى قيام السَّاعة؛ دليل ذلك (مِنَ السُّنَّةِ؛ قَوْلُهُ ﷺ) - في الحديث الَّذي رواه أبو داود[1]، عن معاوية رضي الله عنه -: «لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

(لَا تَنْقَطِعُ الهِجْرَةُ) أي: لا يسقط وجوب الهجرة من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام (حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ) أي: حتَّى لا تقبل التَّوبة ممَّن تاب.

فدل الحديث على أنَّ التَّوبةَ ما دامت مقبولة فالهجرة واجبة بحالها.

المراد بحديث: «لَا هِجْرَةَ»

وأمَّا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا ٱسْتُنْفِرْتُمْ فَٱنْفِرُوا» متفق عليه[2]، فالمراد: لا هجرة

= من إظهار الإيمان؛ فٱخرجوا منها إلى أرض المدينة، ﴿إِنَّ أَرْضِى﴾ يعني: المدينة ﴿وَٰسِعَةٌ﴾: آمنة».

(١) كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل ٱنقطعت، رقم (٢٤٧٩).

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم (٢٧٨٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير، وبيان معنى «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ»، رقم (١٨٦٤)، من حديث ٱبن عباس رضي الله عنهما.

وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

بعد فتح مكَّة منها إلى المدينة، حيث كانت مكَّة بعد فتحها بلد إسلام، وقد كانت الهجرة من مكَّة مأموراً بها لـمَّا كانت بلد كفر، أمَّا وقد صارت بلد إسلام فلا.

وجوب الهجرة مستمرٌّ إلى يوم القيامة

(وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)، فإذا طَلَعَتِ الشَّمسُ من مَغْرِبها، لم تُقْبَلِ التَّوبة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾؛ فدلَّ على أنَّها تُقْبَلُ قبلَ طلوعِ الشَّمس من مغربها، وإذا كانت التَّوبةُ تُقْبَلُ، فإنَّ الهِجْرَةَ لا تَنْقَطِع.

فواجبٌ على المسلم أَنْ يسعى لإصلاح نفسه بالصُّحبة الصَّالحة، وبالمجتمع الطَّيِّب، وأَنْ يقرأ ما ينفعه في أمور دينه، وعليه أَنْ يَبْتَعِدَ عن كلِّ ما يدنِّس صلاحه من مجتمع لا يحثُّه على فعل الطَّاعات، أو وسائل تغرقه بالشُّبهات والشَّهوات، أو تَؤُزُّه إلى فعل المعاصي والسَّيِّئات. ❋

فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ؛ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ - مِثْلُ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ - . . . .

وقد مَكَثَ النَّبيُّ ﷺ في مكَّةَ ثلاثةَ عشرَ عاماً يدعو إلى التَّوحيد ويُنْذِرُ عن الشِّرك، ومَكَثَ تلك السِّنين في بيان التَّوحيد، والنَّهي عن ضدِّه لأهمِّيَّته، ثم بعد تلك المدَّة هاجر من مكَّة إلى المدينة.

متى شُرِعَت بقيَّة الشَّرائع؟

(فَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِالمَدِينَةِ)، وٱنتشر التَّوحيد، وكَثُرَ أتباعُه، وأقاموا الصَّلاة الَّتي فُرِضَتْ عليه وعليهم جماعةً قبل هجرته بثلاث سنوات، **(أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ)** الَّتي تَعَبَّد اللَّه بها خلقه، إذ عامَّةُ شَرَائِعِ الإسلامِ لم تُشْرَعْ إلا في المدينة.

(مِثْلُ: الزَّكَاةِ) المفروضة بتفصيلها المعلوم.

(وَالصَّوْمِ) المفروض في شهر رمضان.

(وَالحَجِّ) إلى بيت اللَّه الحرام.

(وَالأَذَانِ) للصَّلوات الخمس المكتوبة.

(وَالجِهَادِ) في سبيل اللَّه.

(وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ) الَّذي عُرِفَ حُسنُه شرعاً وعقلاً.

(وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ) الَّذي عُرِفَ قبحُه شرعاً وعقلاً.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ.

وَتُوُفِّيَ ﷺ ....

وغير ذلك من شرائع وأحكام الإسلام، كصلاة العيدين، والكسوف، والاستسقاء.

مدَّة دعوة النَّبِيِّ ﷺ لبقيَّة الشَّرائع

وقد **(أَخَذَ عَلَى هَذَا)** البيان والتَّعليم، والدَّعوة لبقيَّة الشَّرائع **(عَشْرَ سِنِينَ)** كلُّها توحَى إليه فيها الشَّرائع، فتمَّت شريعةُ اللَّهِ صدقاً وعدلاً، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

متى توفِّي ﷺ؟

(وَ) بَعْدَ ما أَكْمَلَ اللَّهُ به الدِّين وبلَّغ البلاغ المبين **(تُوُفِّيَ ﷺ)** في السَّنةِ الحادية عشرة، وقد بيَّن كلَّ ما فيه سعادة العبد في الدُّنيا والآخرة، أتمَّ بيانٍ وأوضحه، قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْماً» رواه أحمد[1]، وقال رجلٌ من المشركين لسلمانَ الفَارِسِيِّ رضي الله عنه: «قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ[2]! قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ» رواه مسلم[3].

---

(١) رقم (٢١٧٥٨).

(٢) الخِرَاءَة - بكسر الخاء وفتحها -: هي آدابُ التَّخلِّي والقعود عند الحاجة. يُنظر: النهاية لابن الأثير (٢/ ١٧)، ولسان العرب (١/ ٦٤).

(٣) كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٢).

وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ.

وحَفِظَ اللَّهُ دينَه، **(وَدِينُهُ بَاقٍ)**، وهو ما تَضمَّنَه الكتابُ والسُّنَّةُ موجود مؤيَّدٌ محفوظٌ إلى يوم القيامة، كافٍ لِمَنْ تمسَّكَ به، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا؛ كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي» رواه الحاكم[1].

الدِّين الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ

(وَهَذَا دِينُهُ) الَّذي ترك أُمَّتَه عليه، وتَكَفَّلَ اللَّهُ بحفظِه، تَوَارَثَهُ المسلمون وأهلُ العلم والدِّين خَلَفاً عن سَلَفٍ، قال بعضُ السَّلَف: «هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا ﷺ إِلَيْنَا، وَقَدْ عَهِدْنَا إِلَيْكُمْ، وَهَذِهِ وَصِيَّةُ رَبِّنَا وَفَرْضُهُ عَلَيْنَا، وَهِيَ وَصِيَّتُهُ وَفَرْضُهُ عَلَيْكُمْ»[2]، فجرى الخَلَفُ على منهج السَّلَف، واْقْتَفُوا آثارَهم، ولا يزالون إلى يوم القيامة، فدينُه عظيمٌ مُهَيْمِنٌ على جميع الأديان، فيه أعمالٌ يسيرة، وأجورُها عند اللَّه عظيمة.

و**(لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ)** النَّبيُّ ﷺ **(الأُمَّةَ عَلَيْهِ)** وأَرْشَدَهَا إليه، قال اللَّه في الثَّناءِ عليه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، الأعمال والأقوال والأخلاق الطَّيِّبة من هديه ﷺ.

(وَلَا شَرَّ) من الأقوال والأفعال **(إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ)** خوفاً على

---

(١) في المستدرك، كتاب العلم، خطبته صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع، رقم (٣١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (١/٦).

وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ: التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ.

وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ: ....

أُمَّتِه من الوقوع في المهالك، وقد بلَّغ الدِّينَ كلَّه وبيَّنه جميعَه، كما أَمَرَهُ اللَّهُ تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وفي الحديث: «لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ» رواه مسلم[١].

الخير الذي جاء به النَّبيُّ ﷺ

(وَالخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ) أي: الخيرُ العظيمُ الَّذي دلَّ النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَه عليه هو: (التَّوْحِيدُ)، وهو أصلُ كلِّ خيرٍ وأعظمُه، وهو أوجبُ الواجبات، وأساسُ قبول الأعمال، ولأجلِه أُرْسِلَت الرُّسُل، وأُنْزِلَت الكُتب.

(وَ) الخير الَّذي دلَّنا عليه النَّبيُّ ﷺ أيضاً: (جَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ) من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة، وقد أُوذِيَ النَّبيُّ ﷺ وصَبَرَ حتى بلَّغ لنا هذا الخير العظيم، قياماً بأمر اللَّه ونُصْحاً لنا، وشَفَقةً علينا.

الشَّرُّ الذي حذَّر منه النَّبيُّ ﷺ

(وَالشَّرُّ) الَّذي هو أصلُ كلِّ شرٍّ وأعظمُه (الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ)

---

(١) كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء بِبَيْعَة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٤)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما.

الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ.

النَّبيُّ ﷺ وأنذرها منه هو: **(الشِّرْكُ)** الَّذي هو أعظم الذُّنوب عند اللَّه، ويُحبِط جميع الأعمال، وصاحبُه مُخَلَّدٌ في النار، وجميع الرُّسل حذَّروا أممهم من الشِّرك، ودَعَوْهُم إلى التَّوحيد، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾.

(وَ) الشَّرُّ الذي حذَّرنا منه النَّبيُّ ﷺ أيضاً: **(جَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ)** ويبغضه **(وَيَأْبَاهُ)** أي: ينهى عنه من الأقوال والأعمال. *

بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَٱفْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ - الجِنِّ وَالإِنْسِ -؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

عموم بعثة النَّبيِّ ﷺ

وقد كانت الأنبياءُ تُبْعَثُ إلى أقوامها خاصَّة، أمَّا نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ فقد (بَعَثَهُ اللَّهُ) ﷻ (إِلَى النَّاسِ كَافَّةً) عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم.

(وَٱفْتَرَضَ) اللَّهُ (طَاعَتَهُ) أي: جعل طاعتَه فرضاً (عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ) من (الجِنِّ وَالإِنْسِ)، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقالت الجنُّ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، فرسالتُه شاملة إلى الجنِّ والإنس.

الدَّليل على عموم بعثته ﷺ لجميع الخلق

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّه مَبْعُوثٌ إلى النَّاسِ كافَّة؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾) يا محمَّد! (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾) مِنَ العَرَبِ والعَجَم، مِنْ أهلِ الكِتَابِ وغيرِهم، (﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾) يجبُ عليكم ٱتِّباعي، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَكَانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً» متفق عليه[(١)]، وكونُه خاتَمُ النَّبيِّين ورسالتُه إلى النَّاس كافَّة يدلُّ على عظيمِ شَرَفِه.

---

(١) البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النَّبيِّ ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، رقم (٤٣٨)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

. . . .

فواجبٌ على جميع أهل الأديان - من اليهود، والنَّصارى، والمَجُوس، وغيرهم - ٱتِّباعُ دين نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وهذا معلومٌ من دين الإسلام بالضَّرورة، وهذا مقتضى رسالته، ومَنْ لم يتَّبع دينَه، كُتِبَ عليه الشَّقاءُ وكان من أصحاب النَّار، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ - يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ -، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» رواه مسلم[(١)]، ومَنْ أطاعه وٱمتثلَ أمرَه فقد رَحِمَهُ ربُّه، وكان من أصحاب النَّعيم، قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾، ومَنِ ٱتَّبع ما سواه من الأديان فدينُه باطل، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾. ❊

---

(١) كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، رقم (١٥٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ....

كمال الدِّين من جميع النَّواحي

(وَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ) أي: بنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ (الدِّينَ) من الأحكام والشَّرائع والأخبار فكان - بِفَضْلِ اللَّه - ديناً كاملاً، لا نَقْصَ فيه بوجه من الوجوه، فأينما نظرتَ إلى شيءٍ منه وجدْتَ الكمالَ والخيرَ فيه، وما تُوفِّي عليه الصَّلاة والسَّلام إلا وقد بلَّغ جميع ما أمره اللَّه به.

الدَّليل من القرآن على كمال الدِّين

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ هذا الدِّين كاملٌ في شرعِه وأحكامِه؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾) أي: يومَ عرفةَ والنَّبيُّ ﷺ واقفٌ يَخْطُبُ في حجَّة الوداع قبل وفاته بواحدٍ وثمانين يوماً[(١)].

(﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾)، وهذه أكبرُ نعم اللَّه على هذه الأُمَّة، حيث أكملَ لها دينها، فلا يحتاجون إلى دينٍ سواه، ولا إلى نبيٍّ غير نبيِّهم ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر

(١) عند من يقول: أنَّه ﷺ تُوفِّي في الثَّاني من ربيع الأوَّل، وهو قول سليمان التَّيمي، والكلبي، وخليفة بن خياط، وغيرهم، ورجَّحه السهيلي، قال ٱبن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ - في الفتح (٨/ ١٣٠) -: «وهو القول المعتمد».
وقيل: إنَّ النَّبيَّ ﷺ تُوفِّي في اليوم الأوَّل من ربيع الأوَّل، وهو قول الليث، وٱبن شهاب، والفضل بن دكين، وغيرهم.
وقيل: إنَّ النَّبيَّ ﷺ تُوفِّي في اليوم الثاني عشر من ربيع الأوَّل، وهو قول ٱبن إسحاق والوَاقِدِي وأبي بكر بن حَزْم، وغيرهم، قال ٱبن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ - في البداية والنهاية (٥/ ٢٥٥) -: «وهو القول المشهور».

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ....

والنَّواهي ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، فمَنِ ٱدَّعى أنَّه يحتاج إلى زيادةٍ فقد كذَبَ وٱفترى، ورَدَّ مدلولَ هذه الآية، ورَدَّ مدلولَ قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» رواه أبو داود[(١)].

والكاملُ لا يُزَادُ فيه، ولا يُنْقَصُ منه، ولا يُبَدَّل، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تمَّمَ اللَّهُ سبحانه الدِّينَ بنبيِّه ﷺ وأكملَه به، ولم يُحْوِجْه ولا أُمَّتَه بعده إلى عقلٍ ولا نقلٍ سواه، ولا رأيٍ، ولا مَنامٍ، ولا كشوفٍ»[(٢)].

تمام النِّعمة

ولـمَّا أخبرَ اللَّهُ أنَّه أكملَ لنا الدِّين - وهو أكبرُ نعمةٍ علينا -، قال: (﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾) الظَّاهرة والباطنة، ومَنْ تمَّتْ عليه النِّعمةُ فقد أفلح كلَّ الفلاح، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتَأمَّلْ كيف وصف الدِّين الَّذي ٱختاره لهم بالكمال، والنِّعمة الَّتي أسبغها عليهم بالتَّمام، إيذاناً في الدِّين بأنَّه لا نَقْصَ فيه ولا عَيْب ولا خَلَل، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حُسنه وجلالته، ووَصْفُ النِّعمةِ بالتَّمام إِيذَاناً بدوامها وٱتِّصالها، وأنَّه لا يَسْلُبُهُمْ إيَّاها بعد إذ أعطاهموها، بل يُتمّها

(١) كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)، من حديث العِرْبَاضِ بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٢٦).

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

لهم بالدَّوام في هذه الدَّار، وفي دار القرار»[١].

(﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾) أي: فٱرضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنَّه الدِّين الَّذي أَحبَّه، ورَضِيَه، وبعثَ به أفضل رسله ﷺ، وأنزل به أشرف كتبه، قال كعب: «لَوْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ، لَٱتَّخَذُوا اليَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيداً، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: نَزَلَتْ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَوْمَ عَرَفَةَ» متفق عليه[٢]، ولأنَّه لا يجوزُ إِحْدَاثُ عيدٍ في الإسلام، ولم يشرعْ لنا غير عِيدَيِ الأضحى والفِطْر؛ لذا لم تَتَّخِذْ هذه الأُمَّة اليومَ الَّذي نَزَلَتْ فيه هذه الآية عيداً.

عمل مردود

ولِكَمَالِ هذا الدِّينِ وتمامِه أَخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ كلَّ مَنْ فعلَ ما لم يَأْمُر به، وزاد في دينِ اللَّه ما لم يَأْتِ به الشَّرع، فإنَّ عملَه باطلٌ ومردودٌ عليه؛ لكمال هذا الدِّين، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه[٣].

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٥).

(٢) البخاري، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (٤٥)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومسلم، كتاب التفسير، رقم (٣٠١٧)، من حديث طارق بن شهاب.

(٣) البخاري، كتاب الصلح، بابٌ: إذا ٱصطلحوا على صلح جَوْرٍ فالصُّلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

. . . .

فلْيَفْرَحِ المسلمُ بهذا الدِّين، ولْيَتَمَسَّكْ به، فهو دينٌ كاملٌ شامل، يتمنَّى أهلُ الأديان كلِّهم عند الموت وما بعده من أحوال الآخرة أَنْ يكونوا من أَتْبَاعِه، قال سبحانه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوۡ كَانُوا۟ مُسۡلِمِينَ﴾، ولكن لم يُرِدِ اللَّهُ لهم الهداية؛ لحكمةٍ منه بالغة، قال سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾. ❊

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ....

موتُ النَّبِيِّ ﷺ

واللَّهُ سبحانه هو المتَّصف بالحياة الدَّائمة، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، ونبيُّنا محمَّدٌ ﷺ بشرٌ من البشر، وواحدٌ من المخلوقين، يعتريه ما يعتريهم من الجوع والحزن والمرض والموت، والنَّبيُّ ﷺ لا نَرفعُه فوقَ منزلته، ولا نَهْضِمُه حقَّه، فهو بَشَرٌ فضَّلهُ اللَّهُ بالرِّسالة، لا يَمْلِك لنفسِه ولا لغيرِه نفعاً ولا ضرّاً، لا في حياته ولا بعد مماته، وبعد عُمُرٍ مباركٍ في الدَّعوة إلى توحيد اللَّه وعبادته، والكِفَاح والدَّعوة والصَّبر، توفَّاه اللَّهُ ﷻ بعد ثلاثٍ وستِّين سنة، ولم يَتَوَفَّ اللَّهُ نبيَّه ﷺ حتى أَكْمَلَ به الدِّين، وبلَّغ البلاغَ المبين، حتى قال ﷺ: «لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ - قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: صَدَقَ - وَاللَّهِ - رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، تَرَكَنَا - وَاللَّهِ - عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ -» رواه ابن ماجه[(١)].

الدَّليل على موت النَّبِيِّ ﷺ

(وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ) من القرآن؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ﴾) يا أيُّها الرَّسولُ! (﴿مَيِّتٌ﴾)، وقد مَاتَ وغُسِّل وكُفِّن وصُلِّي عليه، ودُفن ﷺ بالمدينة سنة ١١هـ.

(﴿وَإِنَّهُم﴾) أي: جميع الخلق (﴿مَّيِّتُونَ﴾) مثلك، فالجميعُ سيموت حتماً.

---

(١) كتاب الإيمان، باب اتباع سنة النَّبيِّ ﷺ، رقم (٥)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، ....

(﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾) في أرض المحشر (﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾) فيما تنازعْتُم فيه، فيَفْصِلُ بينكم بحُكْمِه العادل، ويُجَازي كلّاً بعمله.

والموتُ يَجْرِي على الأنبياء وغيرِهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

خاتمة «ثلاثة الأصول» في ذكر أصول شرعيَّة

(وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ)؛ فيُجازَى كلٌّ بِعَمَلِه، ويُقْتَصُّ بعضُهم من بعض، حتى البهائم.

البعث بعد الموت، وأدلَّته

والإيمانُ بالبعث والنُّشور من القبور من جملة الإيمان باليوم الآخر؛ فإنَّ الإيمانَ باليوم الآخر يشمل الإيمان بالبعث، بل الإيمان بالبعث هو مُعْظَم الإيمان باليوم الآخر، وهو الَّذي كان يُنْكِرُه أهل الجاهلية.

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بعد الموت؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا﴾) أي: من الأرض (﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾) أي: مَبْدَؤُكم، فإنَّ أباكم آدم مخلوقٌ من تراب من أديم الأرض.

(﴿وَفِيهَا﴾) أي: في الأرض (﴿نُعِيدُكُمْ﴾) إذا مِتُّم تَصِيرُون إليها فتدفنون بها، (﴿وَمِنْهَا﴾) أي: من الأرض (﴿نُخْرِجُكُمْ﴾) يوم البعث والحساب (﴿تَارَةً﴾) أي: مرَّة (﴿أُخْرَىٰ﴾)، كقوله:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ❊ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

(وَ) دليلٌ آخرُ على أنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بعد موتهم؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾) أَرادَ تعالى مَبْدَأَ خلقِ آدمَ وذرِّيَّته من الأرض، (﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾) أي: في الأرض إذا مِتُّم (﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾) أي: ويُخْرِجُكم من الأرض بعد الموت أحياءً، ويعيدُكم يوم القيامة كما بدأكم أوَّل مرَّة. ❊

وَبَعْدَ البَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

الإيمان بالجزاء والحساب

(وَ) الخلقُ **(بَعْدَ البَعْثِ)** وقيامِهم من قبورهم: **(مُحَاسَبُونَ)** على دقيق الأعمال وجليلِها، صغيرِها وكبيرِها، كما قال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وكلُّ شيءٍ مكتوبٌ في كتابٍ يُنشَر في الحشر، قال ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، والميزانُ في الحشر ميزانُ حقٍّ وعدل، قال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾.

(وَ) بعد هذا الحساب: جميعُ الخلق **(مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ)** إنْ كانت خيراً فخيرٌ، وإنْ كانت شرّاً فشرٌّ، قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

الدَّليل على الجزاء والحساب

(وَالدَّلِيلُ) على أنَّ الخلقَ يُبْعَثُونَ بعد موتهم، ويُحَاسَبُون على أعمالهم؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾)** أي: سَيُجَازي اللَّهُ (﴿ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ﴾) العمل، من الشِّرك فما دونه، سوف يجازيهم (﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾) من إساءة.

(﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾) في عبادة ربِّهم ووَحَّدُوه، وأَحْسَنُوا إلى خلقه، وأَخْلَصُوا له الأعمال، سوف يُثِيبهم على أعمالهم (﴿بِٱلْحُسْنَى﴾) وهي: الجنَّة، بل ولهم الزِّيادة، وهي النَّظر إلى

. . . .

وجهه الكريم، كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقد فسَّر النَّبيُّ ﷺ تلك الزِّيادة بِالنَّظر إلى وجه اللَّه الكريم في قوله: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئاً أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ» رواه مسلم[(١)].

ومن حكمة اللَّه في بعث النَّاس ومحاسبتهم: أنَّه لو لم يكن هناك جزاء ولا حساب لَظَلَم النَّاسُ بعضهم بعضاً، ولَسَلَبَ بعضهم مال بعض، ولَعَمَّت الفوضى في الحياة، وممَّا يَحْجِزُ النَّاسَ عن البَغْيِ والمَعَاصي: تذكُّر الحساب والعقاب، ولمَّا غفل الكفار عن الحساب؛ تَمَادَوْا في الكفر والطُّغيان، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾. ❊

---

(١) كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، رقم (١٨١)، من حديث صُهَيب بن سِنان الرُّومي رضي الله عنه.

وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

كفر مَنْ كذَّبَ بالبعث، ودليله

وشأنُ البعث عند اللَّه عظيم، فهو من أركان الإيمان، **(وَمَنْ كَذَّبَ بِالبَعْثِ كَفَرَ)**؛ لِتَكْذِيبِه اللَّهَ ورسولَه وإجماعَ المسلمين.

(وَالدَّلِيلُ) على كُفْرِ من أَنْكَرَ البعث؛ **(قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ﴾)** أي: ٱدَّعى وظن (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾) ضلالاً منهم (﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾) للحساب والجزاء، وقد حَكَمَ اللَّهُ بكفرهم؛ لإنكارِهم البعث، فدل على أنَّ إنكارَ البعث كفر، بل هو من أعظم كُفْرِ أهل الجاهليَّة، لهذا قال اللَّهُ لِنبيِّه ﷺ: يا أيُّها الرَّسول! (﴿قُلۡ﴾) لمنكري البعث: (﴿بَلَىٰ﴾) ستُبْعَثُون، وٱحْلِف لهم - يا محمَّدُ! - يميناً باللَّهِ، قائلاً فيها: (﴿وَرَبِّي﴾) وخَالِقِي (﴿لَتُبۡعَثُنَّ﴾) يومَ القيامة للحساب، (﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾) وتُجَازَوْنَ عليها.

الاَستدلال بالبداءة على العودة

(﴿وَذَٰلِكَ﴾) أي: البعث بعد الموت (﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾) سهلٌ لا يُعْجِزُه، فهو سبحانه على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، والَّذي قَدَرَ على النَّشأة الأُولى، قادرٌ على إنشاء الإنسان مرَّة أخرى، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾.

فإذا كان الإنسانُ معدوماً لم يوجد، ثمَّ خلقهُ اللَّهُ من طينٍ،

. . . .

فإنَّه لا يُعْجِزُه أن يعيده وهو الَّذي خَلَقَهُ أوَّلَ مَرَّة، قال النَّبيُّ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ٱبْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: ٱتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئاً أَحَدٌ» رواه البخاري[1]. ❋

---

(١) كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، رقم (٤٩٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

الحكمة من إرسال الرُّسل، ودليلها

(وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ) مِنْ أوَّلِهم إلى آخرِهم، كلُّهم يدعون إلى عبادة اللَّه وحده، وتركِ عبادة ما سواه.

(مُبَشِّرِينَ) مَنْ وحَّد اللَّهَ بالجنَّة.

(وَمُنْذِرِينَ) ومُحذِّرين مَنْ أشركَ باللَّه بالخلود في النَّار.

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا﴾) أرسلناهم إلى النَّاس (﴿مُّبَشِّرِينَ﴾) من أطاعهم بالجنَّة، وأعلى الطَّاعات هي التَّوحيد، (﴿وَمُنذِرِينَ﴾) مَنْ عَصَاهُم من المشركين والعصاة من النار، وأعظمُ الذُّنوب والعصيان هو الشِّرك، فلم يَدَعِ الرَّبُّ خلقَه يَهِيمُون في حَيْرَة يَبْحَثُون عن الحقِّ؛ بل أرسل إليهم من يَدُلُّهُم عليه، ولم يُطَالِبْهم بسوى الاتِّباع، وقد لَقِيَ الأنبياءُ والرُّسلُ في سبيل دعوة النَّاس الابتلاء والإيذاء فصبروا حتى بلَّغوا رسالةَ ربِّهم.

بالرُّسل قطع الحجَّة

(﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾) أي: قَطْعاً لِحُجَج النَّاس يومَ القيامة، لئلَّا يقولوا: ما أَرْسَلْتَ إلينا رسولاً، وما أَنْزَلْت إلينا كتاباً، فانقطعت حجَّة الخلق على اللَّهِ بإرسالِ الرُّسل، وإنزالِ الكتب، وإقامةِ الحُجَج عليهم، وتَبْيِينِ الحقِّ لهم، وركَز الفطر في قلوبهم، ولم يَبْقَ لِلْمُعْتَذِرِ عذرٌ لأنَّ اللَّهَ

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عليه السلام.

وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

أرسلَ الرُّسلَ تَتْرَى، رسول يخلف رسولاً، يُبَيِّنون للنَّاس أَمْرَ دينِهم ومَرَاضي ربِّهم ومَسَاخِطَه، وطرقِ الجنَّة، وطرقِ النَّار، فمَنْ كَفَر منهم بعد ذلك فقد سَلَكَ طريق الشَّقاء.

أوَّل الرُّسل

(**وَأَوَّلُهُمْ**) أي: أوَّلُ الرُّسل (**نُوحٌ عليه السلام**)، وكان بينَ نوح وبين آدمَ عشرة قرون، كلُّهم على الإسلام، فلمَّا حَدَثَ الشِّركُ بسبب الغُلُوِّ في الصَّالحين أرسل اللَّهُ إليهم نوحاً، وهو أوَّلُ رسولٍ إلى أهلِ الأرض.

آخر الرُّسل

(**وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ**) ثبت ذلك بالكتاب والسُّنَّة والإجماع.

الدَّليل على ختم الرُّسل بنبيِّنا محمدٍ ﷺ

(**وَالدَّلِيلُ**) على أنَّ آخرَهم مُحمَّدٌ ﷺ من الكتاب؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾**)، ومِنَ السُّنَّةِ قولُه ﷺ: «إِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» متفق عليه[(١)].

---

(١) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكِرَ عن بَنِي إسرائيل، رقم (٣٤٥٥)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء بِبَيْعَة الخلفاء الأول فالأول، رقم (١٨٤٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

الدَّليل على أنَّ نوحاً عليه السلام أوَّل الرُّسل

(وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ) عليه السلام من القرآن؛ (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾) يا أيُّها النَّبيُّ - محمَّدٌ! - (﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ﴾) أوَّلِ الرُّسل (﴿نُوحٍ﴾) عليه السلام (﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾) أي: من بعدِ نوح، فهو أوَّلُ رسول، وأول نذيرٍ عن الشِّرك.

والدليلُ من السُّنَّةِ على أَنَّ أوَّلَهُم نوح؛ ما وَرَدَ في حديثِ الشَّفَاعَة: أنَّ النَّاسَ يَأْتونَ إلى آدم؛ «فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، ٱذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، ٱذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحاً، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ! أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ» متفق عليه[1].

وأما عددُ الأنبياء: فقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَم الأَنْبِيَاءُ؟ قَالَ: مِئَةُ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفاً، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَمِ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: ثَلَاثُ مِئَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، جَمّاً غَفِيراً» رواه ٱبن حبان[2]، منهم مَنْ قَصَّ اللَّهُ علينا أمرَه، ومنهم

(١) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنَّة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كتاب البر والإحسان، باب الصِّدق والأمر بالمعروف، رقم (٣٦١).

. . . .

مَنْ لم يَقْصُصْ علينا أمرَه، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، فأَقَامَ اللَّه تعالى الحُجَّة بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب. ❊

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولاً - مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ - يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

دعوة جميع الرُّسل

(وَكُلُّ أُمَّةٍ) أي: جماعةٍ **(بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولاً)** يدعوهم إلى التَّوحيد ويُحَذِّرُهُمْ مِنَ الشِّرك.

بَدْءاً **(مِنْ نُوحٍ)** عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أوَّلُ رسولٍ إلى أهل الأرض، **(إِلَى مُحَمَّدٍ)** ﷺ وهو آخر الرُّسل، وخاتَمُهم، وأفضلُهم، وأكثرُهم تابعاً.

ومَا مِنْ أُمَّةٍ من الأُمَم إلَّا وقد بَعَثَ اللَّهُ فيهم رَسُولاً؛ إقامةً منه تعالى للحُجَّة على عباده، وإيضاحاً للمَحَجَّة، قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

(يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ) فكلُّ نبيٍّ يَدْعُو قومَه إلى هذا، وهو الَّذي بُعِثَتْ به جميعُ الرُّسل، ودَعْوَتُهُم كلُّهم واحدة، وهي إفرادُ اللَّه بالعبادة.

(وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ) والتَّبرِّي منها ومن أهلِها، فخلاصةُ جميع رسالات الرُّسل هي: الأمر بالتَّوحيد والتَّحذير من الشِّرك.

الدَّليل على أنَّ الرُّسل بُعِثُوا بالدَّعوة إلى التَّوحيد والنَّهي عن الشِّرك

(وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾) وقومٍ (﴿رَّسُولًا﴾) يأمرُهم بتوحيد اللَّه قائلاً لهم: (﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾) وأَخْلِصُوا له العبادة.

(﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾) بالكفر به.

. . . .

فأوَّلُ شيءٍ بَدَأَتْ به الرُّسُل أقوامَهم هو: التَّوحيد، وقد أخبرَ اللَّهُ أنَّ أوَّلَ أَمْرٍ بَدَأَ به نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ وشعيبٌ وغيرُهم من الرُّسل أَنْ قالُوا لأقوامِهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وكما قال اللَّهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

لماذا الٱهتمام بالتَّوحيد؟

ومعرفتُك عظمةَ التَّوحيد تَصرِفُ همَّتَك إليه، وإلى معرفته، والعمل به غاية جهدك، وإلى معرفة ما يضادُّه، فيجب على العبد أن يهتمَّ غاية الٱهتمام بمعرفة أصل الدِّين قبل الواجب من الفروع - كالزَّكاة، والصَّلاة، وغير ذلك -، فلا تصحُّ الصَّلاةُ ولا الزَّكاةُ قبل الأصل، فلا بدَّ من معرفةِ أصلِ الدِّين، ثمَّ معرفةِ فروعه، وفي حديث معاذٍ رضي الله عنه لَمَّا بَعَثَهُ ﷺ إلى اليَمَن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّه، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ ٱفْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ» متفق عليه[١].

وهذا يفيدُ أنَّهم إذا لَمْ يعلموا التَّوحيد ولم يعملوا به فلا يدعوهم للصَّلاة إن لَمْ يطيعوه في الدُّخول في الإسلام، فإنَّ

---

(١) البخاري، كتاب الزكاة، بابٌ؛ لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٤٥٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان باللَّه ورسوله وشرائع الدِّين والدعاء إليه، رقم (١٩)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

. . . .

الصَّلاةَ وغيرَها لا تَنْفَعُ بدون التَّوحيد، فإنَّه لا يستقيمُ بناءٌ على غيرِ أساس، ولا فرعٌ على غيرِ أصل، والأصل والأساس هو التَّوحيد، والصَّلاة - وهي عمود الإسلام - لم تُفْرَض إلا بعد الأمر بالتَّوحيد بنحوِ عشر سنين.

وممَّا يُبيِّن أنَّ التَّوحيدَ هو الأصل: أنَّه يُوجَدُ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ ولو لَمْ يُصَلِّ ركعةً واحدة، وذلك إذا ٱعتقدَ أنَّ اللَّهَ وحده المُستحقُّ للعبادة، وعمل به ومات متمسِّكاً به، كمَنْ يُسْلِمُ ثمَّ يُقْتَلُ شهيداً بعد إسلامِه وقبلَ أَنْ يَحِينَ عليه وقتُ صلاة، قال البَرَاءُ بن عَازِبٍ رضي الله عنهما: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قَالَ: أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ، فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ؛ فَقُتِلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَمِلَ قَلِيلاً، وَأُجِرَ كَثِيراً» متفق عليه[1].

العمل بلا توحيد لا ينفع

والصَّلاةُ لا تَنْفَعُ وحدَها مع عدمِ التَّوحيد، وكذا لو زكَّى وصَام، لأنَّ أعمالَه هباءٌ إذا لَمْ يَعْرِفِ التَّوحيد، ويَعْمَلْ به، ويعتقدْه في قلبه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، وبذلك يُعْرَفُ عِظَمُ شأنِ إفرادِ اللَّهِ

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب عمل صالح قبل القتال، رقم (٢٨٠٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد، رقم (١٨٩٩)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

. . . .

بالعبادة، وما هَلَكَ مَنْ هَلَكَ إلَّا بتركِ العلم بالتَّوحيد، والعملِ به، وقد دخل الشَّيطانُ على مَنْ دَخَلَ في بابِ الشِّرك، مِنْ آفَةِ قولِهم: يكفي في الإسلام النُّطقُ بالشَّهادَتَيْن، ويجب على العبد أَنْ يعلمَ أنَّ مجرَّدَ المعرفة والنُّطق بها دون العلم بمعناها والعمل بمقتضاها ودون الاحتراز من نواقضها لا تَنْفَعُ صاحبَها.

ومعرفةُ التَّوحيدِ والشِّركِ سهلٌ هيِّن، مِنْ أهونِ ما يكونُ وأسهلِه إجمالاً، ففي زمن بعثةِ النَّبيِّ ﷺ كانوا يَعْرِفُونَ التَّوحيدَ والشِّرك، فمَنْ قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ يتركُ الشِّركَ ويَعْلَمُ أنَّه باطلٌ مُنافٍ لكلمةِ الإخلاص، ولهذا لَمَّا دعاهم النَّبيُّ ﷺ إلى التَّوحيد وقال: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ تُفْلِحُوا» رواه أحمد(١)، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وأمَّا حين كثرت الشُّبهات: صَعُبَ معرفةُ التَّوحيد، والتَّخلُّص من ضدِّه، وكَثُرَ النِّفاق، وصَارَ الكثيرُ يقول الشَّهادة ويَعْبُدُ مع اللَّه غيرَه؛ لأنَّه لا يعرف معناها، ويَظُنُّ أنَّ معناها هو عبادةُ اللَّه فقط، دون الكفرِ بالطَّاغوت، أوالتَّلفُّظ بها دون تحقيق معناها والعمل بمقتضاها. ❊

(١) رقم (١٦٠٢٣)، من حديث ربيعة رضي الله عنه.

وَٱفْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ: الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ، وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ.

قَالَ ٱبْنُ القَيِّم - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: «مَعْنَى الطَّاغُوتِ: مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ ....

ركنا التَّوحيد؛ الكفر بالطَّاغوت، والإيمان باللَّه

(وَٱفْتَرَضَ اللَّهُ) أي: أوجبَ (عَلَى جَمِيعِ العِبَادِ) - من إنسٍ وجنٍّ، وذكرٍ وأنثى، عربيٍّ أو عجمي، حرٍّ أو عبد - (الكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ) والتَّبرُّؤَ من الآلهة وأهلِها، وٱعتقاد بطلانها، وأنَّها لا تنفع ولا تضر، (وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ) أي: إفرادَه بالعبادة وحده دون سواه.

ومَنْ آمنَ باللَّهِ ولَمْ يَكْفُرْ بالطَّاغوت، لا يُسمَّى موحِّداً، ومَنْ كَفَرَ بالطَّاغوتِ ولَمْ يَعْبُدِ اللَّه، لا يُسمَّى موحِّداً، إنَّما المُوحِّدُ مَنْ جَمَعَ بين ركنيِ التَّوحيد، وهما: الكفر بالطَّاغوت، والإيمان باللَّه، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، فمَنْ كفرَ بالطَّاغوت وآمنَ باللَّه؛ فقد ٱستمسك بالعُرْوَة الوُثْقَى لا ٱنفصام لها.

تعريف الطَّاغوت

(قَالَ) أبو عبدِ اللَّه، محمَّدُ بنُ أبي بكر (ٱبْنُ القَيِّمِ) الجَوْزِيَّة[1] (رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى) رحمةً واسعة، وأسكنه أعلى جناته، قال في (مَعْنَى الطَّاغُوتِ)[2] هو: (مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْدُ حَدَّهُ) أي: قدْرَهُ الَّذي ينبغي له في الشَّرع، إذا فعل ذلك صار

---

(١) المتوفَّى: سنة إحدى وخمسين وسبع مئة (٧٥١هـ).

(٢) ذكره في إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

- مِنْ مَعْبُودٍ، أَوْ مَتْبُوعٍ، أَوْ مُطَاعٍ -».

بِخُرُوجِهِ منه وتجاوُزِهِ طاغوتاً، سواء كان هذا الطُّغيان، أو التَّعدِّي والتَّجاوز:

(مِنْ مَعْبُودٍ) مع اللَّه، بأيِّ نوعٍ من أنواعِ العبادة.

(أَوْ) من **(مَتْبُوعٍ)** في معاصي اللَّه، ويدخل في ذلك علماء السُّوء الدَّاعين إلى الكفر والضَّلال، ويدخل كذلك الكُهَّان والسَّحَرَة الَّذين يُتَّبَعُون فيما يقولون.

(أَوْ) من **(مُطَاعٍ)** من دون اللَّهِ في التَّحليل والتَّحريم، بأَنْ يُحرِّمَ ما أَحَلَّ اللَّه، أو يُحِلَّ ما حَرَّم اللَّه، ثم قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإذا تَأمَّلْتَ طواغيتَ العالم، فإذا هي لا تَخْرُجُ عن هذه الثَّلاثة»(١). ❊

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٥٠).

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرَةٌ، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ - لَعَنَهُ اللَّهُ -، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، . . . .

(وَ) إذا عَرَفْتَ ما بيَّنه وأَوْضَحَه ٱبْنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في تعريفِ الطَّاغوت، تبيَّن لك أنَّ (الطَّوَاغِيتَ) من الخلق (كَثِيرَةٌ) جدّاً، وذلك أنَّ كلَّ مَنْ تجاوزَ حدَّه في الشَّرع صار بِخُرُوجِه منه وتَجَاوُزِه طاغوتاً.

رؤوس الطَّواغيت

(وَرُؤُوسُهُمْ) أي: زعماؤُهم بالاستقراء والتَّأمُّل (خَمْسَةٌ):

إبليس: رأس الطَّواغيت

أوَّلُهم: (إِبْلِيسُ) الشَّيطان الرَّجيم، وهو رأسُهم الأكبر، فقد تجاوز ما أمر اللَّهُ به وعصاه، وٱرتكب ما نهاه عنه، وهو الدَّاعي إلى عبادة غير اللَّه، فهو أوَّل الطَّواغيت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وقد (لَعَنَهُ اللَّهُ) فهو مطرودٌ مُبْعَدٌ عن رحمة اللَّه كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

من عُبِدَ وهو راضٍ

(وَ) **الثَّاني**: (مَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ) بتلك العبادة الصَّادرة من العابد بأيِّ نوعٍ من أنواعها، فهو طاغوتٌ من رؤساء الطَّواغيت وكبرائِهم، سواء عُبِدَ في حياته، أو بعد مماته إذا مات وهو راضٍ بذلك، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ٱدَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ، ....

مَنْ دعا النَّاس إلى عبادة نفسه

(وَ) الثَّالثُ من الطَّواغيت: (مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ) كفرعون، وأهلِ الضَّلال الذين غرضهم العلوُّ في الأرض والفساد وٱتِّخاذ النَّاس لهم أرباباً من دون اللَّه، أو الإشراك بهم في حياتهم أو بعد مماتهم، كما قال تعالى - إخباراً عن فرعون أنَّه قال -: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، فمَنْ دَعا النَّاسَ إلى عبادةِ نفسِه - وإنْ لَمْ يَعْبُدُوه - فإنَّه من رُؤُوسِ الطَّواغيت، سواء أجابوه إلى ما دعا إليه أم لَمْ يُجِيبُوه، لأنَّ العبادةَ لا تُصْرَفُ إلا لِلَّه، ومَنْ دعا إلى صرف العبادةِ عن اللَّهِ إلى نفسِه فقد طَغَى وأَتَى بأعظم البهتان.

مَنِ ٱدَّعى علمَ الغيب

(وَمَنِ ٱدَّعَى شَيْئاً مِنْ عِلْمِ الغَيْبِ) كما يَزْعُمُهُ الكاهنُ ونحوُه، فهو الرَّأسُ الرَّابعُ من الطَّواغيت، وما يَزْعُمُهُ كَذِبٌ وخديعةٌ على عامَّة النَّاس، قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾، فإنَّ علمَ الغيبِ لا يعلمُه إلَّا اللَّه، لا تَعْلَمُهُ الملائكة والأنبياء، ولا مَنْ دونَهم من الجنِّ أو السَّحَرة أو الكهَّان، وهذا من تمام إحكام الخلق، وكمال الهَيْمَنَة، وعظمة الرُّبوبيَّة، قال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولٱنفرادِ اللَّهِ بعلم الغيب فإنَّ كلَّ مَنِ ٱدَّعاه فهو

وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

كاذب، قالت عائشة رضي الله عنها: «سَأَلَ أُنَاسٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الكُهَّانِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ: لَيْسُوا بِشَيْءٍ» متفق عليه[1].

مَنْ حكَم بغير ما أنزل اللَّه

(وَ) الخامسُ من الطَّواغيت: **(مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ)** كمَنْ يُحَكِّم القوانينَ الجاهليَّة، أو يُحَكِّم بشيءٍ من وَضْع البَشَر، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾، وقال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فاللَّهُ ﷻ هو الَّذي خَلَقَ الخلق، وهو أعلمُ بأحوالِهم وأفعالِهم، وهو الَّذي أَنْزَلَ الأحكامَ العادلةَ الَّتي تَفْصِلُ في حُكُومَاتِهم؛ فَفَرَضَ على جميعِ الخلقِ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى شرعِه. *

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب قول الرَّجل ليس بشيء وهو ينوي أنَّه ليس بحق، رقم (٦٢١٣)، ومسلم، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، رقم (٢٢٢٨).

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ ....

معنى: «لا إكراه في الدين»

(**وَالدَّلِيلُ**) على أَنَّ اللَّهَ ٱفْتَرَضَ على جميع العباد الكفرَ بالطَّاغوت والإيمانَ باللَّه؛ (**قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾**) أي: لا تُكرهوا أحداً على الدُّخول في الإسلام؛ لكماله وقبول الفطرة له، ولأنَّه بيِّن واضحٌ جليٌّ في دلائله وبراهينه، لا يحتاج أن يُكره أحدٌ على الدُّخول فيه، فمَنْ هداه اللَّهُ للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرتَه دخل على بيِّنة، ومَنْ أَعْمَى اللَّهُ قلبَه وخَتَمَ على سَمْعِه وبَصَرِه فإنَّه لا يفيدُه الدُّخول في الدِّين وهو مُكْرَه.

ولا مُنَافاة بين هذه الآية والآيات الدَّالة على وجوب الجهاد؛ لأنَّ الجهادَ مَشْروعٌ لقتالِ كلِّ مَنْ وَقَفَ في وجهِ الإسلام، ولا يُلزِمُ النَّاسَ ويُكرِهُهُمُ على الدُّخول في الإسلام، لأنَّه (﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾) أي: ظَهَرَ وتَمَيَّزَ الحَقُّ من الباطل، والإيمانُ من الكفر، والهدى من الضَّلال، بالآيات والبراهين الدَّالة على ذلك، فإذا تبيَّن الرُّشد من الغيِّ فإنَّ كلَّ نفسٍ سليمة لا بدَّ أن تختار الرُّشدَ على الغيِّ.

صفة الكفر بالطَّاغوت

(﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾) بخَلْعِ الأندادِ والأوثانِ ويَتَبرَّأ منها ومِنْ أهلِهَا، فقد حقَّقَ الرُّكنَ الأوَّلَ من رُكْنَي التَّوحيد، قال الشَّيخ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «صفةُ الكفرِ بالطَّاغوت: أَنْ

وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ . . . .

تَعْتَقِدَ بُطلانَ عبادة غير اللَّه، وتَتْرُكَها وتبغضها، وتكفِّر أهلَها وتُعَاديهم»[1]، والكفرُ بالطَّاغوت شرطٌ في قبول العبادات، قال ٱبن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يكفي أَنْ يَعبُدَ اللَّه ويحبَّه ويتوكَّلَ عليه وينيبَ إليه ويخافَه ويرجوه، حتى يترك عبادةَ غيره والتَّوكُّلَ عليه والإنابةَ إليه وخوفَه ورجاءَه ويبغضَ ذلك»[2].

معنى: «الإيمَان باللَّه»

(﴿وَ﴾) مَنْ (﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾)، ويُفردْه بالعبادة، ويُخلصْ له جميع الأعمال؛ فقد حقَّقَ الرُّكنَ الثَّاني من رُكْنَيِ التَّوحيد، قال الشَّيخ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعنى الإيمان باللَّه: أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ هو الإلهُ المعبودُ وحده دون مَنْ سواه، وتُخْلِصَ جميعَ أنواعِ العبادة كلِّها لِلَّه، وتَنْفِيَها عن كلِّ معبودٍ سواه، وتُحِبَّ أهلَ الإخلاص وتُوالِيهِم، وتُبْغِضَ أهل الشِّرك وتُعَادِيهِم»[3].

فمن حقَّقَ رُكْنَيِ التَّوحيد - وهما: الكفرُ بالطَّاغوت، والإيمانُ باللَّه -: (﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾) أي: تَمَسَّك (﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾) وهي: التَّوحيد، والعُرْوةُ هي: مَوْضِعُ شدِّ اليَدِ، والوُثْقى هي: القَوِيَّة.

---

(١) مجموعة التوحيد (ص٢٦٠).
(٢) شفاء العليل (ص٣٤٦).
(٣) مجموعة التوحيد (ص٢٦٠).

لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وَهَـذَا مَـعْـنَـى «لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ»، ....

(﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾) أي: لا تَنْفَكُّ ولا تَنْفَصِم، أي: قد ثَبَتَ في أَمْرِه وٱسْتَقَامَ على الطَّريقةِ المُثلَى والصِّراطِ المستقيم، فمَنْ تمسَّكَ بالتَّوحيد وكَفَرَ بالطَّاغوت؛ وَصَلَ الجنَّة بكلِّ حال.

(﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾) للأقوال، (﴿عَلِيمٌ﴾) بكلِّ شيءٍ لا تَخْفَى عليه خافية.

معنى: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»

(وَهَذَا مَعْنَى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»)؛ فإنَّ مَعْنَى (لَا إِلَهَ) الكفر بالطَّاغوت، و(إِلَّا اللَّهُ) الإيمان باللَّه والٱستسلام لأمرِه وشَرْعِه، وبَدَأَ بالكفرِ بالطَّاغوت قبل الإيمان باللَّه؛ لأنَّ من كمالِ الشَّيء إزالة الموانع قبل وجود الثَّوابت. *

وَفِي الحَدِيثِ: ....

(وَفِي الحَدِيثِ) الطَّويلِ الَّذي رواه التِّرمذيُّ[١]، عن معاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ.

قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ - وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ -: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ.

قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ! فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا.

---

(١) أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

«رَأْسُ الأَمْرِ: الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، ....

فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!».

رأس الدِّين: الإسلام

(رَأْسُ الأَمْرِ) يعني: رأسُ الدِّين الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ هو **(الإِسْلَامُ)** يعني: شهادة ألَّا إله إلا اللَّه وأنَّ محمَّداً رسول اللَّه، فمن ٱلتزم بها دخل الإسلام.

وأراد المُصنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الٱستدلالَ بهذا الحديث على أنَّ لِكلِّ شيءٍ رأساً، فرأسُ الأمر الَّذي جاء به محمَّدٌ ﷺ الإسلام، فمَنِ ٱدَّعى الٱستجابة لِلَّه ورسوله وهو لم يقبل الحقَّ ويدخل في الدِّين؛ فقد كذب وٱفترى.

عمود الدِّين: الصَّلاة

(وَعَمُودُهُ) أي: الدِّين؛ **(الصَّلَاةُ)**، وهذا يُبيِّنُ عِظَم شأن الصَّلاة، وأنَّها من الدِّين بهذا المكان العظيم، وهو أنَّ مكانَها من الدِّين مكان العمود من الفُسْطاط[(١)]، فكما أنَّ عمودَ الفُسْطاط إذا سَقَطَ سَقَطَ الفُسْطاط، فكذلك إذا فقدت الصَّلاة سقط دين تاركها ولم يبق له دين، قال ٱبن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا قِوَام الدِّين الَّذي يَقُومُ به الدِّين كما يَقُومُ الفُسْطاطُ على عموده فهي الصَّلاة»[(٢)]،

---

(١) أي: الخيمة، والفُسْطَاطُ: بيت من شعر. يُنظر: لسان العرب (٩/ ١٢٦)، ومختار الصحاح (ص٢٣٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٤).

. . . .

لأنَّ مُجرَّدَ تركِ الصَّلاةِ كفرٌ مُخْرِجٌ من المِلَّة.

حكم تارك الصَّلاة

وهذا الحديثُ من الأدلَّة على أنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ كسلاً فهو كافر، ومن الأدلَّة - أيضاً - على أنَّ مَنْ تَرَكَها كَفَر؛ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ: تَرْكَ الصَّلَاةِ» رواه مسلم(١)، وقال عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه: «لَا حَظَّ فِي الإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ» رواه مالك(٢).

وهي مِنْ أحبِّ الأعمالِ إلى اللَّه، وأوَّلُ ما يُحَاسَبُ عليها العبدُ مِنْ عَمَلِه يوم القيامة، وهي الَّتي فَرَضَها اللَّهُ تعالى بنفسه ليلةَ المعراج فلم يجعل فيها بينه وبين رسولِه مُحمَّدٍ ﷺ واسطة، وقد كان عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يَكْتُبُ إلى عُمَّالِه: «إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، مَنْ حَفِظَهَا وَحَافَظَ عَلَيْهَا؛ حَفِظَ دِينَهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ» رواه مالك(٣)، وهي تَنْهَى عن الفَحْشَاء والمُنْكَر، وتُورِثُ الخشوعَ والخشيةَ من اللَّه. *

---

(١) كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق ٱسم الكفر على من ترك الصلاة، رقم (٨٢)، من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما.

(٢) كتاب وقوت الصَّلاة، العمل في من غلبه الدَّم من جرحٍ أو رُعافٍ، رقم (١١٧)، من حديثِ المِسْوَرِ بن مَخْرَمَة رضي الله عنهما.

(٣) في الموطأ، كتاب وقوت الصَّلاة، رقم (٩)، من حديث نافع.

وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

ذِروة الدِّين: الجهاد

(وَذِرْوَةُ) - ذِرْوَةُ كلِّ شيءٍ أعلاه وأرفعه - (سَنَامِهِ) والسَّنامُ: هو أعلَى ظهر البعير.

ومعنى ذِرْوَة سَنام البَعِير: أي: أعلَى جزءٍ في سَنَامِه، وهكذا الدِّينُ ذِرْوَة سَنَامِه وعلوُّ أمرِه ورفعتُه وعزَّته: (الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، قال ٱبن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يدلُّ على أنَّه أفضلُ الأعمال بعد الفرائض»[(١)]، لأنَّ به صيانة الدِّين وحمايته، وبه دعوة النَّاس إلى دين اللَّه وإلزامهم بالحق، فهو ذِرْوَةُ سَنامه من جهة ما تضمَّنه من حماية الدِّين والدَّعوةِ إلى الحقِّ.

فالجهادُ هو أعلَى وأرفعُ خصال الدِّين، قال ٱبنُ دَقِيقِ العِيدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجهادُ لا يُقَاوِمُه شيءٌ من الأعمال»[(٢)]، وقد جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ، قَالَ: لَا أَجِدُهُ، قَالَ: هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ المُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟! قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟!» رواه البخاريُّ[(٣)]، وذلك لأنَّ فيه بَذْلَ المُهَجِ الَّتي ليس شيءٌ أَنْفس منها، فيَبْذُلُ مُهْجَتَه ويَبْذُلُ مالَه؛ لِظُهورِ الدِّين وتَأْيِيدِه،

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/١٤٦).

(٢) شرح الأربعين لٱبن دقيق العيد (ص١٦٩).

(٣) كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، رقم (٢٧٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

. . . .

ولمَا فيه مِنْ جهاد الكفَّار والمنافقين، فبذلك ٱسْتَحقَّ أَنْ يكون من الدِّين بهذه المكانة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فضائل الجهاد في سبيل اللَّه

وقد جاءت نصوصٌ عديدةٌ في فضائله، وما أعدَّ اللَّهُ للمجاهدين من عظيم الثَّواب، كقوله ﷺ: «مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ، وَتَوَكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ: أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ سَالِماً، مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» متفق عليه(١)، وقولِه ﷺ: «غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّه أَوْ رَوْحَةٌ؛ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» متفق عليه(٢).

قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية رحمه الله: «والجهادُ عملٌ مشكورٌ

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه، رقم (٢٧٨٧)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشَّهادة في سبيل اللَّه، رقم (١٨٧٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنَّة والنَّار، رقم (٦٥٦٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة فِي سبيل اللَّه، رقم (١٨٨٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

لصاحبِه في الظَّاهر لا محالة، وهو مع النِّيَّةِ الحسنةِ مشكورٌ ظاهراً وباطناً، ووَجْهُ شُكْرِه: نَصْرُهُ للسُّنَّةِ والدِّين»[١].

وقد أعدَّ اللَّهُ للمجاهدين درجات عالية في جنَّات النَّعيم، قال ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» رواه البخاري[٢].

الجهاد ركن من أركان الدِّين

والجهادُ ركنٌ من أركانِ الدِّين، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية ﵀: «كمالُ الإسلام هو بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وتمامُ ذلك بالجهاد في سبيل اللَّه»[٣]، وهو برهانُ إيمانِ العبدِ إذا صَدَقَ فيه مع اللَّه، قال شيخ الإسلام ٱبنُ تيمية ﵀: «الصِّدقُ في الإيمانِ لا يكون إلا بالجهاد في سبيل اللَّه»[٤].

ثمَّ خَتَم المُصنِّفُ ﵀ هذا المُصنَّفَ العظيمَ بِرَدِّ العِلْم إلى مَنْ أَحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، فقال: **(وَاللَّهُ أَعْلَمُ)**.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يجعلَنا من عباده الموحِّدين، وأَنْ يحشُرَنا مع النَّبيِّين والشُّهداء والصَّالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

واللَّهُ أعلم، وصلَّى اللَّهُ على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبِه وسلَّم تسليماً كثيراً. ❋

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٩).

(٢) كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين، رقم (٢٧٩٠)، من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٠٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٢١٢).

فِهرِسُ المَوضُوعَاتِ

* * *

لطلب الكميات ٠٥٦٤٤٤٨٤٥٤

دار الدليقان للتوزيع

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٤٧٠٨-٧